زدني علماً

المستشرق
هنري ماسّيه

الاسلام

ترجمة
بهيج شعبان

منشورات عويدات
بيروت - باريس



al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الاسلام

الإسلام

للمستشرق
هنري ماسيه

ترجمة
بهيج شعبان

علّق عليه وقدّم له

سماحة الدكتور مصطفى الرافعي
مستشار المحكمة الشرعية العليا في لبنان

و

سماحة الشيخ محمد جواد مغنية
أستاذ الفلسفة الإسلامية في الجامعة اللبنانية

منشورات عويدات
بيروت - باريس



www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

الطبعة الثالثة ١٩٨٨

LIBRAIRIE ARMAND COLIN

MAX LECLERC & Cie EDITEURS

Société à Responsabilité limitée au Capital de [illegible]

Adr. Télégr. ARCOLIN PARIS [illegible]
Tél. Odéon [illegible]
Reg. du Com. [illegible]
Reg. des Prod. [illegible] CA 822



103 Boulevard St Michel
PARIS 5e Arrond.
Chèques Postaux Paris [illegible]
N° d'Entreprise [illegible]

RÉFÉRENCE
[illegible]

MM. Max LECLERC & Cie. (Librairie Armand Colin), 103 Boulevard Saint-Michel, Paris Ve, cèdent aux Éditions [illegible], [illegible] le droit exclusif de publier, sous forme de livre, la traduction en langue arabe de l'ouvrage intitulé :

« L'[illegible] »

dont M. [illegible] est l'auteur, cette autorisation s'appliquant [illegible] pays de langue arabe.

En foi de quoi, Paris le 14/9/[illegible]

LIBRAIRIE ARMAND COLIN
[illegible]
[illegible]
[illegible]


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

مُقَدّمة

بقلم

سماحة الدكتور مصطفى الرافعي

قرأت هذا الكتاب مرة ومرة ، وكنت اود قراءتـه مرات ، لا لأنه يتنـاول البحث في امور هي من جوهر اختصاصي فحسب ، بل لما اشتمل عليه من آراء وافكار ، خليقة بامعان النظر ، ان لجهة جدتها وان لجهة توافقهـا او عدم توافقها بالنسبة لما عرفناه نحن وتعلمناه .

وليس من ريب بأن المؤلف الاستاذ « هنري ماسّيه » قد ابدى جهدا صادقاً مشكورا في اخراجه ، كما وان المترجم الاستاذ « بهيج شعبان » لم يتنكر للامانة العلمية حيث نقل مضمونه الى العربية ـ على ما يبدو ـ بكل اخلاص ودقة ، فاستحق كلاهما الشكر والثناء .

على ان هذا السفر القيم ، وان أتى في بعض ابوابه ، خارجاً على مألوف المسلمين ، او مغايراً لبعض الفروع الفقهية ،

او ضاربًا بعرض الحائط الحكم الجليلة التي تنطوي عليها بعض احكام الدين او عمل الرسول الكريم ، فانه ـ والحق يقال ـ قد راعى التسلسل التاريخي بشكل يدعو الى الاعجاب . وما الآراء الغريبة التي طالعنا بها المؤلف الا ما عودنا المستشرقون عليه بوجه عام ، ولعل بعضها مقتبس عنهم ومأخوذ منهم .

يدل على ذلك كثرة اعتماده على زملائه امثال «غولدزيهر» و « نولدكه » و « سنوك » و « لامنس » و « كارادي فو » وغيرهم . وهي آراء ، وان لم يرق لنا كثيرها ، فانها تمنحنا فرصة مناقشتها وتصويبها ، وهي كثيرة في هذا الكتاب لا تتسع هذه العجالة لتفنيدها والرد عليها .

بيد ان ما لا يدرك كله لا يترك جله . وحسبي في هذه العجالة ان اشير اشارة عابرة الى بعضها ، محاولا معالجتها ، تاركا ليراعة العلماء فيما بعد مناقشة ما تبقى منها :

أولا ـ يلاحظ القارىء على الصفحة ٢٤ ـ ٢٥ العبارة التالية : [والرجل المطرود من قبيلته على أثر خطأ او جرم يجد نفسه في وضعية يائسة . وهذه كانت حالة محمد في فترة ما] . مع العلم بأن محمداً ﷺ لم يكن في اي وقت مخطئاً ولا مجرماً ، ومن الطبيعي ان يؤذيه قومه اثر ما جاء به من تسفيه احلامهم ، واحتقار اصنامهم ، ونبذ آلهتهم وخرافاتهم ، ودعوتهم الى عبادة اله واحد ، وان التاريخ ليحدثنا بأنه لم يأتِ احد بمثل ما اتى به محمد الا أوذي .

ومما يدل على كون محمد غير مخطىء اقبال قومه عليه واستعطافه لكي يتخلى عن دعوته ، وعرضهم عليه لقاء هذا التخلي ان يتوجوه ملكاً عليهم وان يسير بهم الى المجد الذي يشتهيه ، وان يصبحوا له حاشية وخدما ؛ ومحمد مع ذلك يجيبهم بمثل ما كان يجيب عمه ابا طالب : [والله والله يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر لما فعلت حتى يظهره الله او اهلك دونه] .

ومما يدل على كونه غير مجرم قول المؤلف نفسه على الصفحة ٤١ [وبعد عدة سنوات مرت على الارجح في قيادة القوافل فان محمداً دخل في خدمة خديجة بفضل السمعة الحسنة التي يتمتع بها] . وهل يتمتع المجرمون بسمعة حسنة ؟

ثانيا – يذكر المؤلف على الصفحة ٣٠ ما نصه بالحرف الواحد [وكذلك فان وحياً سمح للنبي بالزواج من زينب « بنت جحش » التي اضطر مولاه زيد ان يطلقها مراعاة له] ، ويتجاهل ان هذه المرأة هي قريبة محمد وهو يعرفها قبل الزواج ، ولو كانت له رغبة فيها لما زوجها لمولاه عن رضى وطواعية دونما مانع يمنعه او عائق يعوقه . ولكنها الحكمة التي اريد منها القضاء على عادة تأصلت في نفوس العرب وهي التورع عن زواج نساء الادعياء بعد طلاقهن او وفاة ازواجهن ، معلنة ان الدعي غير الابن الصلبي وان

والسلع، فضلا عن كونها تُملَك ولا تَملك، وتُورَّث ولا ترث .

وما ان جاء الاسلام حتى حقق لها انسانيتها ، وكفل حريتها ، وساواها بالرجل الى حد بعيد :

أ) ففي المعاملات : رفع محمد عن المرأة تهمة القصر الدائم التي كانت تلصقها بها شرائع قديمة ، وجعلها اهلا لادارة املاكها والتصرف فيها ، والتعاقد عليها من غير رجوع الى رأي رجل آخر .

ب) ومن النظرة الاجتماعية : حرم الوأد وندد بالعادة الشائعة عند العرب من تفضيل الذكر على الانثى .

ج) وفي الارث : أقر لها نصيباً مفروضاً من اموال المتوفين كثرت ام قلّت .

د) وفي الاسرة : منحها حق الزواج ممن تشاء، وليس لأحد ان يرغمها على الزواج ممن لا ترغب فيه . كما اعطاها حق فسخ الزواج اذا اتضح لها انها خدعت او اكرهت عليه ؛ وحرم تعدد الازواج الذي كان سائداً في الجاهلية ولكنه اباح تعدد الزوجات بشرط العدل ، وضيق كثيراً من دائرة الطلاق ، ودفعها الى العلم بكلتا يديه ، على حين كانت اليهودية تحرمه عليها .

وعلى الجملة فقد اوصى بالمرأة خيرا ، وشدد على معاملتها معاملة حسنة ، مما حدا « بفون كريمر » على القول [ان العرب كانوا مفطورين على احترام النساء ، ومنهم تعلم الغربيون احترام نسائهم] .

الآثار الشرعية التي تترتب على البنوة الحقيقية لا تسري على التبني.

يظهر ذلك من الآيات القرآنية التي لا تقبل الجدل ومعظمها وارد في هذه الحادثة : [ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين] ، [ادعوهم لآبائهم هو افضل عند الله] ، [فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في زواج ادعيائهم] .

على ان ثمة احكاما كثيرة في الاسلام كانت تصدر اول ما تصدر عن النبي مباشرة نظرا لأهميتها مثلما فعل محمد بربا عمه العباس حين داسه وقال [ربا عمي العباس موضوع تحت قدمي هاتين] .

وما زواج زينب من زيد ثم طلاق هذا لها ثم اقترانها بمحمد الا تأكيداً للحكم الشرعي من كون الابن الصلبي غير الدعي .

ثم حاشا لمحمد ــ وهو من هو ــ ان يمد عينيه الى حليلة سواه .

ثالثاً ــ ذكر المؤلف في الصفحة ٣٣ من كتابه [بأن محمداً سيحد من حرية النساء] من غير ان يوضح ما اذا كان الحد من هذه الحرية لقارعات الطبول من ذوات الشعور المشعثة فقط او بالنسبة لكافة تصرفاتهن ! الامر الذي يوهم غير العارفين بان الاسلام خصم للمرأة مع العلم بان الاسلام حين ظهر ، كانت المرأة ممتهنة مبتذلة ، لا يقام لها وزن ولا يعترف لها بحق ، وكانت تباع وتشرى كما تباع السوائم

واني لا يخامرني أدنى شك بـأن هذا كله معلوم لدى المؤلف الفاضل ، وما ملاحظتي على عبارته الا حول اطلاقها وابهامها .

رابعاً ـ ورد في الصفحة ٨٩ ان [على السكان الذكور في البلاد المحتلة ان يدفعوا جزية للاسلام مقابل حرية ممارسة دينهم] . والحال ليس كذلك . فأهل الذمة كانوا احراراً في اقامة شعائرهم الدينية ، كما كانت لهم حريـة مزاولة المهن والحرف والاعمـال التي يشاؤون مـع حرية السكن والانتقال حيث يريدون . وكانت الدولة الاسلامية تبسط عليهم حمايتها ، وتتناول منهم الجزية مقابل هذه الحماية ، فاذا تعذر عليها ان تحميهم سقطت عنهم الجزية واصبحوا في حل منها . وقد ذكرت كتب التاريخ ان أبا عبيدة رد على اهل حمص ما كان قد اخذه منهم عندما تعذر عليـه حمايتهم وقال لهم : [شغلنا عن نصركم والدفع عنكم فأنتم على امركم] . ولكن اهل حمص أجابوه [لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والضيم ، ولندفعن جنـد هرقل عن المدينة مع عاملكم] .

خامساً ـ ان مما يثير الدهشة قول المؤلف على الصفحة ١٢٢ [كل هـذا أظهر اكثر فأكثر عدم كفاية الاسس التشريعية التي قام عليها المجتمع الاسلامي] لأنه وجد علاوة على علماء الحديث الذين يتعلقون بالنص الحرفي علماء آخرين قد بدأوا يناقشون روح القانون . وقد أوضح المؤلف ذلك

عند حديثه عن السنة بقوله [ان المسلمين الاولين اذا لم يجدوا حلا لمسألة في القرآن ، كانوا يلجأون الى السابقات المؤلفة من مجموعة اعمال النبي وفي الدرجة الثانية الى العادات القديمة . وأخيراً عند زوال جميع الوسائل ، فان القاضي يلجأ الى عاطفته الشخصية في العدل (الرأي)] . ولعل المؤلف قد غرب عن باله ان الشريعة الاسلامية وجدت لتكون صالحة لكل زمان ومكان ومتمشية مع جميع التطورات الاجتماعية ، وانها لم تضع احكاماً مبرمة بقدر ما وضعت من قواعد كلية يمكن تطبيقها على ما سيجد من الحوادث . وذلك لأن المسلمين حين انطلقوا بعد وفاة محمد ، ينشرون عقيدتهم ويدعون لها ويجابهون بها حضارات الامم القديمة – وهي حضارات عريقة ، ثابتة الاصول ، سامقة الفروع – كان لا بد لهم من ان يواجهوا مشاكل جديدة لم يكونوا ليعرفونها في اطار مجتمعهم الصحراوي ؛ وكان لا بد لهم إزاء هذه المشاكل من أن يلجأوا الى كتاب الله ، فان وجدوا فيه الحكم فيما يريدون طبقوا نص القرآن وتمسكوا به ، وان لم يجدوه اتجهوا الى سنة النبي القولية والفعلية يلتمسون فيها الحل ، فان لم يجدوه اجتهدوا بآرائهم ، وطبقوا افهامهم فيما يرونه أشبه بالمعروف من مقاصد الشريعة وقواعدها في إقامة العدل بين الناس وصيانة المجتمع .

ولذا لا يمكن القول بعدم كفاية الاسس التشريعية التي قام عليها المجتمع الاسلامي ، لأن مثل القاضي آنذاك مثله في

العصور الحديثة ، حيث يتمسك بالنص حين يجده ، فان لم يجده استلهم وجدانه ومثل العدالة وروح النص .

على اني لا يسعني الا تأييد المؤلف في قوله على الصفحة ١٣٢ [هناك عدة أقسام من الفقه اصبحت هرمة] ، ولكن الفقه شيء والتشريع الاسلامي شيء آخر . ويخطيء كثيراً من يظن أن الجمود التشريعي الذي نتج عن سد باب الاجتهاد عند أهل السنة منذ القرن الثالث الهجري انما هو نابع من طبيعة دينهم ـ وان هذا الدين قد فشل في مسايرة التطور والانسجام مع المدنيات الحديثة .

ما أبرأ الدين الاسلامي ـ أيها القارىء الكريم ـ من تهمة التحجر والجمود ! هذه العلة التي اصيب بها رجاله ، فاتُّهم هو بها ظلماً وعدواناً ، وعن جهل بما فيه من طاقات عجيبة ، وطواعية قادرة ، ومرونة هائلة ، وزخم حضاري عظيم .

ان ينابيع التشريع الاسلامي معروفة ، وهي من التدفق وسخاء العطاء ، بحيث توزع الخصب والنماء ، وتعطي الحضارات مقومات البقاء .

وان بين رجالات المسلمين اليوم ، من أوتوا من الانطلاق الفكري ، وصدق الايمان ، ونيِّر العقلية ما يمكنهم من استنباط الأحكام الجديدة ، المنسجمة مع روح العصر ، وما يساعدهم ـ بعد فتح باب الاجتهاد طبعاً ـ على ان يستغنوا عن القوانين المستعارة في بعض بلدانهم ، وان

يظهروا الاسلام بمظهره الصحيح من التقدمية وسعة الصدر .

سادساً ــ وأخيراً ، لقد أصاب المؤلف حين قال على الصفحة ٢١٩ أثناء حديثه عن التصوف [ليس هناك مجال للظن بأن التصوف الاسلامي ذو أصل أجنبي ، إذ يبدو أنه ولد اختيارياً على ارض الاسلام ، مع أننا نشعر فيه بوجود تأثيرات مسيحية وإيرانية وهندوسية أيضاً] .

أجل ، لقد تأثرت الصوفية بعدة تيارات غريبة ، ولعل اول هذه المؤثرات الأجنبية الفلسفة اليونانية وأخصها الأفلاطونية الحديثة .

أما المسيحية فلا ينكر أثرها في حركة التصوف ، لأن حياة السيد المسيح وتعاليمه التي جاء بها والنسق الحياتي الذي سلكه الكثير من الرهبان ، كل ذلك كان يحمل في مطاويه الدعوة الصادقة الى الزهد والتعبد والتقشف والابتعاد عن مغريات الحياة . وكذلك تأثرت الصوفية بالهندية والفارسية كما ذكر المؤلف ، ولكنه أخطأ على ما أعتقد حين كفّر الصوفيين على الصفحة ٢٢٠ بقوله [يبدو اذن ان هؤلاء الصوفيين ليس فيهم شيء من الاسلام] ؛ وذلك على الرغم ان معظمهم من أجلة العلماء العاملين .

فما دام في القرآن آيات كثيرة تحث على الزهد وتشجع على التقشف وتدعو الى اطّراح هذه الدنيا ، وما دامت هذه الآيات هي المصدر الاول الذي استقت منه حركة التصوف ، وما دامت أهم ميزات الصوفية هي الحب الالهي

الذي يسمو بالتصوف الى معرفة الله ، والعاطفة فيه ليست عاطفة ناشئة عن خوف او رهبة ، بل انها حب الهي شديد يربط المخلوق بالخالق ، فتكون عبارة المؤلف [ليس فيهم شيء من الاسلام] فيها شطط ومغالاة .

صحيح ان التصوف قد شابه في بعض عصوره ما يشوب كل مذهب من خرافات وشذوذ ، فأبعده ذلك عن روحه الحقيقي وصفائه ، إلا أن كبار المتصوفة لم يرضوا بهذه الشوائب بل انتقدوها وحاربوها . وكان امامهم في ذلك ابو حامد الغزالي المتوفي عام ١١٠٩ هجرية ولا يزال كتابه « المنقذ من الضلال » مصدراً من مصادر البحث في التصوف ، ومرآة لهذه الحركة على وجهها الصحيح .

مرة ثانية ، اشكر للمؤلف تحفته ، وللمترجم امانته ، وأتمنى لدار « منشورات عويدات » ان تظل منبراً سامي الذرى ، يسدي الى قراء العربية ، أجل الخدمات وأكرمها عن طريق البحث والتنقيب والترجمة والتعريب رافعاً اكف الضراعة الى الله المتعال ان يجزي كلاً منهم على قدر جهده ، واخلاصه في عمله ، إنه سميع مجيب .

الدكتور مصطفى الرافعي

مستشار المحكمة الشرعية العليا في لبنان

الفصل الأول

ظهور الاسلام

ان الاسلام ، الذي يعتنقه اليوم اكثر من ٣٦٥ مليوناً من الكائنات البشرية ، قد بشر به محمد ، في بدء القرن السابع ، في بلاد العرب . وقبل تلخيص تاريخ حياة هذا الرجل الكبير ، فليس من العبث ان نشير الى الخطوط الاساسية لشبه الجزيرة العربية وسكانها، لأن هذا البحث سيتيح لنا التأكيد ان بلادالعرب، التي لم تتنح في عزلة باهرة ، كانت مفتوحة منذ زمن طويل على المؤثرات الخارجية ، وان الثورة الدينية والسياسية التي حققها محمد كانت الظروف قد هيأتها .

بلاد العرب . — وبلاد العرب التي يسميها العرب جزيرة العرب (وبالاختصار « الجزيرة »)، والتي يسميها الفرس والاتراك « عربستان » ، هي سطح تحيط به الجبال البركانية من الغرب

والجنوب ، وينحني قليلا نحو الخليج الفارسي وسهول الفرات ، وتعادل مساحته تقريباً ربع مساحة اوروبا . وهي تقسم من الناحية الطبيعية الى قسمين : تهامة (المناطق الساحلية) ، ونجد (الهضبة الوسطى) المحاطة بالقفار .

وتضم بلاد العرب الغربية منطقتين رئيسيتين: الحجاز واليمن. فالحجاز هو المنطقة الساحلية الواقعة بين البحر الاحمر والجبال ، وتمتد من شبه جزيرة سيناء الى المنطقة الواقعة في جنوب مكة . وقسمها الشمالي (من سيناء الى تبوك) بلاد فقيرة وقاحلة كان يسكنها في العصور القديمة النبطيون الذين سيطروا على التجارة في هذه المناطق ، فهناك طريق ـ وسنرى اهميتها ـ تمتد على طول البحر الاحمر ، من خليج العقبة الى المدينة ، مجتازة مجاري بعض السيول المتقطعة . ويثرب (اصبح اسمها المدينة) واقعة على ارض بركانية بحتة ، بين حرّتين ، وبالنتيجة على اراض خصبة ذات قيمة منذ القديم (وخصوصاً بسبب نخيلها) . والى شمال المدينة يرتفع جبل أحد حيث خاض محمد احدى معاركه الاولى . وتبعد مكة عن المدينة يومين سيراً على الاقدام. وتقع الطائف في الجنوب. وهي مدينة مزدهرة منذ القدم ، في وسط الجبال . وهي اليوم مصيف المكيين : وتوجد فيها اثمار اوروبا . وفي الحدود الفاصلة بين الحجاز واليمن تتسع سلسلة جبال : المنطقة الأكثر خصباً في الحجاز (السراة) ، وهي منطقة يسكن القسم الشرقي منها القحطانيون ، اي القبيلة التي تعتبر أماً للقبائل اليمنية .

واليمن « بلاد اليمن » اي بلاد الجنوب، او «البلاد السعيدة»،

كانت في جميع العصور مشهورة بثروتها وخصبها (زراعة البن). وخرائبها العديدة تشهد بماض سياسي لامع ، حيث العاصمة القديمة صنعاء لا تزال تدل على الآثار الاخيرة . وقد ارتاد اليمن بعد نيبهر Niebuher وفورسكال Forskal الفرنسيان أرنو Arnaud وجوزيف هاليفي Halévy في ظروف شبه بطولية . وارتادها فيا بعد لندبرغ Landberg الذي وصف جنوبها بشكل خاص.

والشاطيء الجنوبي لبلاد العرب ، « شاطيء البخور » (الذي اصبحت زراعته في انحطاط) ، يحمل اسم حضرموت : وهي بلاد جبلية تشقها الاودية وتحيط بها القفار ، ويغترب سكانها بسهولة لجمع الثروة . وفيها كاليمن خرائب قديمة عديدة . اما في الشرق فتوجد منطقة مهرة (المشهورة بجمالها المعروفة باسم المهاري) .

وعُمان الواقعة في الجنوب الشرقي فهي أيضاً بلاد جبلية خصبة جداً وشاطئها محاط بالمرافيء: ومن هناك خرج البحارة العرب الذين تركوا اثرهم في تاريخ الملاحة . وقد احتلت مدينة مسقط مكان العاصمة القديمة « صحار » التي دعاها احد الجغرافيين العرب « باب الصين » .

وأخيراً، تمتد على طول الخليج الفارسي بلاد البحرين المنخفضة والمسماة اليوم الحسا : وهي بلاد صائدي اللؤلؤ ، والقراصنة . وثروتها في النخيل مضرب المثل. وتفصلها الصحاري الكبرى عن بلاد العرب الغربية : الدهناء في الجنوب والنفود في الشمال ، ولا يوجد أي مجرى ماء في الدهناء (« الحمراء» بسبب لون رملها) التي تبلغ مساحتها ضعف مساحة فرنسا، ولكن الخضرة تظهر بعد الأمطار التي تسبب السيول في الشتاء ، وعند ذلك يسكنها البدو طيلة ثلاثة

أشهر أو أربعة مع قطعانهم التي تتغذى وترتوي بفضل هذه الخضرة المليئة بالعصارة ، وحين يطردهم الحر يرحلون الى حدود القفر . وفي شمالي نجد ــ الهضبة الوسطى التي يجتازها منخفض وادي الرمة، حيث يظهر الماء هنا وهناك ــ فان صحراء النفود تمثل صفات الدهناء نفسها : الخضرة طوال فصل واحد تغطي الرمل الاحمر الذي ينحصر في انخفاضات واسعة ويتراكم على قواعد صخرية . والى اقصى الشمال بادية سوريا التي تخطط مهاداً لمياه المطر وتمتد نحو الفرات وتبقى قاحلة جزئياً .

القبائل العربية . ــ رأينا ان هذه القفار كان يؤمها البدو بشكل دوري ــ او بعبارة أكثر دقة كان يؤمها النصف بدو ــ Semi-nomades ــ الذين يقصدون الكلأ مع قطعانهم: وهي جمال ذات سنام واحد ، ومعزى وغنم . « ان نصف البدو يموتون من العطش بدون ألبان نوقهم » (لامنس) .اما الحصان فقد ظل حيواناً للأبهة ويستحيل وجوده تقريباً في القفر لأنه يحتاج الى شعير وماء . وهو يربّى في نجد وفي اليمن ايضاً . واما الحمير المستعملة في المناطق الساحلية فان البدو يحتقرونها .

فما هو اذن اصل هؤلاء البدو الذين ساهم أعقابهم في تشكيل جيوش الاسلام ؟ . لقد كان التنظيم القبلي دائماً قانوناً عندهم ؛ وما زلنا الى اليوم نجهل اذا كان يحتوي على الطوطمية[1]. ونواة القبيلة عائلة تكون كثيرة بأبنائها وترغم العائلات الاخرى على الاعتراف بسلطة رئيسها (الشيخ) وان تحتشد حوله . والرجل

١ ــ الطوطمية Totémisme : نسبة الى الطوطم Totem ، وهو اسم يطلقه بعض قبائل الهنود الحمر في اميركا الشمالية على حيوان يعتبرونه جداً لهم.

المطرود من قبيلته على أثر خطأ او جرم يجد نفسه في وضعية يائسة (وهذه كانت حالة محمد في فترة ما) الا اذا حصل على حماية قبيلة أخرى . والنساء هن اكثر حرية من الحضريات ولكن جميع الاعمال تقع على عواتقهن . اما الرجال فيتألف عملهم من تربية الماشية ، والصيد ، والقيام بالعمليات التجارية ، والغزو . وهذا الغزو الذي كان يقام به في جميع العصور القديمة هو الهجوم على قبيلة مجاورة واختطاف الماشية بأقصى سرعة ، واحيانا النساء والاولاد الذين يصبحون موضوع فدية ، ولكنهم يتجنبون بقدر الامكان اراقة الدماء التي تجر الى ثارات خطيرة . وهذا الميل المتأصل في البدو الى السلب يجعلهم خطرين على الاراضي المجاورة القفر ، سواء كان في العصور القديمة او الحديثة . وعدا نتاج الغزو فان احد المصادر الرئيسية للدخل كان ولا يزال هو حق الحماية التي يفرضونها بأنفسهم على القوافل التي يرافقونها والتي تمونهم غالباً بالجمال ، وكذلك فان الحضريين الذين يجتازون اراضي قبيلة ما عليهم ان يدفعوا حق « الخوة » . وهو حق يدفعه ايضاً المجاورون للبادية حينما يكونون عاجزين عن ردع البدو : وقد أعاد هؤلاء في مجرى التاريخ الى البادية بعض المناطق التي استعملها الحضريون للزراعة (كما في العراق مثلا) .

والعرب ، وفقاً لتقاليد التوراة ، يتحدرون من ابراهيم . فعرب الشمال من اسماعيل وعرب الجنوب من قحطان . والى هذا التقليد تعود فعلا قسمة العرب الى قبائل شمالية (النزاريون او المعديون) وجنوبية (اليمنيون)

وهذا التقسيم ليس مطلقاً ، فقد كانت هناك من ناحية اليمنيين على الخصوص هجرات ناتجة عن القحط ، ويمكن ان تكون ايضاً بسبب جفاف تدريجي احدث تغيرا في المناخ ؛ فقد ترك اليمنيون بلادهم بسبب نقص المياه كما يمكن ان يكون لسبب معاكس . اذ ان شعب المايا ترك غواتيمالا الى يوكاتان (هتنفتون) بسبب تزايد الامطار . وسنرى فيا بعد انه يمكن القبول بسبب اقتصادي لهذه الهجرات . وعلى كل حال فليس من المستحيل اعتبارها عاملا هاماً للخصومة التي تمكنت بين اهــل الشمال والجنوب ، تلك الخصومة التي سنجدها ، في حياة محمد ، بين المكيين (النزاريين) والمدنيين (اليمنيين) .

وقبائل الشمال التي تحمل اسم جد اسطوري هو نزار او معد قد انقسمت الى جماعتين رئيسيتين : ربيعة ومضر اللتان هاجرتا قبل الاسلام الى العراق حيث استمر اسماها في مناطق حوض الفرات: ديار ربيعة ، ديار مضر . ومن هاتين الجماعتين خرج عدد كبير من القبائل ، والى احــداها ، وهي قبيلة قريش التي عاشت في ضواحي مكة ينتمي محمد .

اما في الجنوب فان عرق قحطان (حيث توجد قبيلة لا تزال تحمل هذا الاسم) قد انقسم الى جماعتين رئيسيتين ايضاً : حــمير وكهلان (ومنهما خرجت قبائل لخم وكندة وغسان) ، وهاتان الجماعتان هما اللتان ادخلتا بلاد العرب حقيقة في التاريخ ،

ممالك بلاد العرب الجنوبية . ـ وبالفعل ، فان الكتابات البابلية تشير منذ الالف الثالث قبــل التاريخ المسيحي الى مملكة

ماغان ، وهو اسم يتاح لنا ان نجد تحته اسم معن (او معين) ، وهي مملكة تضم تقريباً بلاد العرب الجنوبية ؛ وتشير هذه الكتابات من ناحية اخرى الى مملكة الملوك Melukh التي يمكن ان نجد فيها العمالق ، مملكة العمالقة .

والوثائق العربية البحتة متأخرة كثيراً . فكتابات بلاد العرب الجنوبية ، والتي يعود اقدمها الى اقل من ٨٠٠ سنة قبل المسيح ، تنقسم الى جماعتين كبيرتين تختلفان باللهجة : كتابات معينية لملوك معن (اكتشفها هاليفي Halévy في منطقة صنعاء وغلازر Glaser في منطقة قطبان) ، وكتابات سبئية لملوك سبأ ؛ ويبدو ان اقدم الكتابات السبيئة معاصرة لآخر الكتابات المعينية . وعلى كل حال فبالامكان اثبات ثلاثة ادوار كبيرة في حوليات بلاد العرب الجنوبية : المعيني والسبئي والحميري . وقد انتقلت السلطة من السبئيين الى الحميريين في نهاية القرن الثاني قبل المسيح .

وقد تطورت هذه الممالك في بلاد العرب الجنوبية بفضل ثروة الارض (بلاد العطور) ، وكذلك لأن الطريق التجارية من الهند الى سوريا تتبع على اليابسة شواطىء البلاد العربية . وفي اليوم الذي اختار فيه تقدم الملاحة طريق الاوقيانوس الهندي والبحر الاحمر فان الانحطاط قد بدأ ؛ ويمكن ان يكون هذا الانحطاط الاقتصادي قد جر الانحطاط في اسلوب الري الذي كان يخصب البلاد، وقد وجدت آثاره؛ وهذا الاهمال يمكن ان يفسر الهجرات التي أشرنا اليها سابقاً دون ان يكون هناك من لزوم لأن نعزوها الى تغير المناخ فقط .

وفضلا عن ذلك، فان الحميريين الذين كانوا يشغلون شواطىء البحر الاحمر وجدوا أنفسهم عرضة لهجمات الأحباش. فمنذ عصر غير معلوم تماماً ، ويمكن ان يكون القرن الخامس قبل المسيح ، بدأ الساميون يهاجرون الى الحبشة . وكان من نتيجة هذه الهجرة ولادة مملكة ، هي المملكة الحبشية التي خلقتها سلالة أكسوم التي عقبت سلالة الحميريين وبقيت الى ايامنا هذه رغم الاضطرابات السياسية العنيفة . وفي نهاية القرن الخامس الميلادي كان لليهودية والمسيحية اتباعهما في المملكة الحميرية. والملك الذي اعتنق اليهودية اقدم على اضطهاد رعاياه المسيحيين الذين طلبوا النجدة من الاكسوميين الذين اعتنقوا المسيحية منذ قرن . وقد اغتنم هؤلاء الفرصة التي تخدم مقاصدهم السياسية فاجتاحوا البلادالتي هم منها أصلا وافتتحوها ،وهكذا حكمت اليمن بنواب عن ملك الاحباش، الى اليوم الذي قام به أحد المتحدرين من الحميريين [1] ، بعد ان طلب المعونة عبثاً من الامبراطورية البيزنطية (التي لم تستطع ان تحارب الاكسوميين المسيحيين) ، وحصل من الامبراطورية الساسانية ، الخصم الطبيعي لبيزنطية ، على مجندين ساعدوه على طرد الاحباش . وكانت النتيجة ان بلاد العرب الجنوبية لم تفعل شيئاً سوى أنها بدلت سادتها : فقد أصبحت مرزبة فارسية . وانتهى تاريخها .

ممالك بلاد العرب الشمالية .ـــ رأينا بين القبائل العربية الجنوبية قبائل لخم وغسان وكندة . إن هذه القبائل التي هاجرت نحو الشمال

---

١ ــ هو سيف بن ذي يزن (المترجم)

خلقت فيه مدنية مختلفة جداً : انها متأخرة كثيراً ولكنها كانت على علاقة مباشرة مع الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية .ولكي تحمي هاتان الامبراطوريتان حدودهما من غزاة الصحراء فقد قررتا إقامة حاميات . ولما كانتا عاجزتين عن حفظ النظام فقد قررتا إنشاء هذه الحاميات بالاشتراك مع القبائل العربية : ومن هنا كان الحظ السريع للسلالتين اللخمية والغسانية . ولما كانت هاتان السلالتان معسكرتين على اطراف البادية السورية فقد استُخدمتا كمساعدتين ، احداهما للساسانيين الفرس والاخرى للبيزنطيين : يعني ان صراعهما اصبح مستمراً تقريباً .

ويبدو تاريخ المملكة اللخمية ، التي كانت عاصمتها هي الحيرة (في ضواحي الكوفة وليست بعيدة عن بابل القديمة) ، غامض ومثقل بالاساطير .فهناك جماعة كبيرة من حضر الحيرة قدتكونت من العباديين، وهم مسيحيون ساهموا في تثقيف البدو؛ واصبحت الحيرة مع الزمن عاصمة فكرية . واول ملك من ملوكها المعروف تاريخياً (با كتشاف قبره) توفي عام ٣٢٨ . واتحاد اللخميين مع الفرس المزدكيين لم يمنعهم من اعتناق المسيحية النسطورية . وقد بقيت السلالة الحاكمة حتى نهاية القرن السادس،العصر الذي ظهر فيه التنافر بين الملكاللخمي ومولاه الساساني: اذ حل محل صاحب الاقطاع مقيم فارسي. فاضطر العرب بعد بضع سنوات الى القيام بمعركة ثأر شهيرة ، هي معركة ذي قار (بقرب الكوفة) : وهو يوم عظيم بنتائجه ـ هام كمعركة كان Cannes او بواتيه ـ لأنه اظهر للعرب بوضوح ان جيرانهم الاقوياء ليسوا بمعصومين من

الانحدار ؛ اما صانعو التوسع الاسلامي فسوف يتذكرون ذلك.

والغسانيون، كأقاربهم وخصومهم اللخميين، اعتنقوا المسيحية (مذهب القائلين بطبيعة واحدة للمسيح) ، ولكنهم على عكسهم لم يكن لهم مقام ثابت : وكانوا يشغلون اراضي فينيقيا ـ فلسطين وجزءاً من اراضي النبطيين القدماء ؛ ولكنهم كانوا يفضلون النزول في المنطقة الواقعة جنوبي دمشق . وقد بلغوا بفضل التأثير البيزنطي درجة من المدنية اسمى من الدرجة التي بلغها اللخميون . وتاريخهم كتاريخ اللخميين مثقل بالاساطير . ومن المؤكد ان الامبراطور جوستنيان عين أحد الغسانيين رئيساً للقبائل العربية في سوريا عام ٥٢٩ ومنحه لقبي فيلارك وبطريق (اسمى درجة في ذلك الحين) وفي القرن السادس بلغ الغسانيون اوج مجدهم كما بلغه اللخميون أيضاً ، فتضاعفت العداوة ، وظهرت أعراض الانهاك منذ نهاية القرن هنا وهناك . وكما ظهرت العداوات بين الساسانيين واللخميين فقد ظهرت أيضاً بين الامبراطور اليوناني والغسانيين . وعند الفتح الاسلامي كانت القوة الفعلية للسلالة الحاكمة قد تلاشت منذ عدة سنوات .

أما القبيلة الجنوبية الثالثة التي هاجرت نحو الشمال فهي قبيلة كندة. ولكن رجالها توقفوا في بلاد العرب الوسطى وأسسوا فيها مملكة في نهاية القرن الخامس بجوار اللخمين الذين هاجمهم الكنديون أولا وانتصروا عليهم . ولكن في عام ٥٢٩ ، السنة التي بلغ فيها الغسانيون ذروة مجدهم ، أخذ اللخميون زمام المبادرة بالهجوم وألحقوا بالكنديين هزيمة لا يرتق فتقها . والمملكة الكندية ، مع

أنها سريعة الزوال ، فقد ظهرت كأهم مملكة بين الممالك الثلاث: بينما المملكتان الاخريان لم يكن لها سوى شخصية ثانوية. إن مملكة كندة تبدو كأنها « أول تجربة للعرب ... في الانضواء تحت قيادة رئيس مشترك » (جويدي). انها فكرة للمركزية ينقصها العنصر الديني للسير بها الى النهاية ، هذا العنصر الذي سيضيفه محمد اليها بعد قليل .

الوثنية العربية . ــ اي دين يعتنقه هؤلاء العرب بانتظار الاسلام ؟ ان كتابات الجنوب تظهر ان عبادة القمر ، الإله الذكر ، قد رجحت على عبادة الشمس ، الإله الانثى ؛ ومن ناحية اخرى فان الآلهة عشتار Aththar وسين Sîn ونكروح Nakruh تذكر بالالهة البابلية عشتار وسين ومكرو Makrû بصرف النظر عن آلهة اخرى كثيرة منها الاهة ـ أم تدعى لات (او اللات). وهذه الاخيرة توجد عند عرب الشمال الغربي ، وخصوصاً في الحجاز ، برفقة ود والعزّى وهبل وغيرها (ذكر ذلك في القرآن، ٧١، ٢٢ـ٢٣؛ ٥٣، ١٩ـ٢٠). ولن نطنب هنا في هذه الوثنية التي يهمنا مع ذلك ان نذكر بعض خصائصها : ففي بلاد العرب الجنوبية (بلاد العطور) ، تكرم الآلهة باحراق العطور على مذبح ؛ ومن ناحية اخرى ليس بمستحيل ان يكون الاغارقة قد اعاروا عرب الجنوب ، بواسطة تجارهم في البخور ، ابولون وهرمس ولاتون (ليتو ــ لات) بصرف النظر عن الحروف المتخلفة من الضبائهم .

ومعلوماتنا عن دين الجنوب لم تأتنا الا من الكتابات ؛ اما فيما

يختص بدين الشمال الغربي فان هناك شهادات مريبة لبعض المؤلفين المسلمين تضاف الى الكتابات. ان في الحجاز ونجد على الخصوص عبادة الانصاب bétyles ـ من الكلمة السامية بيت ايل « مسكن الله » (انظر سفر التكوين ، ٢٨،١٨ـ١٩ ؛ وسفر اللاويين ، ١،٢٦ ؛ وسفر العدد ، ٣٣،٥٢) ، والحجارة المرفوعة (وهذا هو المعنى العربي لكلمةنصب) المشابهة للحجارة الواقفة menhirs ـ ويبدو انها تؤلف الخط المسيطر للدين؛ وكانت هذه الانصاب تكرّم في طواف دوري ، وعلى الخصوص في الربيع والخريف ؛ وكانوا يطوفون حول الانصاب ويلمسونها اكتساباً لشيء من القدرة التي تحتويها . وقد بقيا اثنان من هذه الحجارة في بيت مكة المقدس : الحجر الاسود ومقام ابراهيم. « وليس هنالك من فائدة في الكلام عن عبادة خاصة وعن الآلهة البيتية ، فالعربي قبل الهجرة لم يستشفّ سوى العبادة العامة ... حيث كانت الظواهر القليلة تكفي لاستنفاد تقواه القصيرة » (لامنس) . وهذه الانصاب تكون في الغالب مزدوجة (اساف ونائلة ؛ اللات والعزّى) ؛ وهذه الثنائية سيعارضها الاسلام بوحدانيته التي لا تتبدل . وتكون الانصاب ثابتة او منقولة : ففي الحالة الاخيرة تتبع تحركات القبيلة ، وتلعب في المعارك دور الحامي ، فتوضع تحت خيمة ، وتحمل على جمل (يملك صفة مقدسة ، حسب النصوص)؛ وحول هذا الحامي كهنة ـ وعلى الخصوص ساحرات هن اخوات سحرة العبرانيين ـ يقرعن الطبول ويهتفن بالرقى بطريقة السجع ، وهي عبارات مقفّاة ذات ايقاع ووقع متنافر ،

سريع ؛ ويتبعها عزائم سحرية معرقلة » (لامنس) . وهنا ايضاً عمل الاسلام بشدة ضد هؤلاء الكهان، وضد هذه القارعات ايضاً على الطبول من ذوات الشعور المشعثة : فحمد سيحكم على السجع كأنه من عمـــل الشيطان ، ولن يقبل بكهان ولا بطواف ، الا في الحج ، وسيحد من حرية النساء .

ويضاف الى عبادة الانصاب هذه عبادة الاموات، والاجداد منهم بشكل خاص . فالبدوي ، وهذه العادة لا تزال سارية ، لا يمر بقبر دون ان يضيف الى ماعليه من اكداس حجارة وأغصانا تغطيه (والشقاء الأعظم هو أن يموت بعيداً عن قبيلته) . وعادةً كان إرماس الميت يتم بتقديم ضحية : تضحية جمل بقطع عرقوبيه ليموت على القبر ، وهي عادة لم يستطع الغسانيون القضاء عليها حتى بعد اعتناقهم الدين المسيحي ؛ وهذا العمل وحده يدل دلالة كبيرة على الاعتقاد بالحياة بعد الموت عند الوثنيين، وعلى الخصوص في عصر الخلفاء الامويين حيث كانت تهاجم المعتقدات الأصلية في معظم الاحيان .

وهؤلاء البدو هل كانوا يعتقدون بخلود النفس ؟ . يبدو جيداً ان العاطفة الدينية كانت اكثر حياة عند عرب الجنوب منها عند عرب الشمال . ومع ذلك فان هؤلاء كـــانوا يقولون ان الموت لا يحدث إنفصالاً مباشراً بين الجسم والروح . فقد كانوا يتخيلون الميت « يغفو بهدوء في مقره المظلم ويتمتع بعض الوقت بوعـــي نصفي ... والنساء بغنائهن وهتافهن الحاد يردن إيقـــاف الروح التي تتعجل التخلص من الجثة . اما الرجال فكانوا من ناحيتهم

يعدون الميت بأخذ الثـأر » (لامنس) . وبالفعل . فـان حالة الحرب كانت مستمرة في بلاد العرب ، والبدو الوثنيون يعتبرون الثأر واجباً دينياً ؛ والثأر يحتل مكاناً هـاماً في « مجموعة المفاهيم المتواضعة (دين العرب) التي غذت حياة البدو الدينية والاخلاقية الفقيرة قبل الهجرة » : انه ثأر للدم يحتوي على المبدأ الحيوي ، لا لإرضاء غريزة عمياء ، بل تلبية لعاطفة من التقوى ، ولرأب الصدع الذي أصاب العائلة . إنها الوحدة الاجتماعية ذاتها ؛وكان يقوم مقابل هذا الواجب الضروري، كواجب المبارزة في العصور الحديثة ، واجب الدية للدم المراق ، قبل الاسلام بقليل ؛ وقـد انتهى الاسلام بأن تبناه . وهذه الدية في القرآن ليست سوى تلطيف لحق مقدس : الثأر القديم عند الساميين .

فالعصبية ، أو بالأحرى دين القبيلة ، هي إذن أساس ذلك الوعي البدوي ؛ انهـا العاطفة المولدة لجميع الميول التي تتسابق لتؤلف حالة الجاهلية ، العبارة المماثلة للخشونة ، وللوحشية أيضاً، والتي تناقض الحلم ، حالة الانسان المقاد بالأخلاق والعقل . ومع ذلك فان البدوي الوثني يفهم الاخلاق ولكن تحت شكل المروءة التي تضم معاً الشجاعة والكرم : الشجاعة في الدفاع عن قبيلته ، والشهامة حيال الخصم (إلا في حالة الثأر) ، والضيافة الواسعة (طعام وشراب) تقدم لمن يطلبها ويصبح مصاناً ؛ وكذلك وفاء بالكلام المعطى ولكنه لم يمنع البدو من أن يكونوا مماطلين في الدفع كما نعلم من بعض أشعارهم . ومن ناحية اخرى فان المجاعة تدفع أحياناً « أكلة الجراذين والجراد » هؤلاء الى القساوة المفرطة :

انهم يئدون البنات ، كأفواه لا فائدة منها ، بأن يدفنوهن أحياء (ولكن ألم يكونوا يغرقونهنّ في الصين منذ أقل من قرن للسبب نفسه ورغم الاوامر الملكية ؟) . وهذه الجاهلية البدوية نعرفها بواسطة الشعر على الخصوص . أما الأدب العربي فقد ولد بالفعل عند هؤلاء البدو الرحل . وبينما نجد أن لهجات الجنوب قد بادت دون رجعة فان لهجات الشمال تولدت منها اللغة التي ستصبح لغة القرآن والتي ستلعب في الاسلام دوراً مماثلا للدور الذي لعبته اللغة اللاتينية في الغرب . وهذه اللغة العربية ظهرت أولاً ، وفقاً للتطور الطبيعي ، في القصائد التي أعطت المعلومات عن المجتمع البدوي، بالنسبة لصدقها . « والقصائد أيضاً هي التي نقلت الى الاعراب، قبل الهجرة ، المواعظ الشبيهة بسفري الجامعة والأمثال ، وهي نصوص ذات قيمة مقدسة تقريباً حلت محل أقوال كهانهم الاخلاقية واختصرت قانونهم الديني. وكان لمحمد اعذاره في تحقير الشعراء ؛ وهؤلاء الأخلاقيون واللاهوتيون في الجاهلية هم الذين سيزعم القرآن أنه حل محلهم. ولن ينجح في ذلك دون مشقة » (لامنس). وأخيراً ، كما سنرى ، فان محمداً لن يعتمد على سكان البادية بل على سكان المدن . وهل من حاجة لنتذكر في هذه المناسبة نظرية رينان القائلة : « البادية تعود موحدة » ولنظهر انها لا يمكن ان تطبق حقيقة على بلاد العرب ؟ . .

تاثيرات خارجية . ـــ اذا كانت الوثنية في بدء القرن السابع قد تأخرت في البادية فان تهامة ، منطقة أهل الحضر ، تعرضت من جميع النواحي لتأثيرات من الخارج. وفي الشمال فان اللخميين

والغسانيين قد استخدموا وسطـاء . ولكن الجماعات المسيحيـة واليهودية منذ زمن طويل قد سكنت اليمن والحجاز بوجه خاص؛ والجماعة المسيحية الرئيسية هي جماعة نجران ؛ اما اليهود ، وهـم تجار وزراع على الخصوص ، فقد بلغوا الازدهار في خيبر وفي يثرب (المدينة في المستقبل) . ولكن هؤلاء وأولئك تدافعوا الى مكة ، وهي مدينة هامة لانها تكونت حول نقطة مياه ، العنصر الحيوي في هذه البلاد ذات الجفاف الدوري الطويل ؛ ويضاف الى هذا الماء (بئر زمزم) معبد مقدس : الكعبة ؛ وطرق القوافل تمر فيها بحكم الطبيعة ؛ وهكذا فان مكة أصبحت بسرعة مكاناً لاحد الاسواق الوثنية الكبيرة حيث يجتمع الحضر والبدو أثناء الاشهر الحرام التي يمتنع فيها عن الغزو . وهناك سوق آخر كبير كان يقوم في عكاظ : « كانت العزلة تنتعش أثناء السوق السنوي ؛ فالتجار يأتون وينصبون خيامهم ، والبدو يبيعون اظرف ما عندهم » (لامنس). وكانت هذه الاسواق تحتوي على الميات شعرية كتلك الالعاب الكبرى التي كانت تحدث في العصور الاغريقية القديمة . وكما هو الامر في مكة فان سوق عكاظ يعود بأصله الى عبادة صنم؛ وكان هذا السوق يشكل المركز التجاري لمنطقة حيث المـدينة الرئيسية فيها هي الطائف ، وهي مدينة مرتفعة تنتهي إليها طرق القوافل التي تجتاز نجد منطلقة من الخليج الفارسي ؛ ومع ذلك فان قوتها الاقتصادية لم تعادل قوة مكة الواقعة في مكان افضل وأقرب الى سوريا والبحر . وعدا ذلك فان نهاية القرن السادس جلبت معها مضاعفة العـداوة بين فارس وبيزنطية اللتين كانتا تنهك

الواحدة منهما الاخرى وتهيئان بدون وعي انتصار الاسلام. وهذه الأزمة التي اقفلت طرق آسيا الآنفة الذكر امام التجارة عجلت في انحطاط تدمر والحـيرة . وعندئذ بحث الفرس ، الحانقون على البيزنطيين ، عن ألهية في اليمن حيث كان من مصلحتهم ان يضعوا يدهم على الترنزيت من الشرق الاقصى إلى البحر المتوسط ؛ وهكذا استعادوا سياسة أوغست التي كانت تحاول تنمية العلاقات بواسطة البحر الاحمر ، بينما كان البارثيون يحتلون طريق الفرات . وفيما بعد حين يدخل المسلمون الفاتحون الاول إلى ميزوبوتاميا ـ بلاد ما بين النهرين ـ سنجد ان الوضعية قد انقلبت ضد مصلحة بلاد العرب؛ ثم ان هذه ستتأثر في أيام الخلفاء العباسيين حين تجعـل الحروب الاهلية طرق التجارة بين الفرات وسوريا غير صالحة .

إذن، في اول القرن السابع، كانت أسواق بلاد العرب الغربية، وهي عقدة العلاقات بين الهند وفارس وبابل والحبشة وسوريا ـ فلسطين ، كانت في اوج ازدهارها . فالقوافل تنقل السلع الاكثر تنوعاً : جلود ، ومعادن ثمينة ، وروائح وعطور البلاد العربية ؛ ونثارة الذهب ، والعاج من افريقية ؛ والمنسوجات ، والسلاح ، والحبوب والزيوت من سوريا ؛ وحرير الصين (دون ان نتكـلم عن تجارة الرقيق الاسود من الحبشة) . وحتى النساء ـ كخديجة زوجة محمد الاولى ـ كن يشغلن رؤوس الاموال في مجازفات النقل هذه والتي كانت تجعل الحجاز يعيش في بحبوحة .

ويجب ألا نخاف من الترديد: ان بشارة محمد ستوجه الى اناس كانوا قد اقلعوا منذ زمن طويل عن عزلتهم الوحشية ليخضعوا

لتأثيرات حربية وسياسية وتجاريه وذينية . وهـــذه الاخيرة يجب ان نقف عندها قليــلاً لنحاول ان نفهم بصورة افضل تكوين الاسلام. فما من شك و في ان مكة كانت مركزاً لنقابة من الماليين والتجـــار ، كلهم ماهرون في الحسابات بصفتهم قريشيين « (لامنس) ؛ وما من شك و في ان التجارة في مكة قد تحولت الى مدرسة تمهيدية للسياسة » (ولموسن) . ومحمـــد نفسه سيبتدىء بالتجارة ـ حيث اصطلاحاتها تركت اثرهـــا في القرآن . ولكن عدا التجارة القرشية فقد كانت هنالك تجارة اليهود والمسيحيين . فكيف كانت اذن وضعيتهم في الحجاز ؟

اليهود والنصارى . ـ يبدو ان التماسك الاجتماعي كان اكثر قوة عند اليهود منه عنـــد المسيحيين ، فهؤلاء يرتبطون بكنائس مختلفة النزعات أضعفتها المنافسة بانتظار ان تساهم في تسهيل الفتح الاسلامي : كنائس نسطورية فارسية أو حبشية ؛ كنيسة أرمينيا ، كنيسة مصر التي مزّقتها الانفصالات .

يضاف الى ذلك ان المسيحيين في مكة كانوا من صغـــار الناس ـ مغامرون ، ومقايضون ، وبائعو خمور ، وعمـــال ـ يسكنون الاحياء البعيدة عن مركز المدينة ، بينـــما تتجمع مساكن العائلات العريقة حول المعبد ؛ وبالاختصار فقد كان المسيحيون منعزلين غير قادرين على تشكيل وحدة حقيقية .

اما اليهود فعـــلى العكس ، فهم يوحون بانهم قوة منظمة ، ذات تجمع مرتب يختلف تمام الاختلاف عن التفرق المسيحي . فليس هنالك اختلافات عقائدية ؛ ولكنها درجات دينية وصادقة

مضبوطة بدقـــة . وفي مكة كانوا هم ايضاً يسكنون الضواحي ؛ اما في منطقة يثرب (المدينـــة) فكانوا يملكون الارض ورؤوس الاموال . وحين سيترك محمد مكة الى المدينة فان سأم عرب هذه المدينة من البلوتوقراطية اليهودية لن يكون غريباً عن الاستقبال الذي سيتلقاه . وزيادة على ذلك ، ويمكن الاشارة الى هذا منذ الآن ، ان تطور تفكيره سيتأثر بهذه الحالة . واثناء اقامته في مكة فان الاساطير اليهودية ـ المسيحية التي تدخل في القرآن تبقى في حالة التخطيط ؛ ولكن في المدينة حيث يجد نفسه على احتكاك مع وحدة يهودية قوية ، فان هذه الاساطير ستتضاعف اثنـــاء نزول الوحي بالكتاب ؛ فقد جعـــل محمد حينذاك من ابراهيم (والد اسماعيل جد عرب الشمال) المؤسس للكعبة وخالق فكرة الحج الى مكة : وهي فكرة رئيسية ، واحدى مولدات الاسلام ، لانهـــا تثبّت حقيقـــةً الاستقلال الاداري للدين الجديد حيال الوثنية واليهودية .

وفي القرآن يظهر ابراهيم عدة مرات مع عنوان « الحنيف » (مثلاً ٣ ,٨٩ ؛ ٦ ,٧٩ ، ١٦٢) . ويبدو ان هذه العبارة السابقة لعصر محمد كانت تدل على اناس لايعتنقون المسيحية ولا اليهودية، ويتطلعون بغموض الى دين اكثر تجرداً من العقائد والمذاهب ، الى توحيد كامل . ومحمد في بدء امره لم يميز بوضوح بين اليهودية والمسيحية ، وكان يحترم هذين الدينين اللذين يملكان كتباً منزلة . ولكنه فيما بعد سيطرح هذا وذلك لينتهي الى التوحيد ، الى دين اساسي وفطري ليست الاديان الاخرى سوى دلالات عليـــه ؛

توحيد يبلور نهائياً احلام الحلفاء الغامضين ، بحيث يجب ان نرى بهم مبشرين بمحمد .

محمد : طفولته وشبابه . ـ في هذا الوسط الحي المتنوع ، في مكة هذه حيث حتّى التجارة والاموال لم تطفىء الاحلام المبهمة للنفوس الدينية ، ولد محمد بين عــامي ٥٧٠ ، تاريخ تقليدي ، و ٥٨٠ . وتاريخ حياته يرتكز على التلميحات المتفرقة في القرآن، وعلى السيرة ؛ انها منتخبات بدأها المؤرخون العرب منذ نهــاية القرن السابع . ومن المسموح به الكتــابة ان السيرة التقليدية قد حولت جزئياً شخص محمد : فمع ان النبي قد أعلن عدة مرات انه ليس سوى رجل كالآخرين ، فان السيرة أدخلت أشياء خارقة في تاريخ حياته ، بشكل تستطيع فيه ان تجعــله مساويــاً لموسى والمسيح . وبهذا أصبح محمد مثال الكمال رغم ضعفه اللذي اعترف هو به قبل الجميع . ومنذ عدة سنوات وضع المستشرقون موضع فحص انتقادي هذه السيرة التي نقدم الشيء الاساسي فيها .

وطفولة محمد لم تكن سعيدة، حتى انه لم يعرف والده عبدالله، وقد فقد امه آمنة وهو في سن السادسة ، ثم بعد ثلاث او اربــع سنوات فقد جده عبد المطلب ، فاحتضنه عمه ابو طالب. وكانت عائلة محمد تشكل جزءاً من الارستقراطية المكية ، انها قبيلة قريش المقسمة الى عدة عصبيات . وليس هناك ما هو مجهول اكثر من اصل هذه القبيلة : فحسب التقليد ، الاسطوري قليلاً او كثيراً ، كانت مكة محتلة قبلاً من قبيلة جرهم ؛ وحينما هاجرت قبائــل الجنوب توقفت قبيلة خزاعة على اراضي مكة ، وانتزعت الملكية

من الجرهميين بعد بضع سنوات . وحينذاك ظهر القرشيون ،وهم نصف رعاة ونصف لصوص ينزلون في ضواحي مكة ويؤجرون جمالهم ويقودون القوافل . وقد نجح واحد منهم ، هو قصي ، في جمع أشتات هذه القبيلة وتمكين رجله في المدينة : فأعاد فيها تنظيم العبادة التي جعلها أسلافه تنحط ، وأعلن دستوراً حقيقياً ، وثبت مقر الحكومة في بناء (دار الندوة) اقيم بجوار المعبد . وقد قارن المستشرق كايتاني Caetani بحق دور قصي بدور تيزيه Thésée او رومولوس . وتـألفت سلطته من وظائف اصبحت امتيازاً القرشيين ومبدأ سعدهم : قيادة الحجاج وإطعامهم ، حفظ بيرق الحرب ، قيادة الغزو . وقد تخل ولده البكر عبد الدار عن مركزه لاخيه الثاني عبد مناف . ومن أبناء عبد مناف الاربعة فان البكر عبد شمس ولد أمية جد الخلفاء الامويين ؛ والثاني هاشم كان والداً لجد النبي .

هذه هي الاعمال الرئيسية التي تسبح في كتلة الاساطير التقليدية. ومحمد اذن يتصل نسبه بمؤسس المدينة . ورغم هذا الاصل العريق فانه قضى شباباً كادحاً أشار اليه القرآن : « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلا فأغنى» (٩٣ ، ٥ ــ ٧) .

وبعد عدة سنوات مرت على الارجح في قيادة القوافل ، فان محمداً دخل، ويمكن ان يكون ذلك بفضل السمعة الحسنة التي يتمتع بها،في خدمة الارملة(او المطلقة) خديجةالتي كانت تدير بيتاً تجارياً: وأثناء رحلاته لحساب خديجة لقي في سوريا راهباً مسيحياً :هناك في التقليد الاسلامي عدة أساطير تتعلق بمقابلات محمد للرهبـــان

(سر جيوس ، بحيرا او نسطور) . وهي أساطير ترمي الى بيان ان المسيحيين قد عرفوا باكراً بصفات محمد النبوية . ومما لا ريب فيه ان التأثير اليهودي في القرآن يبدو اكثر وضوحاً من التأثير المسيحي . ومع ذلك ، وبدون ان نقبل على العمياء بالتقليد كما نقله المؤرخون العرب ، فمن الموافق الاشارة الى المطابقات الغريبة التي حققها توراندريا منذ وقت قريب : هنالك عدة مقاطع من القرآن تذكر بنصوص سريانية تحتذى ؛ وزيادة على ذلك فان الآيات القرآنية المتعلقة بالآخرة ، والتي تعد اكثر قدماً من غيرها، تشبه بشكل غريب بعض مقاطع مواعظ القديس افرام العالم المسيحي الشهير في الشرق ، والتي تعادل حدتها حدة جيريمي Jérémie .(راجع جودفروا ديمومبين، تاريخ الاديان ،١٩٢٧). ويضاف من ناحية اخرى الى تأثير الصابئة الذي يتحدث عنه القرآن امكان وجود تأثير سامري (الموسوعة الاسلامية مادة « السامريون ») .

واذا كانت احاديث محمد مع احد الرهبان قد وضعته وجهاً لوجه مع لغز الآخرة فان ذلك ليس بمستحيل . ولكن هذه اليقظة قد تأخرت بسبب زواج محمد ، الذي كان في الخامسة والعشرين، من خديجة التي تكبره بكثير . وهو حادث هام من عدة نواح : عند اضطراب محمد من نزول الوحي الاول فان خديجة هي التي ستعيد اليه الثقة بنفسه ، وأموال خديجة ستعضد محمداً في معاركه الاولى . ولذلك يمكن القول ان تأثير خديجة على بدايات الاسلام كان رئيسياً ، واخيراً فان خديجة هي التي ولدت الولد الوحيد

لمحمد والذي ترك وراءه أعقاباً ، وهذا الولد هو فـاطمة المعذبة الكئيبة التي أصبحت بزواجها من علي جدةً لعدد كبير من أعقاب النبي (الأشراف الحسنيون والسادة الحسينيون) . وطوال حياة خديجة فان محمداً لم يتخذ زوجة اخرى : وهذا برهان على النفوذ الذي كانت تمارسه عليه . ود دليل ايضا على رد افتراءات

محمد : الوحي والتبشيرات الاولى . ـ ومع ذلك فان السيادة المنزلية لم تنحرف بمحمد عن شواغله الدينية . اما مخالطاته في مكة وفي رحلاته التجارية فمجهولة ؛ ولكن اذا آمنا بالحكايات التقليدية فانه كان يذهب بشكل دوري وينفرد في غار بضواحي مكة ، من تلقاء نفسه او بتأثير النساك . ومهما كان الأمر فان محمداً ،بعد عدة سنوات من القلق، سمع صوتاً حسبه اولاً صوت روح شرير، ولكن نداءات هذا الصوت توضحت، وهدأ روع محمد شيئاً فشيئاً بلدهم من خديجة .

فما هي صفة هذه الايحاءات الاولى ؟..بامكاننا ان نأخذ فكرة عنها وفقاً لاقدم سور القرآن وأجلها في الوقت نفسه . وقد بدا أنها حدثت في الليل على الخصوص ، ويفهم ذلك من قراءة بعض الآيات (وعلى الخصوص السور ٧٣ و ٧٤) . وإذا تكلمنا بضبط فان محمداً لم يكن في هذه النصوص رسولاً من الله : إن الله اختاره كامين على تعاليمه ؛ ومحمد أيضاً لم يتلق هذه الآيات إلا بواسطة روح رأى فيه اولا الملاك اسرافيل ، ثم الملاك جبرايل (القرآن، ٥٣ ، ٩ ـ ١١ ؛ ٨١ ، ١٩ ـ ٢١) . وقد أصبح محمد في القرآن فيما بعد منذراً ورسولاً .

وهناك آية اخرى يفهم منها ان محمداً لم يسرع في إيصال الوحي الذي تلقاه إلى مواطنيه (القرآن ١٠ ، ١٧) . وقد صمم أخيراً على التبشير ، مطيعاً الامر الذي تلقاه من الاعلى (القرآن ، ٩٦). وأعلن عن وجود إله واحد ، معارضاً تعدد الآلهة . يضاف الى ذلك أنه تنبأ لمعاصريه ، المحبين للخيرات الارضية ، ببعث يتبعه عقاب مخيف (القرآن ، ٩٦ ، ٧ ؛ ١٠٢ ، ٩٢ ، ١٤ ـ ١٨) ؛ وهو عقاب بقيت عناصره غير واضحة لانه يتألف تارة من انتهاء العالم (الذي يصبح داهماً مع الزمن) ، وطوراً من مصيبة تشبه تلك التي لاشت الشعوب الاسطورية في العصور العربية او العبرية القديمة . فماذا يلزم اذن ليؤمن سلامته ؟. « وما امروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (القرآن ، ٩٨ ، ٤) ؛ « فأما من اعطى وأتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » (٩٢ ، ٥ ـ ٧) ، لليسرى (السعادة) الابدية التي وصفها القرآن باعتدال (٨٨) مضادةً للعذاب الذي ينتظر الهالكين .

وهذا التبشير ذو الميول الاشتراكية أثار ضد محمد ليس تجار مكة الاثرياء فقط بل أيضا الاشخاص العديدين المرتبطين بالكعبة، والعائشين من النذور والحج . ويزاد على ذلك أن محمداً كان يوضح افكاره بآيات قصار ذات إيقاع لاهث ، مميز بالسجع الذي يشبه بعض الشبه، بدون ان يكون مطابقاً له ، سجع عرافي الوثنية الذي كان معاصروه يستسيغونه دون تأخير . انها إتهامات تجيب عليها عدة آيات من القرآن (مثلا ، ٨١ ، ٢٢ ، ٦٩ ، ٤١) .

ووفقاً لأحد التقاليد فان أول من آمن بكلام محمد بعد خديجة هو ابن عمه علي ابي طالب ؛ ولكن طفولة علي قللت من اهمية اهتدائه . وكان الاهتداء الاكثر نفعاً هو اهتداء ابي بكر ، وهو تاجر عظيم نذر لمحمد محبة لا تنفصم . ومن ناحية اخرى فان النبي وجد سنداً مخلصاً في زيد ، ولده بالتبني (وقد حول فولتير اسمه الى سيد Seide وأدخله في اللغة الفرنسية) . وباستثناء اعضاء العائلة فان محمداً لم يجمع حوله سوى اناس صغار كان يخشى من العداوة القرشية ان تزعزع ايمانهم : وقد هاجر هؤلاء المؤمنون البسطاء الى الحبشة إطاعةً لنصيحة محمد ، حيث سمح لهم النجاشي ان ينزلوها بانتظار ايام أفضل. أما اسلام عمر المفاجيء ، وهو رجل ذو حمية كان له تأثير كبير على مصائر الاسلام ، فلم يمنع الانفصال النهائي بين الحزب القرشي والمجددين . ولسوء الحظ فان خديجة وأبا طالب قد ماتا وبقي محمد مهملاً من عائلته ومن قبيلته (وهذا كان اكثر خطورة) ، فحاول ايجاد مستند في الطائف ، الا انه طرد منها ؛ ولكنه حصل على السماح له بالعودة الى مكة بفضل وساطة احد القرشيين .

الهجرة . ــ واثناء ذلك التقى تجاراً من يثرب (المدينة) كانت علاقتهم باليهود قد هيأتهم ، من حيث لا يشعرون ، للتوحيد ولأن عداوتهم للمكيين حملتهم على معاضدة محمد . وبعد مضي سنة ، بين عامي ٦١٠ و ٦٢٠ ، فان بعض المدينيين ، الانصار في المستقبل ، التقوا بمحمد في مكان منعزل واقسموا له يمين الاخلاص . وهكذا اصبح محمد رئيساً لحزب ديني وسياسي

معاً ؛ والتقليد يعطي العباس ، عم محمد وجد الخلفاء العباسيين ، دوراً راجحاً في هذه المقابلة . ثم تجدد القسم على الاثر ، وقام محمد الذي اعتمد منذ ذلك الوقت على شهامة المدينيين بترحيل الاتباع القلائل الذين ظلوا له في مكة الى المدينة . وهاجر هو آخر الجميع بشكل اقل فاجعة مما يعتقد عادة : وذلك النهار ، او على الاصح تلك الليلة ، والتي حددت فيما بعد بالسادس عشر من تموز ٦٢٢ ، تشكل نقطة انطلاق التاريخ الاسلامي . انها الهجرة ، والمؤمنون المكيون الذين سبقوا محمداً الى المدينـة هم المهاجرون . وهكذا انتهى دور الالم بالنسبة لمحمد .

محمد في المدينة . ــ كان محمد واتباعـه يلتزمون الدفاع حتى الآن . ولكن الهجوم سيبدأ . « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسـوله ولا يدينون دين الحـق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . » (٩ ، ٢٩) ، وهي آية قرآنيـة تظهر الصفة الاقتصادية اكثر مما تظهر الصفة الدينية للحرب التي ستندلع قريباً بين مكة والمدينة .

ولكن يجب اولاً توحيد العنـاصر المختلفة الطباع والجنس لسكان المدينـة هؤلاء : من عرب يقطنون موطن اجدادهم ، ويهود ، ومهاجرين مكيين ، وانصار مدينيين ؛ وكانت القبيلتان المدينيتان الرئيسيتان، الأوس والخزرج، تفصلهما خصومة قديمة. وتظهر روح محمد السياسية الحية كروحه الدينية في وثيقة ثمينـة (لانها تعتبر اصلية) : هي تنظيم الجماعة الاسلامية ؛ وقد اعلـن

فيها ان المهاجرين والانصار يشكلون من الآن فصاعداً جماعة واحدة سيكون جزءاً منها اليهود والوثنيون الذين يحتفظون بدينهم ؛ ان في المدينة اذن كثيراً من العصبيات ، وكثيراً من المصالح المتضاربة، ولكنها شعب واحد مستعد للدفاع عن المدينة ونقل جميع المنازعات الى امام الله ورسوله محمد. ومما لا طائل تحته الالحاح على اهمية هذا العمل المرتكز على مذاهب الاخوة القديمة، والذي سيكب في قالب واحد المكيين المهاجرين والمدينيين من مسلمين وغير مسلمين . « ان محمداً هو الاول بين مواطنيه الذي ثبت دعائم الاخوة الدينية على روابط اخرى غير روابط الدم ، دون ان يستخرج النتائج الاخيرة لهذا المبدأ المثمر. والاسلام كدين عالمي هو مفهوم يبتدىء بالخلافة » (لامنس) . وبعد ان ازال محمد بذلك خطر الخصومة العنصرية استطاع الاستمرار بعمله كمشرع ديني : وقد اضطر ، من ناحية ، أن يلغي الاعمال الوثنية في حدود الامكان (وسنرى انه اضطر ان يحتفظ بالكثير منها ، وخصوصاً في الحج) ؛ ومن ناحية اخرى نظم طقوس الدين الجديد ؛ وهكذا عينت شيئاً فشيئاً قواعد الصلاة ، والوضوء ، والأذان ، والصوم ؛ وقد بني المسجد الاول بعد وصول محمد الى المدينة بقليل .

ولكن جميع هذه الأحكام التي ثبت فيها سلطته ما لبث ان اقامت عليه اليهود القلقين على تفوقهم المالي . والحقيقة ان عداوتهم لم تظهر بوضوح ؛ والقرآن عاملهم كمرائين . ومحمد ، المنتظر ان يلعب دور الحكم بين عناصر سكان المدينة المختلفة، حاول اولاً ان

يستميلهم ، وقد زودته علاقاته بهم بمعلومات عن العهـــد القديم (التوراة) ، ويوجد فعلا انعكاس لهذه الحادثات فيأجزاء القرآن التي يعود تاريخها الى ذلك الوقت حيث تبدو فيها المهارة باضافة ابراهيم الى الاسلام . ولكن الآيات القرآنية التي أعـــادت سرد حكـــايات العهد القديم تحتوي على أخطاء : فاليهود المتشبعون بتفوقهم ، والذين يعتبرون ان منحة النبوة ظلت امتيازاً لإسرائيل، اظهروا هذه الاخطاء بتهكم . يزاد على ذلك انهم سعوا لإثارة العداوة بين القبائل الأصلية ، الامر الذي يهدد سلطة محمد بشكل خطير : وكان ان قطع علاقاته بهم واعتبرهم أعداء، منتظراً اليوم الذي يستطيع فيه محاربتهم (القرآن ، ٥ ، ٨٣ ــ ٨٥) . وكانت العـــلامة الواضحة على قطع العلاقات هي تغيير وجهة الصـــلاة الاسلامية :فقد اختار محمد منذ الهجرة قبلة اليهود . وكان المسلمون يصلون باتجاه اورشليم ؛ وبعد ستة عشر او سبعة عشر شهراً من الهجرة ، فان محمداً الذي حيا ابراهيم كمؤسس للكعبـــة عاد وترك اورشليم في سبيل مكة: وبهذا يكون التقليدالعربي القديم قد استعاد خطوته تاركاً تأثير اليهودية العابر . وهناك مقطع هام من القرآن يتعلق بتغيير القبلة هذا الذي يطابق حدوث تغيير في سياسة محمد (٢ ، ١٣٦) .

اذن ، فمنذ السنة الثانيـــة للهجرة اصبحت الكعبة هي المركز الحيوي للاسلام . وهي فكرة اشير اليها يومذاك انهـــا رئيسية ، لانها اتاحت لمحمد ان يعين لاتباعه هدفاً واضحاً : هو مكة . انه دفعهم الى فتح عاصمتهم الدينية والى بلوغ التفوق التجاري الذي

زاحمهم عليه القرشيون. وهكذا افتتح دور الغزوات التي لا تختلف مطلقاً عن الغزوات الوثنية . « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » (القرآن ٨ ، ٦٦) ؛ وهي إشارة قاطعة الى الشجاعة القليلة عند المكيين الذين سيضطرون الى الاستعانة بالأجراء الاحباش الذين هم اكثر خضوعاً للنظام من البدو . وكانت نقطة الخطر الواضحة عند المكيين هي قوافلهم . ومحمد إذن سيلزم نفسه بأن يشل تجارتهم — وذلك كما سيحدث بعد عدة قرون حين يقوم القراصنة البربر بشن الغارات —وبعد عدة محاولات غير مجدية نهب رجاله قافلة في احد الاشهر الحرم : وهذا النقض للهدنة كان له تأثيره في المدينة كلها. ولكن الوحي صوّب اعمال المعتدين : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج اهله منه اكبر عند الله ، والفتنة اكبر من القتل،ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا...» (القرآن ، ٢ ، ٢١٤) . وبالفعل ، فان نهايات الصراع ستتيح لمحمد ان يضع، في وحي جزئي ، مبادىء التشريع: تقسيم الارض، والاسلاب ، وأموال الموتى ، والشروط المفروضة على المغلوبين . وسنرى تطور هذه المبادىء .

وتفصيل هذه الغزوات ، وهي مناوشات بسيطة في معظمها ، سيكون مضجراً . ولكن هناك اعمالاً كانت خطيرة بنتائجها ، وتجدر الإشارة اليها .

ففي السنة الثانية للهجرة ، وفي منتصف شهر رمضان ، انتصر محمد على المكيين في بدر ، وهي ماء وسوق واقعان في مكان تلتقي فيه طريق المدينة بطريق القوافل . وقد بُلّغ محمد ان قافلة هامة تسير من مكة باتجاه سوريا بقيادة ابي سفيان ، وهو تاجر كبير ورئيس الحزب المعادي للمسلمين ، فعزم على توقيفها . وادرك المكيون مقاصده فأرسلوا نجدات مرتجلة ما لبثت ان ولت الادبار وحدثت هزيمة عامة وملحمة بين الهاربين. وقد التجأ محمد الى خربة بمساعدة ابي بكر ، واضطر للمرة الاولى الى قسمة الغنائم بين المنتصرين وفقاً لتعاليم الوحي (القرآن ، ٨ ، ٤٢) .

واستعد المكيون للثأر ، طوال سنة . وكان عليهم عدا الثأر للعار الذي لحق بهم ، ان يعيدوا فتح طريق القوافل . وقد اتوا يعسكرون في جبل أحد واجبروا المدنيين على الخروج بمهاجمة مزروعاتهم. وكانت المبادرة للمدينيين اولا ، ولكن القرشي خالد (ابن الوليد) صانع التوسع الاسلامي في المستقبل، نجح في ردهم. وحوصر محمد وجرح . ومع ذلك فان القرشيين اوقفوا المطاردة امام المدينة التي لم يجسروا على مهاجمتها . ولهذا كان انتصارهم دون غد .

ولكي لا يثبط محمد شجاعة أتباعه فانه حصر همه في العودة الى المعركة حالاً . يزاد على ذلك ان القرآن شجع المترددين (٣ ، ١٣٧) . وأثناء العودة من إحدى هذه الغزوات فان عائشة زوجة محمد المفضلة وابنة ابي بكر ، بقيت في آخر الجيش وعاد بها شاب مسلم ، الامر الذي أثار احاديث السوء :وبعد بضعة ايام من الشك

برأ محمد زوجته الشابة بواسطة الوحي (القرآن ٢٤ ، ١١) ؛ وقد استشير علي فارتأى طلاقها ، وقد كلفه ذلك – كما سنرى – حقد عائشة الذي لا ينطفىء . وكذلك فان وحياً (القرآن ، ٣٣ ،٣٧) سمح للنبي بالزواج من زينب (بنت جحش) التي اضطر مولاه زيد ان يطلقها مراعاة له .

وفي السنة الخامسة للهجرة هدد المسلمين خطر جديد . فمحمد منذ اختلافه مع اليهود كان قد نفاهم بالتدريج عن المدينة ،فالتجأوا الى خيبر وطلبوا من ابناء دينهم ان يعقدوا مع المكيين والقبائل الاخرى تحالفاً ضد محمد . وتسلم ابو سفيان قيادة جيش هائل تمثلت فيه فرق ممتازة : الاجراء الاحباش الاصل (الاحابيش). ولم يستطع المسلمون القتال ، وعند ذلك ظهر التحصين في الاسلام بحفر خندق حول المدينة (ويعزو التقليد هذا الابتكار الى سلمان، وهو فارسي اعتنق الاسلام) . وفوجىء المتحالفون بذلك فحاصروا المدينة ، ولكن بعد ثلاثة اسابيع تقريباً ، وقدأعوزتهم المؤن وتفرقوا : رفعوا الحصار ، وربح محمد المعركة نهائياً . وبالنتيجة فقد ادرك ان مما لا فائدة منه تعجل الامور ومحاربة المكيين مباشرة، ولكنه أتعب رجاله بالغزوات. وفي السنةالسادسة عزم على امر خطير: الذهاب الى مكة مغتنما فرصة حلول الاشهر الحرم ؛ وقد توقف غير بعيد عن المدينة في مكان يدعى الحديبية، وأرسل المفاوضون من الناحيتين وأقر الاتفاق التالي : يترك القرشيون مكة طوال ثلاثة اشهر ، ولكن في السنة التالية فقط ، وعند ذلك يدخلها محمد مع اتباعه . إذن فقد خضع في الظاهر

لخصومه ، ولكنه في الحقيقة تفاوض معهم مفاوضة الند للند : وهو نجاح دبلوماسي كبير رغم خيبة امل المسلمين الذين عادوا الى المدينة دون ان يزوروا الكعبة .

اما وقد اطمأن محمد من ناحية القرشيين فانه اراد تصفية حساب اليهود . وقد كان اجلاهم قبلاً عن المدينة مغتنماً فرصة انشقاق قبائلهم. ولكن موقع خيبر الحصين ظل خطرا على المدينة. وقد احتيج الى شهر لإخضاع الحصون الصغيرة المحيطة به . وعوقبت هذه المقاومة الشديدة بصرامة: فاليهود خسروا املاكهم واموالهم ، وأصبحوا مزارعين عند المنتصرين عليهم ، بانتظار طردهم من بلاد العرب بواسطة الخليفة عمر . ويؤكد التقليد ان امرأة يهودية حاولت تسميم النبي وانه ظل يشعر بالالم طوال سنوات ، إلا انه يمكن التساؤل اذا كانت هذه الوعكات الدورية لم يكن سببها الحمّى المألوفة في خيبر والمدينة .

ومعاهدة الحديبية تمنع على المسلمين مهاجمة القوافل المكية : لذلك بحثوا عن الثراء باتجاه سوريا. وجهزت غزوة حقيقية، إلا ان الامر يتعلق هذه المرة بمهاجمة القبائل العربية في شرق الاردن التي تعضدها بيزنطية . فهل امر بها محمد بملء ارادته ؟.. وهل اراد تجربة حظه باجتياز حدود بلاد العرب الطبيعية ؟ .. انه لم يشترك في هذه الغزوة التي كانت نكبة ولم يشترك فيها احد من رفاقه الرئيسيين : ففي مؤتة بالقرب من البحر الميت اندحر زيد وقتل، واستطاع خالد ان يعود الى المدينة بفلول الجيش .

وهذا الاخفاق ، البعيد ، لم ينقص مَن نفوذ محمد : فقد كان

منذ مدة يتفاوض مع ابي سفيان ، « نموذج تام للتحررية ، ونسق سياسي تبنته السلالة الاموية فيما بعد » (لامنس) . حتى انه تزوج ابنته ايضاً ، وهو زواج سياسي محض كتلك العلاقات التي وطدها محمد ، وكزواجه مثلا من حفصة ابنة عمر وعائشة ابنة ابي بكر . وجاء ابو سفيان الى المدينة بحجة تجديد اتفاق الحديبية ووعد صهره باعداد استسلام مكة : وبالنتيجة فقد تنحى ابو سفيان جانباً منذ غزوة الخندق وغل يديه زواج النبي من ابنته . واغتنم محمد فرصة خلاف بين القبائل فمشى باتجاه مكة ودخلها دون حرب (٦٣٠) . ووعد بالعفو العام ويمكن انه وعد ايضاً بألا يسكن مكة . وامتلك الكعبة ، ثم عاد الى المدينة بمدة خمسة عشر يوما .

ان استسلام مكة لم يمنع البدو بعد ذلك بقليل من تشكيل تحالف خطير . وهكذا اتحد للمرة الاولى اهالي مكة والمدينة ضد العدو المشترك ، الا ان مفاجأة ليلية بعثت الاضطراب في صفوفهم . ولولا تدخل العباس ، الذي كان قد ساعد محمداً كثيراً ، لكان ذلك اليوم مشؤوما على المسلمين ؛ واخضاع المغلوبين جر وراءه خضوع أهالي الطائف وقبائل أخرى ؛ وهو خضوع سياسي لم يكن يتضمن دائماً المشايعة الدينية ـ وسيظهر ذلك بعد وفاة محمد : « قالت الاعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم » . . (القرآن، ٤٩، ١٤) وقد اضطر النبي في ذلك الوقت إلى التوسط بين المكيين والانصار الذين دب الحسد فيما بينهم ـ إنها بدايات عداوة دائمة.

وفي عام ٦٣١ سار محمد على طريق سوريا على رأس جيش

قوي . ويمكن انه كان يقصد الثأر لقتل مؤتة ، ولكنه لم يتجاوز تبوك ، حدود الاراضي البيزنطية . واكتفى ببعض الغزوات على شواطيء البحر الاحمر . وقد دعا المؤرخون السنة التاسعة للهجرة هذه « سنة المفاوضات » . انها مفاوضات قامت بها القبائل التي اعلنت خضوعها . وهكذا كانت قوة محمد تتأكد كل يوم .

وفي السنة العاشرة للهجرة (٦٣٢) حج محمد إلى مكة حجته الاولى والوحيدة . وكان يكتفي قبلا بحج جزئي (العمرة) يتم في غير الوقت المخصص للحج . ويمكن ان يكون قد فعل ذلك تجنباً لقيادة حج لم يستطع بعد ان يبعد الوثنيين عنه . وقد تم هذا الابعاد امتثالاً لآية قرآنية عام ٦٣٢ (٩ ، ٢٨) بعثت الاطمئنان في نفوس المؤمنين على النتائج الاقتصادية التي اتى بها .

وحجة محمد هـــذه دعيت « حجة الوداع » ، ، وعاد محمد الى المدينة ؛ وشعر بالتعب ، وازداد هذا التعب سوءاً إلى ان توفي بذات الجنب بعد ثلاثة اشهر (٨ حزيران ٦٣٢) .

ويستحيل الحكم على رجل كهذا ببضعة سطور ، فاذا فحصنا مجموع اعماله نجد اولا مزاجاً عصبياً قلقاً ، ونفساً كثيرة العواصف بشكل غامض ؛ ثم ان مفاهيمه تتوضح حول شخص إله واحد وحقيقة حياة مستقبلة . واعتقد ان تقواه الصادقة ، وموهبته الرائعة في الفصاحة ، وثباته جعلته ينتهي إلى فرض نفسه على المحيطين به ؛ وقد اضيف فيما بعد إلى موهبة النبوة موهبـــة رجل الدولة الدبلوماسي والحربي معـــاً . إن محمـــداً ليس ثورياً بل على العكس « فهو يفضل التساهل ، والتحويل ، والاختيار ،

واخيراً الدمج » (لامنس) . وكان يعرف ان ينتظر الفرصة المناسبة حتى يستطيع ان يقول هو ايضاً : « الوقت وانا » ، وما من شك في ان الاسلام ، عند موته ، لم يكن قد اكتسح بلاد العرب ، ولكنه ثبت دعائمه في الحجاز . وبفضل عبقرية محمد الدينية والسياسية ، وهي عبقرية موحدة بشكل اساسي ، فان العرب وعوا انفسهم وخرجوا من ظلمات الجهل والفوضى ليعدّوا دخولهم النهائي الى تاريخ المدنية .

٥٥

الفصل الثاني

السيطرة العربية

الخلفاء الاربعة الاولون . — لم يترك محمد عند وفاته ولداً ذكراً ، فقد توفي ابناؤه في سن مبكرة ، وبقي من بناته ابنة واحدة هي فاطمة زوجة علي التي خلفت ولدين: الحسن والحسين. إذن فقد اندلعت ازمة سياسية حول موضوع خلافة محمد، وتصارع المدينيون والمكيون على السلطة ، وتألفت عدة احزاب ؛ ولكن عمر تغلب على الشغب ، واقسم يمين الاخلاص بين يدي ابي بكر وألب حوله معظم الأصوات ، الامر الذي حسم الخلاف . اما علي ابن عم محمد وصهره ، والمؤمن منذ الساعة الاولى ، فقد كان باستطاعته الاستفادة من هذه الميزات ؛ ولكنه اظهر في هـذه الظروف تردداً جعله يخسر فيما بعد ، ، ولم يعرف ان يقود اتباعه. ومهما كان الامر فان ميزات ابي بكر لم تكن تستحق الاهمال :

فقد برهن على اخــلاصه للنبي بأن بقي الى جــانبه أثناء هجرة المسلمين الى الحبشة ؛ وكان رفيقه في الهجرة (القرآن ، ٩، ٤٠): « الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا » . وابنته عائشة تزوجت محمداً ؛ وفي الغزوات الحربية ظل ابو بكر دون انقطاع ، رغم مزاجه المسالم ، الى جانب النبي؛ وقد كلفه هذا بأعمال هامة، منها اولا تولي قيادة اول حج للمسلمين الى مكة (السنة التاسعة ــ ٦٣١) ، ثم بالصلاة في الناس مكانه طوال مرضه الذي مــات فيه . وهذه الميزة الاخيرة عــلى الخصوص قد اعتبرت لمصلحة تنصيب ابي بكر خليفة . وهناك مجــال للتساؤل اذا كان عمر لم يقم منذ ذلك الوقت بممارسة السلطة من وراء هرم كثير الانقياد او قليله .

وجعل ابو بكر الحكومة حكومة ثلاثية : ابو بكر وعمر وابو عبيدة (وهذا الاخير رفيق للنبي ورجل حرب مجرب) . وكانت الوضعية حرجة : فالامبراطورية الناشئة ، والمؤسسة فقط عــلى سلطة محمد الشخصية ، كانت تهدد بالتفسخ ؛ والأعراب منهم من ارتد عن الاسلام وآخرون رفضوا دفع الزكاة او وقفوا موقفــاً مريباً .

وكان عمل حكومة الثلاثة مزدوجاً : فمن ناحية ، غزوات في الخارج على حدود سوريا هيأت ليس فتح هذه البلاد فقط ، بل أيضاً نشر الاسلام بين قبــائل عربية كانت ، قبل عصر محمد ، تعيش على الاراضي البيزنطية وتلعب، دون ان تشعر، دور عوامل

التغلغل (طابور خامس) ؛ ومن ناحية اخرى ، في الداخل ، اجتذاب دبلوماسي حيال القبائل المترددة ، وعمليات بوليسية ضد المارقين واللصوص . وعدا ذلك فان انبياء كذبة ، ونبية أيضاً ، ظهروا بعد وفاة هذا الرجل الكبير الملهم في اماكن مختلفةمن بلاد العرب . وقاوم أحدهم بضراوة في اليمامة الخاضعة للفرس ؛ واحتُلت البحرين عسكريا ، وهكذا وجد العرب أنفسهم على اتصال مباشر بالاعجامفي منطقة الفرات؛ اما بلاد العرب الجنوبية (عمان وحضرموت) فكانت قد هدأت .

اذن فطوال سنتين من خلافة ابي بكر (٦٣٢ – ٦٣٤)تمكن الاسلام من بلاد العرب ومهّد لفتح سوريا وبلاد فارس .

وعين ابو بكر بصراحة عمراً خليفة له ، الامر الذي كان المسلمون ينتظرونه . وسيحكم عمر عشر سنوات كانت للاسلام دور توسع انتصاري وتنظيم ثابت . وعند موت عمر (عام ٦٤٤) كانت بلاد فارس كلها ، وسوريا ، ومصر ، وبرقة قد افتتحت واديرت بشكل منظم . واذا كان محمد هو المشترع الملهم والمحرك الاول للوحدة القومية والدينية فان عمر هو صانع التوسع الاسلامي بالذات. ولما كان بسيطاًوحازماً كمحمد وأبي بكر فانه ظل كذلك بعد نجاحاته الباهرة ، مما يذكرنا ببعض اباطرة روما القديمة العسكريين . وهو كفاتح وإداري معاً لم يكن عزوماً فقط بل حازماً في استغلال الظروف ، والافراد . والحماسة الدينية . و ان ميزته الرئيسية التي لا تنكر هي في منع الانفصاليين من التسلط ؛ وقد عرف ان يهيء سيطرة نظام اكثر ثباتاً ايام الامويين ،

(لامنس). وعدا ذلك فاليه يجب ان يعزى بصورة رئيسية تنظيم البلدان المفتوحة او بالاحرى جعلها ملائمة : وكذلك بدىء أثناء حكمه ، وبناء على نصيحة علي ، بتأريخ المراسلات وفقاً للهجرة (ابتداءً من السنة ١٧ او ١٨) .

ومما سهل افتتاح سوريا بوجه خاص هو الغـاء الاعتمادات الحربية التي لم تستطع بيزنطية المنهوكة بسبب حربها ضد الفرس ان تمنحها لحـاكم الولايات السورية في سبيـل تجنيد جيوش مستأجرة . وبعد سنتين من العداوة المترددة (٦٣٤ - ٦٣٦) اندحر البيزنطيون في معركة اليرموك ، ومنذ ذلك الوقت أفلتت سوريا منهم . وقد اطالت بعض المدن مدة مقاومة لا فائدة منها. واضطرت آخر واحدة منها الى التسليم في عام ٦٤٠

وانتصار اليرموك هذا أتاح للعرب اجتياح المملكة اللخميـة القديمة في اراضي الفرس ، وابتدأ افتتاح بلاد فارس منذ ذلك الوقت . وهنا أيضاً كان العنصر الرئيسي لنجاح العرب هو تفرق خصومهم : فالمملكة الساسانية كانت قد انهكت البلاد بتشددها السياسي والديني ، وكـانت منهوكة بسنوات من الحرب ضد بيزنطية ، وقلقة بسبب الخزر Khazares القوقـازيين واتراك بكتريان Bactriane . والانتصار الاول في القادسية (٦٣٧) أسلم للعرب بلاد الكلدان والاشوريين ، وهي مقاطعة سامية من الامبراطورية الفارسية. ولم يتوقفوا عند ذاك بل اجتاحوا بـلاد فارس نفسها وحققوا نصراً ثانياً في نهاوند عام (٦٤٢) ، وهو نصر حاسم ، إذ أصبحت بلاد فارس منذ ذلك الوقت خاضعة

لنير حكام عرب ، دون أن تتخلى ابداً عن قوميتها ، وهي قومية بدت انها حية جداً خلال التاريخ : ولكنها اضطرت الى انتظار بعثها السياسي طوال اربعة قرون حيث نشأ فيها حينذاك ممالك محلية دافعت عن حدود امبراطورية الخليفة ضد الهجمات التركية ، بعد أن حلت محل العرب المنهوكين : وهو فصل جديد من الصراع القديم بين ايران وطوران .

وفي نفس السنة التي جرت فيها معركة نهاوند تابع العرب هجومهم ، بعد افتتاح منطقة الموصل ، حتى عاصمة ارمينيا التي أعملوا فيها النهب .

وكان عمر قد ولى على حكومة سوريا معاوية الاموي ابن ابي سفيان ذي النفوذ . وكانت هذه التولية أصل حظ معاوية مؤسس السلالة الملكية في المستقبل . وقد اقترح معاوية بناء اسطول يمكن للمدن الساحلية أن تمده بالعناصر اللازمة بسهولة ؛ ولكن الخليفة عمر استبعد هذه البدعة . وفي ايام خلفه استطاع معاوية تسليح سفن ازعجت البيزنطيين طوال سنوات بجولانها في بحر إيجه .

ويزعمون من ناحية اخرى ان تعيين معاوية ـ على سوريا ـ كان السبب غير المباشر لافتتاح مصر : فقائد جيش سوريا، عمرو بن العاص ، الحانق بسبب حلول معاوية مكانه ، سار من تلقاء نفسه نحو مصر على رأس جيوشه رغم معارضة الخليفة (٦٤٠). اما الحقيقة فهي ان العرب اسرعوا هنا ايضاً باستغلال حالة الفوضى عند جيرانهم . فقد كانت مصر تمزقها المنازعات الدينية وهي مجهدة بسبب سوء ادارة الحكام البيزنطيين ، كما كانت حالة

بلاد فارس بسبب سوء ادارة الساسانيين . وبعد ان استولى عمرو على بيلوس Peluse وقف ينتظر النجدات ، ثم كان انتصاره في هليوبوليس هو الذي فتح امامه ضواحي بابيلونْ (القاهرة القديمة) وقلعتهـــا . وسقط وادي النيـــل في قبضة العرب . ثم استسلمت الاسكندرية بعد مقاومة عنيفة عـــام ٦٤٢ . وبعد اربع سنوات دخلها البيزنطيون على حين غفلة ولكن العرب هجموا واستعادوها (يجب ان نعتبر احراق مكتبة الاسكندرية بأمر من الخليفة عمر كأسطورة) . وافتتحت مصر نهائياً . وفي غضون ذلك كـــان عمرو قد احتل برقة .

ومات عمر عام ٦٤٤ مقتولا بيد مسيحي فارسي ، وقد أتاحت له جراحه ان يسمي ستة اشخاص ألزمهم بتعيين خلف له . وقد استبعد علي ، صهر محمد ، بسبب تشدده : فقد كان يريد اعـــادة عادات الاسلام الى ما كانت عليه في عهد محمد ، دون ان يحسب حساباً للتطور الذي تم . وقد وقع الاختيار على صهر محمد الآخر، الاموي عثمان ، وهو رجل مسن دون همة ، وأقل صلاحا لاتمام عمل عمر .

ومع ذلك فان التحريض الذي طبعه عمر بطابعه كان قوياً جداً بحيث ان الفتوحات تتابعت بشكل منظم : غزوات في آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه ، واحتلال تدريجي لأرمينيا ، وعمليات اخيرة في بلاد فارس ، وغارات سريعة على افريقيا الشمالية .ولكن هذه المعارك البعيدة جداً اصبحت اكثر إرهاقاً ، والغنائم اقل وفرة ؛ والشعوب المغلوبة اعتنقت الاسلام ، ليس بدافع الايمان

بل للدفع ضرائب اقل ثقلا ؛ ومن ناحية اخرى فان العرب قد تذوقوا حياة الفخفخة التي وجدوها في البلدان المفتتحة. ونتج من كل ذلك وضعية مالية مقلقة لم يستطع عثمان ، المتهم خصوصاً بإغناء أقاربه ، ان يداويها . وكذلك فقد اندلعت الفوضى في المقاطعات وأضيف الهياج الديني الى الهياج السياسي . ولم تخفف جهود عثمان في اقرار نص نهائي للقرآن من نفور المؤمنين المتصلبين. وهنالك واحد من اكبر رفاق محمد قيمة [1] بدأ يعظ اولا ضد فساد الاخلاق ، ثم ضد عثمان والامويين ، وقد صرح بحقوق علي وابنائه في ارث محمد ؛ وهي حقوق طالب بها لمصلحتهم يهودي من اليمن اعتنق الاسلام [2] . انه رد فعل تشيعي ، ولكنه معقد بالدسائس السياسية التي تديرها عائشة ارملة محمد التي لاتزال شابة وتدفعها الرغبة في ان تلعب دوراً . وقد انتهت هذه الدسائس بحركات من الجيش مزعجة . فعثمان باستدعائه جيش سوريا المخلص لعائلته ــ وهذا يذكرنا بلويس السادس عشر وجيش الامراء ــ قد اتهم بالغدر وقتل بالسيف في بيته (٦٥٦). وهكذا ظهرت في ايام حكمه الحرب الاهلية من ناحية ، وفكرة شرعية السلالة المتجسدة بعائلة علي من ناحية اخرى .

وحينئذ انتخب علي خليفة ، ولكن ليس بالاجماع . فقد كان المصريون يعاضدونه. إلا ان الامر احتاج لعدة ايام من المفاوضات للاتيان بأهالي المدن المقدسة والعراق للاعتراف به على حساب

---

١ ــ هو ابو ذر الغفاري — المترجم

٢ ــ هو عبدالله بن سبأ — المترجم

منافسيه طلحة والزبير ، وهما مسلمان منذ الساعة الاولى (والزبير ابن اخ خديجة زوجة محمد) . وكان الأسوأ من كل ذلك هـــو رفض معاوية ابن عم عثمان وحاكم سوريا . وهكذا فان صراعـــاً رهيباً بنتائجه سيندلـــع بين فرع الابن البكر وفرع الابن الثـــاني المتولدين من الارومة القرشية .

وكان من الواجب العمل بسرعة وصرامة . ولكن علياً خسر كل شيء بسبب بطئه ورغبته في المسالمة . وفي اول ايلول ٦٥٦ ، اي بعد اكثر من خمسة أشهر على تقلده الخلافة ، ترك المدينة الى غير رجعة ، وسار على رأس جيشه الى البصرة . وأصبح من المحتم إخضاع طلحة والزبير اللذين اتفقا مع عائشة بحجة الثأر لعثمان ــ والحقيقة ان الحقد هو الذي أثار عائشة ضد علي الذي كان قد أشار على النبي في السابق بطلاقها؛ يضاف الى ذلك انها شقيقة زوجة الزبير . وقد قتل منافسا علي في معركة عنيفة ، وأخذت عائشة أسيرة واعيدت الى المدينة: وهي اول معركة منتظرة بين المسلمين. وقد سميت بمعركة الجمل نسبة الى الجمل الذي كانت تعتليه عائشة تحت هودج مدرع . « لقد وجدنا الجمل المقدس والقبة ؛ ولكن عائشة ام المؤمنين احتلت مكان الصنم ... وقد احتفظ بهذا العمل في حروب بدو الصحراء المعاصرة ؛ اذ تجلس دائماً على الجمـــل المقدس فتاة ، هي أشرف فتيات القبيلة ؛ ومنتهى العار في ان تترك لتقع في ايدي الاعداء » (لامنس) .

ان عليـــاً المنتصر كان اذن سيد الامبراطورية ؛ ولكنهـــا امبراطورية منقسمة الى قسمين بسبب سوريا قلعة الامويين ...

واحتلت جيوش علي الكوفة واكتيزيفون Ctésiphon (العاصمة القديمة للساسانيين الفرس)، واجتازت الفرات الى الرقة حيث التقت بالجيوش الاموية في سهل صفين؛ وفي هذه المناسبة نصب معاوية نوعاً من المظلة، وهي قبة كبيرة مغطاة بالقماش، واقسم السوريون امامها بأن يقاتلوا حتى الموت؛ ـ ويرى الاب لامنس في ذلك إحياءً للبالاديوم[1]، وبعثاً لحيوية العادات الوثنية، وخصوصاً عند الامويين؛ وبعد ثلاثة اشهر من المناوشات المترددة التي كانت تقطعها مفاوضات علي، فان قتالا حاسماً دار لمصلحته عندما انقذ القائد عمرو بن العاص (فاتح مصر) معاوية بخدعة: فقد أمر السوريين بتعليق صحائف القرآن على رماحهم ليظهروا انهم يدعون الى حكم الله؛ اما رفاق علي فقد عاكسوه بقبول التحكيم، وكان في ذلك خسارته. وبالفعل فان انصار العمل الحازم قد تركوه. وقد اصبح هؤلاء المتعصبون فيما بعد اعداء له بقدر ما كانوا مخلصين؛ وانسحبوا الى حدود ميزوبوتاميا وبلاد الفرس، وحينما انخدع المفاوض الذي فرضه رفاق علي عليه (وهو هرم محترم ولكنه ضعيف) بمفاوض معاوية، اختار هؤلاء المنشقون خليفة جديداً منهم. وقد اطلق عليهم التاريخ اسم الخوارج (من الكلمة العربية «خرج» شق عصا الطاعة). وبعكسهم اصبح المخلصون لعلي هم الشيعة. وسنرى المركز الذي شغله هؤلاء وأولئك في الاسلام.

---

١ ـ البالاديوم Palladium: تمثال خشبي كان يحمي المدينة في اعتقاد اليونانيين القدماء. المترجم

وأصبحت وضعية علي مفجعة ، فقد وجد نفسه بين نارين . فمن ناحية ، معاوية وقد نادى به السوريون خليفة بعد مهزلة التحكيم التي كان من نتيجتها خلع علي ؛ ومن ناحية اخرى فان الخارجي المناهض للخليفة قاد جيوشه بعزم وافراط في منطقة اكتيزيفون . وسار علي لحرب الخوارج فأبادهم في معركة (النهروان) ولكن عدداً منهم كان قد انتشر في العراق وفارس حيث انتشر مذهبهم بسرعة ، قبل ان يصل الى افريقيا الشمالية . ثم ازدادت الانفصالات ، ورأى علي ان أهالي الكوفة ينسحبون، وان مصر انتقلت الى معاوية . وبعد سنتين من النضال ضد غارات الامويين المستمرة في بلاد العرب وما بين النهرين (ميزوبوتاميا) ، قتل علي بواسطة الخوارج (٦٦١) .

لقد كان دور علي وصفاته ، وسيزالان ، موضع مناقشة . فالبعض يعتبرونه شجاعاً والبعض الآخر كرجل عادي جداً . وعلى كل حال فان سياسته معتدلة كسياسة جميع افراد ذريته . وحبه للسلم قد أضاعه كما اضاع كثيرين غيره . فقد ترك ملكه ينتزع منه بسبب التشدد وعدم المهارة . ولكن صفات الفارس المنزه عن الخوف واللوم، والمزاج المثالي الذي اسبغه التقليد عليه، والشقاء الذي ارهقه ـ بدون ان يضاف الى ذلك المآسي التي حاقت بذريته ـ ان كل هذا قد ضفر له اكليل شهيد . ويجب الا نندهش من الاسلام الشيعي الذي يعتبره قديساً ، بينما الصوفيون يحيطونه بحبهم ، وبعض المراطقة يذهبون الى تأليهه .

ومهما يكن من امر ، فان ذرية عبد شمس ، التي أبعدتها

سلالة هاشم في فترة سابقة ، قد استعادت السلطة . انه انتصار الارستقراطية المكية. اما الحزب السوري فقد استبدل نهائياً مبدأ الخليفة المنتخب بمبدأ الوراثة السلالية المتجسدة في الامويين .

واذا لاحظنا ، بالقائنا نظرة الى الوراء ، تطور الخلافة في ايام ممثليها الأربعة الاول (الخلفاء الاربعة الراشدون) ، نجد استقرار بلاد العرب والتهيئة للفتح في ايام ابي بكر ، والتوسع الظافر في ايام عمر ، وتمكين الفتوحات ، وتطور الفخفخة ، وضعف سلطة الخليفة في ايام عثمان ، وتزايد هذا الضعف ، والحرب الاهلية التي سببت الانشقاقات الكبرى ، وتوقف التوسع الخارجي ، وبروز الفكرة السلالية في الاسلام حيث يمكن ان يكون ذلك تقليداً لمملكتي بيزنطية وفارس ، في ايام علي .

السلالة الاموية . ــ بعد موت علي نادى اتباعه بولده الحسن كخليفة ، وهو غير اهل لذلك ــ وربما كان مصدوراً ــ ولم يكن يفكر إلا بان يحمل معاوية على ان يدفع له الكثير من المال[1] مقابل تخليه عن الخلافة. وقد انسحب الى المدينة ومات فيها وهو لايزال شابا .

وكان اول اصلاح ــ هام جداً ــ قام به معاوية هو انه نقل عاصمته من المدينة الى دمشق حيث كان في مدة ولايته الطويلة على احتكاك بالادارة البيزنطية ، وقد استقى منها تجربة السلطة .وكان هذا النقل ضربة حاسمة على حزب علي الذي بقي في المدينة . وتولى معاوية الملك طوال خمس عشرة سنة كسيد دون منازع بعد ان اعاد الوحدة الاخلاقية إلى العالم العربي . واستعاد افكاره

(١) راجع تعليق العلامة محمد جواد مغنية في آخر هذا الفصل. (ص٩٨)

التحررية ونجرأ ايضاً على مهاجمة بيزنطيـــة . وقد ضمن له تساهله حيال المسيحيين إخـــلاص سوريا الثابت . وعين في حياته ولده يزيد كوريث للخلافة (٦٨٠) . وهكذا عادت الخلافة الانتخابية الى الحياة .

وتسنمُ يزيد العرش لم يجر دون اراقة الدماء . فان الحسين ، الشقيق الثاني للحسن ، والذي كان يعيش في ايام معاوية معتزلا في المدينة ، لم يرفض الاستجابة لنداء انصار عـــائلته : وحين ترك المدينة وسار اليهم في الكوفة طارده الفرسان الامويون وحاصروه في كربلاء. وقد ظل الحسين طوال عشرة ايام محاطاً بحرس ضعيف منتظراً الحوادث . ويبدو ان رئيس جيش الخليفة كان يقصد ان يجعله يستسلم دون حرب بمنعه من الوصول الى الفرات ؛ وفي نهاية هذه الايام العشرة انذر الحسين بأن يستســـلم ولكنه لم يستجب ؛ واستطاع رجال الخليفة الاربعة آلاف ان يقضوا بسهولة عـــلى الجماعة الصغيرة : وسقط الحسين مصاباً بعدة ضربات. انه حادث قليل الاهمية في ذاته ، ولكن نتـــائجه لا تحصى من الناحيتين السياسية والدينية : فقد أصبح للشيعة شهداؤهم الاول .

وبعد وفاة الحسين اضطر الخليفة يزيد الى محاربة طامع آخر اكـــثر خطراً : هو عبد الله بن الزبير ، ابن عم النبي (؟) الذي نازع علياً الخلافة بعنف . فما ان مات الحسين حتى اعلن عبد الله نفسه خليفة في مكة واعترف به في الحجاز كـــله . واقتحمت جيوش يزيد المدينة حيث اشياع الخليفة المناهض ، ونجرأت على مهاجمة مكة ؛ ودام الحصار الذي احرقت الكعبة اثنـــاءه مدة

شهرين الى ان جاء نبـــأ موت الخليفة يزيد . وعند ذلك بويع عبدالله بن الزبير في بلاد العرب الجنوبية والعراق وقسم من سوريا. ولكن بقية العالم الاسلامي ظلت مخلصة للامويين ، رغم ضعف الخليفتين اللذين جاءا بعد يزيد . اما خلفه الثالث ، عبد الملك بن مروان ، فقد ورث وضعية مهملة ؛ وبالفعل فقد كان هناك ثلاثة منافسين ينازعونه الخـــلافة : محمد ابن الحنفية (مرشح حزب علي) ، ونجدة (مرشح الخوارج) ، وعبد الله بن الزبير . ولكن عبد الملك ثبّت دعائم سلطة الامويين . فقد اكتسح العراق وقتل شقيق عبدالله في معركة . وعبدالله نفسه قتل وسلاحه في يده على اثر احتلال مكة (٦٩٢) الذي أنهى هذه المحاولة التي قام بهـــا الحزب القديم . وبالفعل فقد استتب النظـــام في ايام عبد الملك وخلفه ، وعادت الحروب ضد بيزنطية بفضــــل وزير ذي قيمة كبيرة : هو الحجاج ، وهو رجل حرب وادارة معاً ، ولكنـــه طاغية . وقد الحق الضرر بجميع الامويين بسبب الكراهيـــة التي أوحاها .

ثم تتابع الخلفاء بسرعة اثناء النصف الاول من القرن الثامن. وإذا نحينا جانباً مدة خلافة هشـــام الطويلة ، وهو فاتح ولكنه إداري ضعيف ؛ فان واحداً بينهم ، هو عمر الثاني ــ عمر بن عبد العزيز ــ كان قديساً ذا روح متزمتة ولكنها مهتمة بالعدالة والرأفة حيال خصومه ؛ وهناك آخرون ، كسليمان ويزيد الثـــاني والوليد الثاني ، كانوا فنانين او لاهين يكرهون رعـــاياهم ويتعجلون انحطاط السلالة رغم اهمية الفتوحات التي حققها قادة جيوشهم .

فالتوسع الذي توقف لفترة ما في ايام علي عاد بقوة في ايام الامويين . وقد رأينـــا ان قوة بحرية تأسست بواسطة معاوية . اما على اليابسة فان الغزوات تضاعفت في الشرق كما في الغرب ، حتى ليقـــال ان الامويين حلوا محل الساسانيين في النضـــال ضد بيزنطية . فقد بلغ العرب في الشرق عام ٦٦١ مدينة هراة وحملوا سلاحهم حتى نهر الاندوس من خلال افغانستان . وقادوا منذ عـــام ٦٧٤ غزوات في ترانسوكسيان Transoxian انتهت عام ٧١١ بضم البلاد . وفي غضون ذلك احتلوا ارمينيا ــ دون ان يتوصلوا الى افتتـــاح الاناضول . وفي اقل من اربعين سنة بلـــغ الاسلام في الشرق آخر حدوده: حدود الصين ووادي الاندوس.

وفي ناحية الغرب لم تكن الفتوحات اقل من ذلك. ففي ذلك العصر كـــانت القبائل البربرية في افريقيـــا الشمالية مستقلة عن الامبراطورية البيزنطية . وقد شكلت ثلاث جماعـــات رئيسية : لواتا Lowata في الشرق (طرابلس الغرب وبلاد الجريد واوريس)؛ وصنهاجة في الغرب (وعلى الخصوص كتامة في بلاد القبائل ، ومصمودة في الشاطىء المراكشي ، والصنهـــاجيون الملثمون في الصحراء الكبرى) ؛ وزناتة البدو الرحل الذين قطن قسم منهم منطقة تلمسان . وهنا أيضاً فـــان العداوة التي كـــانت تفرق بين صنهاجة وزناتة هي التي سهلت عمل المجتاحين . وفي إيفريقيـــا Ifrikiya ، أي القسم الشرقي من افريقية الشماليـــة (اسم المغرب يدل بوجه خاص على قسمها الغربي) ، حدثت معركتان أوليتان لم تكونا سوى غزوات اصطدم العرب فيها بالبيزنطيين ؛ اما في

المعركة الثالثة فقد حل البربر محل هؤلاء ؛ وكان ان اسس القائد العربي عقبة (بن نافع الأزدي) مدينة القيروان لتكون مركزاً عاماً للمجاحين (٦٧٠) وليرد البربر . وقد وقع هذا القائد في كمين بعد جولة خارقة للعادة قام بها على جواده وتوقفت على شاطىء الاتلانتيك في مراكش . واخيراً ، في عام ٦٩٧ ، اصبحت الوضعية السياسية ثابتة تماماً . والخليفة عبد الملك يقوم جديا بتهيئة الغزوات ؛ فاحتلت قرطاجة ونهبت ، ثم استعادها البيزنطيون واضطروا الى تركها في السنة الثانية . وعندئذ تنظمت مقاومة البربر في الاوريس ، وهي مقاومة تجسدت في شخص اسطورى كثيراً او قليلا هو كهينة Kahina . ولكن اختلاف خصوم العرب خدمهم مرة اخرى واستطاعوا ان يضيفوا الفتح الديني الى الفتح الحربي : ففي بضع سنوات اصبح البربر مسلمين بتأثير عادة الايمان القديمة ، اذ قادهم الأمل بالغنائم ليصبحوا افضل مساعدين للعرب في فتح اسبانيا ؛ وبعد ان غامروا في الجنوب المراكشي احتلوا طنجة وجزر الباليار .

واسبانيا التي يحتلها القيزيقوط Wisigoths كانت مسيحية بالاسم اكثر مما هي بالفعل ؛ فالشعب الذي يستعبده الاقطاعيون والاساقفة كان ينتظر محرريه ؛ وقد ظهر العرب كذلك ، اذ اشترى العبيد والأرقاء حريتهم باعتناقهم الاسلام وسهلوا مهمة الفاتحين ؛ وقد تفوق الفرسان العرب على المشاة المسيحيين، وقرع احتلال طليطلة جرس السيادة القوطية .

ومنذ عام ٧٢١ بدأ العرب غزواتهم فيماوراءالبرانس (فرنسا) . وكما

كانت المملكة القوطية تحتضر فان مملكة الميروفنجيان كانت ايضا كذلك ؛ والعرب بعـــد ان اوقفهم اود Eudes على نهر الغارون انعطفوا نحو وادي الرون واجتـــاحوه (٧٢٥) ؛ وبعد سبــع سنوات اجتاز فرسانهم غاسكونيا ، واحتلوا بوردو واسرعوا الى بواتيه فهزمهم شارل مارتل فيها (بعد وفاة محمد بقرن) ، وفي عام ٧٣٧ هزمهم في جنوبي نربونة .

ورغم هذا الاخفاق ، الذي هو توقف نهائي لتوسع العرب الحربي ، فان امبراطوريتهم ظلت حينذاك في اوج مجدها : انها تمتد من الاتلانتيك الى الاندوس ، ومن بحر قزوين الى شلالات النيل . وذروة الخلفاء الامويين السياسية قد سبقت ذروة هـــذا التوسع الارضي ببضع سنوات . وبلغت سلطتهم أوجها في عهد عبد الملك (نهاية القرن السابع) ، وكان عملهم مركزياً بشكـــل اساسي ؛ وكما ان محمداً ادخل عنـــاصر غير متلاحمة في الوحدة الأولية فـــان الامويين ادخلوا في امبراطورية فسيحـــة شعوبا ومعتقدات كفَّت بالجهد عن الاقتتـــال ؛ وبواسطة ذلك ظهرت فكرة الدولة بشكل حقيقي .. ولكن هذا العمل يفترض معـــاً تحررية سياسية ودينية وفكرية مارستها عائلاتهم دائما : فأبوسفيان كان يعيش على اتفاق مع المسيحيين واليهود ؛ وأعقابه تزوجوا من مسيحيات ، وعينوا خطبـــاء وشعراء بعضهم مسيحيون ، والآخرون مشبعون بذكريات وثنية (دون ان نتكلم عن الموسيقيين والمغنين والمغنيات) ؛ وانصرفوا من غير ان يشعروا الى الافتتان بتمدن سوريا القديمة . إلا ان هذه النزعة التحررية لم تنسهم انهم نواب

مؤسس الدين ، ومع ذلك فقد اذلوا المؤمنين الذين ظلوا مخلصين لتقشف الايام الاولى؛ وقد وجهت « المدينة » القائمة اللوم لدمشق كما ان جنيف ستلوم روما في القرن السادس عشر .

ومن ناحية اخرى سياسية ، فاذا كانت المدينة قاعدة لدولة عربية فان دمشق قاعدة لامبراطورية مسلمة . ولكن هذه الامبراطورية كثيرة الاتساع وفيها الكثير من عدم التلاحم لتكون وحدتها دائمة . فكلما ابتعدت حدودها تأكد عدم التوافق بين طبقات الشعوب المغلوبة وبين العدد القليل من الفاتحين . وعدا ذلك فان الامويين رأوا ان اعتناق الاسلام ينقص مدخول الضرائب فوضعوا العوائق امام اعتناق الاسلام ، وكان عمالهم يعاملون هذه الشعوب ، التي هي وارثة لمدنيات قديمة يسرها تذكرها (الحركات الشعوبية القومية) ، كطبقة أدنى ، ويضغطون عليها ويسيئون معاملتها . ويضاف اخيراً الى هذه الجلبة ذلك الهياج الذي تعهده الخوارج والشيعة . ودعاوة هؤلاء الحاذقة العظيمة عجلت في سقوط الامويين .

وبالحقيقة فقد بدأت هذه الدعاوة الشيعية بعد موت الخليفة الورع عمر الثاني (٧٢٠) . ولكن اشياع العلويين اضطروا مرة اخرى ايضاً ، وسيدركون ذلك بعد فوات الاوان ، الى ان يعملوا في سبيل آخرين : فاعقاب العباس عم النبي كانوا قد اكتسبوا منذ وقت طويل احترام المؤمنين ، بفضل حياتهم . وقد دفعتهم المعارضة ، التي قامت ضد الامويين ، دون ان يشعروا الى اعداد مشروع ينتهي بتقويض ملك هؤلاء لمصلحتهم .

ومن سوريا أرسل دعاة مخلصون الى مناطق مختلفة ؛ فوجدوا ارضاً صالحة في خراسان بوجه خاص : فهناك بعض الجماعات الفارسية التي تعتبر نفسها اسمى من العرب لم تخضع للاستعباد . وعدا ذلك فان مساعدة غير منتظرة، هي مساعدة الشيعة، منحت لاعقاب العباس . وموقف الشيعة هذا يفسر بما يلي : ان انصار عائلة علي ، الحالمين على الخصوص باستعادة السلطة ، كانوا يبحثون عن حلفاء . واختلافهم فيما بينهم ، كما هي العادة ، خدم العباسيين ؛ وبالفعل فان الشيعيين كانوا منقسمين الى حزبين : أحدهما وهو حزب الامامية التابع لولد الحسين (شهيد كربلاء) ظل في معزل عن الدعاوة العباسية ؛ والحزب الآخر ، حزب الهاشميين ، كان تابعاً لشقيق الحسين من ابيه المسمى « ابن الحنفية » . وقد تبع ولده ابا هاشم من بعده (ومنه جاء اسم الحزب). وابو هاشم هذا الذي توفي عام ٦١٧ ــ وربما بالسم ــ عهد بحقوقه في الخلافة الى محمد بن علي حفيد العباس: وهكذا فان فرعاً هاماً من الحزب الشيعي اصبح اداة للدعاوة العباسية . وقد توبعت هذه الدعاوة بشكل فعال رغم موت محمد بن علي : وسيقتطف ولداه ثمار جهوده بفضل عامل ذي اصل فارسي ، كثير المهارة والنشاط هو ابو مسلم (الخراساني) . وفي عام ٧٤٧ ارتفعت اعلام العباسيين السوداء مقابل اعلام الامويين البيضاء ؛ وبعد مضي سنتين نودي بأول خليفة عباسي في جامع الكوفة ، وسقط آخر خليفة اموي سقطة لا شفاء منها . اما اعضاء عائلته فقد طوردوا واستؤصلوا دون رحمة ؛ ولكن واحدا

منهم استطاع الهرب الى اسبانيا حيث يؤسس فيها مملكة عام ٧٥٤ .

العباسيون . ــ ستظل السلالة العباسية مدة خمسة قرون (٧٥٠ ــ ١٢٥٨) . والامويون هم صناع السيطرة العربية بينما السلالة العباسية ــ وفيها اثنان من اكبر خلفائها ولدا من فارسيتين ــ هي مسلمة اكثر منها عربية ، ولذلك اضطرت الى ان تبقي الميزان متعادلا بين العرب والفرس الذين حملوها الى الحكم ؛ وهو امر صعب الا انه تحقق طوال خمسين سنة بفضل عبقرية المنصور وبفضل سلالة من الوزراء ذات اصل فارسي : البرامكة . واندلعت الحرب الاهلية بعد ذلك بين ولدي هارون الرشيد اللذين كان يعضد العرب احدهما ، ويعضد الفرس الثاني ليستولوا عليه بضع سنوات : وهذا الكسر لن يجبر ابدا .

والنفوذ الفارسي نقل مقر الخلفاء من دمشق الى بغداد ، وغير صفة الحكومة . فالخلافة العباسية بدت كأنها تجسد للمملكة الساسانية ، ولم يظهر التأثير الفارسي في مراسم البلاط والملابس فقط بل تعداهما الى الفنون والآداب .

وهذا التأثير لم يكن وحيدا ، والمدنية العباسية هي مزيج في الاساس. فحتى ذلك الحين ، ووفقاً للمستندات التي وصلت الينا ، ظل الأدب العربي شعرياً وخطابياً فقط ، ولكن مفكري البلاد المفتوحة اصبحوا بفضل تحررية العباسيين الاول على احتكاك مع العرب وخرجت علوم الاغريق القديمة فجأة من المدارس والاديرة حيث كانت قد التجأت اليها . ونحن نعلم كم ترك الفكر اليوناني من أثر

في آسيا منذ معارك الاسكندر؛ وقد ترجمت مؤلفات الفلاسفة والعلماء الاغريق منذ القرن الرابع الى السريانية بواسطة النسطوريين ودرّست في سوريا وميزوبوتاميا على الخصوص؛ ومن ناحية اخرى فقد شعر المجتمع العباسي بتأثير الهند بواسطة جماعة ايرانية من بكتريان وبلاد الصغد (افغانستان) وجدت نفسها على اتصال بالبوذيين .

انها عناصر اغريقية ، وآرامية ، وهندوسية انتشرت كلها بسرعة بين العرب بفضل مترجمين كان دورهم رئيسياً في القرنين الثامن والتاسع . اما الفرس ، فان تأثيرهم يبدو اقل عمقاً مما كان يظن احيانا ، وعلى الخصوص حين نتكلم عن رد الفعل الآري ضد العبقرية السامية : وقد ظهر هذا التأثير بوجه خاص على الشعر الذي بدل من صفاته ؛ يضاف الى ذلك ان الفرس المستعمرين جعلوا العرب ، الذين لم يحذقوا بعد تدقيق البراهين ، ان يفهموا سمو العلوم وقوة الجدل ؛ وبكلمة واحدة ، يبدو ان دورهم كان دور المطبقين . وقد جرى في بغداد حينذاك ما يشبه نهضتنا في القرن السادس عشر. فالدور الذي لعبه الفرس يذكرنا بالدور الذي لعبه الايطاليون الآتون الى فرنسا في ايام فرنسوا الاول .

ويضاف الى هذه النزعة الفكرية المنتصرة فعالية اقتصادية : فقد استخدمت بغداد كواسطة بين الغرب والشرق الاقصى ؛ وزرعت وكالات تجارية للهند والصين ايضاً . وهذه العلاقات التجارية لم تكن تفضي الى انتشار الاسلام بصورة منتظمة . وإذا

كان اسلام مدغسكر المدين الى هجرة العرب ، الآتين من الخليج الفارسي دون شك ، قد تتابع من القرن السابع حتى التاسع ، فان إسلام أنسولند (ماليزيا) وبعض مناطق الصين كان اكثر تأخراً. فالاسلام في أنسولند دخل سومطرا وبدأ يطرد الهندوسية (التي قضي عليها تماماً في القرن السابع عشر) اثناء النصف الثاني من القرن الثالث عشر فقط ؛ اما الصين فان تغلغل الاسلام فيها يبدأ بالحقيقة في اليوم الذي انتصر فيه العرب على الاباطرة من سلالة تانغ على نهر تالاس (٧٥١) . وهي معركة حاسمة في التاريـــخ اضطر فيها هؤلاء الاباطرة الى طلب المعونة من المجندين العرب ضد رعاياهم المتمردين .

والواقـــع ان القرن الاول وحده (عصر المنصور والرشيد والمأمون) ، بين خمسة قرون من الخـــلافة العباسية ، هو عصر العظمة والازدهار الحقيقيين ، وهو عصر جميل في التاريخ . « ان العالم سيحلم به دائماً » (رينان) . وبعد ذلك بدأت تظهر عيوب النظام . فـــالامبراطورية واسعة جدا وقد ظهرت فيها اعراض التفكك ؛ ومن ناحية اخرى فان الخليفة ، وقد شعر بان السلطة الزمنية تتفلت من يديه شيئـــاً فشيئـــاً ، سعى ليزيد من سلطته الروحية ، الامر الذي اوصله الى انعكاسات التشدد الديني .وعدا ذلك فانه لجأ مبكراً الى التفرقة ليسود ، وذلك حذراً من العرب والفرس المستعربين المحيطين به . ولما كان قلقاً من الانتفاضات العديدة التي يقوم بها الشيعة والخوارج فقد شكل حرساً خاصـــا من المرتزقة الاتراك الذين التقى بهم العرب في آسيـــا الوسطى .

وهؤلاء المرتزقة ، كمرتزقة قرطاجة والامبراطورية المنخفضة[1] ما لبثوا ان اصبحوا متفوقين . والخليفة الذي فقد كـل سلطة فعلية لم يعد منذ منتصف القرن العاشر سوى ملك كسول ، حيث « رؤسـاء الامراء » الذين يذكروننـا « بقيّمـي القصر Maires du Palais عندالميروفنجيين سيكونون تارة فرساً وطوراً اتراكاً .

وهذا الضعف ما لبث ان افضى الى التفكك السياسي . فمنذ عام ٧٥٥ فان اسبانيا التي ظلت مخلصة لآخر خليفة اموي تفلتت من العباسيين . ومنذ ان عرف الامير الهارب ، عبد الرحمن ، ان يوفق بين نزعات الاحزاب المتناقضة (عرب ، بربر ، سكـان اصليون) فان امارة قرطبة عرفت حظوظاً متنوعة. وكانت تقف تارة ضد المسيحيين ، وطوراً ضد الشقاق الداخلي . ولكن اميراً كبيراً ظهر عـام ٩١٢ ، هو عبد الرحمن الثالث ، اعاد فتـح المقاطعات التي اضاعها اسلافه ، وثبت دعائم الوحدة السيـاسية ومـالية الدولة ، واتخذ اسم خليفة (٩٢٩) . وفي ايام الحكم الثاني ، النصير الكبير للفنون والآداب ، اصبحت قرطبة منـافسة لبغداد . وقد تألقت اسبانية المسلمة في القرن العاشر هذا ببريق لا مثيل له: انه لمعان دون غد لأن الانحطاط بدأ منذ سنوات القرن الاخيرة ، وعجلت به الخصومات الداخلية ، وغزوات المسيحيين

---

١ ـ الامبراطورية المنخفضـة Bas — Empire : اسم اطلق على الامبراطورية الرومانية منذ عهد قسطنطين وعلى امبراطورية الشرق منذ عهـد تيودور حتى سقوط القسطنطينية في قبضة الترك . المترجم

والتشدد الديني ؛ وعبثاً حاول وزير عبقري ، هو المنصور ابن ابي عامر ، ان يحفظ وحدة اسبانية السياسية . فقبل موته بقليل ، وفي بدء القرن الحادي عشر ، تمزقت البلاد الى نصف دزينة من الدويلات التي سيكون للمسيحيين حظ كبير في القضاء عليها .

ولكن قبل تسنم العباسيين العرش فان بربر افريقيا الشمالية ، المستسلمين مرة اخرى لميلهم الطبيعي الى الطرافات الدينية ،كانوا قد تركوا الدين القويم ليقبلوا بحماسة على مذاهب الخوارج المرطوقية التي تذكر بمذاهب تدعى Circoncellations [١] وترضي ميولهم الديموقراطية : وهي حركة دينية وقومية معاً انطلقت من مراكش نحو عام ٧٤٠ واجتاحت افريقيا الشمالية كلها وقسما من اسبانية ايضاً . ولم يستطع العباسيون ، رغم المعارك الدامية ، ان يمنعوا نشوء ممالك صغيرة مستقلة اداريا : الرستميون في تاهرت ، وهي نموذج للامارة الخوارجية ؛ والمدراريون Midrarides في سلجماسة ، وبنو عفرين في تلمسان؛ والادريسيون في فاس . ولم يلبث ما بقي من افريقيا ان تفلت منهم : وكان الخليفة منذ عام ٨٠٠ قد تخلى لواليه عن مقاطعة ايفريقيا لتكون إقطاعة وراثية له مقابل ضريبة سنوية (تونس وقسم من ولاية قسطينة) ؛ انه تنازل مقنّع . وهذا الوالي ، والسلالة التي أسسها ، سلالة الاغالبة ، سيجعلون لطيش رعاياهم هدفاً ، وذلك بأن يقودوا الاساطيل نحو شواطىء ايطاليا وفرنسا

---

١ ـ اسم اطلق في القرن الثاني عشر على هراطقة المان رفضوا كل سلطة روحية الكنيسة . المترجم

وكورسيكا وسردينيا ؛ وسيقضون خمسين سنة في افتتاح صقلية ، وهي ارض ذات مدنية قديمة تتآخى فيها عبقرية الاغريق وروما والشرق . انها بوتقة تذاب فيها ، بشكل منسجم ، النزعات المسلمة والمسيحية .

وفي مصر فان الطولونيين ، الولاة المستقلين عملياً عن بغداد ، كانوا في القرن الثامن يهيئون الطرق للاخشيديين والفاطميين . ومع هؤلاء الاخيرين فان سلطة الخليفة السياسية ليست هي التي اصيبت فقط ولكن سلطته الدينية ايضاً؛ فقد حملهم، كالعباسيين، جيش من الدعاة السريين الى الحكم . وكما ان العباسيين قد استفادوا من معونة الشيعيين فان الفاطميين استفادوا من المذاهب المشتقة من المذهب الشيعي ؛ وأصلهم غير ثابت (فهم يزعمون انهم ينحدرون من علي وفاطمة) ؛ والصفة الشبه بطولية لمغامراتهم الاولى ، وطاقتهم وسرعتهم في التغلب على بني الاغلب وافتتاح إيفريقيا ، ثم تأسيسهم في القاهرة ، بعد خمسين سنة ، خلافة هرطوقية كانت منافساً خطراً لخلافة بغداد ؛ كل هذا جعل لتلك السلالة نفوذاً غامضاً . وسنرى فيا بعد اي تأثير فرضته على تطور الاسلام الديني .

والحقيقة ان ادريس (حفيد علي دون شك) قد ادخل المذهب الشيعي الى المغرب منذ عشرين سنة ، وأسس فيها سلالة مالكة . ولكن الشيعة الادريسية ظلت مبعدة في المغرب الاقصى. وقد أصبحت افريقيا الشمالية شيعية بتأثير الفاطميين كما كانت قبلا خارجية ــ نسبة الى الخوارج ــ . اما الداعيةابو عبدالله فقد

عقد صداقات مع البربر في مكة هيأت له حمل الفاطميين الى العرش كما ان ابا مسلم مهد لتسنم العباسيين. وقد دفع فيما بعد من حياته، كأبي مسلم ، ثمن القلق الذي سببه نفوذه لمليكه . اما عبيدالله هذا الذي طرده العباسيون من مصر وجاء يبحث عن حظه في المغرب فان امير سجلماسة المدراري القاه في السجن ؛ ولكن ابا عبد الله الوفي قلب حكم الاغالبة، وطرد الرستميين من تاهرت ، وجاء ينقذ سيده ويضعه على عرش الاغالبة في تونس عام ٩١٠ ؛ وهكذا ظلت افريقيا الشمالية طوال عدة سنوات مسرحاً لمبارزة ضارية بين مذهبي الخوارج والشيعة : واستطاع المذهب الشيعي ان يتغلب على خصمه عام ٩٦٠ . انه قتال ديني ، ولكنه ايضا قتال سياسي بين القبائل البربرية ؛ فالقتال بين كتامة وصنهاجة المدافعتين عن الفاطميين ضد زناتة، نصيرة الخلفاء الامويين في قرطبة، له ما يشبهه في قتال اللخميين انصار الفرس ضد الغسانيين انصار بيزنطية .

وحين اصبح الفاطميون سادة الغرب الاسلامي وجهوا انظارهم نحو الشرق الذي كانوا يفكرون به دائماً . ومصر التي ردت هجماتهم السابقة افتتحت عام ٩٦٩ دون جهد وأصبحت شيعية، رسمياً على الاقل ، لمدة قرنين . وقد نقل هذا الفتح مركز الامبراطورية الفاطمية . فقد ترك الفاطميون حراسة افريقية الشمالية لانصارهم بربر صنهاجة، وشرعوا في فتح سوريا؛ وظلت سيطرتهم عليها متذبذبة الى اليوم الذي انتزعها منهم الاتراك السلاجقة عام ١٠٧٦ .

والامبراطورية الفاطمية كانت في نهاية القرن العاشر تضم مصر وسوريا من ناحية ؛ وجزر البحر المتوسط وافريقيا الشمالية حتى الاتلانتيك من ناحية اخرى . ولكن ذلك كان لفترة معينة ، لأن افريقيا الشمالية ما لبثت ان افلتت منهم كما افلتت من الخلفاء العباسيين : فانتقال عاصمة الفاطميين من تونس الى القاهرة فصل عنهم امراء البربر تدريجياً؛ ومنذ عام ٩٧٢ أقدم قائدهم في تونس على خلع سيادتهم واسس مملكة بني زيري Zirides . وهناك مملكة اخرى ، هي مملكة الحاديين قد توطدت في منطقة بوجي من الجزائر (١٠٠٧) ؛ اما من ناحية الغرب فان القبائل البربرية كانت تتصارع على انقاض السلطة الادريسية. وفي العصر نفسه، كما رأينا ، تفتتت الى ممالك اقليمية (ملوك الطوائف) .

وهناك حادث كانت نتائجه الاقتصادية والسياسية عظيمة الاهمية ، لانه حل رصاصة الرحمة الى افريقيا الشمالية : وهذا الحادث هو الغزوة الهلالية . فالخليفة الفاطمي في القاهرة ، وقد رأى ان بني زيري في تونس قد عادوا عن المذهب الشيعي الى المذهب السني [1] ، قذف فجأة ببني هلال وسليم نحو الغرب ، وهم قبائل نهّابة غير خاضعة لنظام، كانت قد هاجرت من بلاد العرب وازعجت الفاطميين في مصر العليا حيث اقصيت اليها . وقد اجتاحت هذه القبائل طرابلس الغرب ، وبعد سنتين دخلت تونس ، ولم يستطع بنو زيري والحاديون التفاهم معها ، وسعوا

---

١ ـ فعل ذلك المعز بن باديس . المترجم

عبثاً لايقاف الغزوة ، واصبحت المدن التونسية فريسة للمغامرين الذين اسسوا في بعض الاحيان امارات محلية ـ وهكذا بدأ حظ تونس بفضل بني خراسان Khorassan . اما الزيريون العاجزون فقد اعتصموا باحدى مدنهم . وكذلــك فعل الحماديون الذين أصبحت أيامهم معدودة في بدء القرن الثاني عشر . فالنورمنديون في صقلية ، وسادة البحر المتوسط ، طردوهم من ملجإهم الاخير عام ١١٤٨ . وكان العرب حتى ذلك الوقت يمثلون حكم الاقلية في وسط البربر ، والغزوة الهلالية زادت عددهم قليلا ولكنهــا زادت البلبلة السياسية والدينية سوءاً ، وقضت بشكل خاص على الازدهار الاقتصادي لافريقيا الشمالية التي سقطت في غفوة دامت عدة قرون .

وإذا عدنا الآن قرنا الى الوراء وألقينا نظرة على الشرق لرأينا صراعاً آخر يستعر . فحين تحرك البربر في افريقيــا ضد سيطرة العرب اضطر هؤلاء الى الدفاع عن انفسهم في الطرف الآخر من العالم الاسلامي وضد خطر يزداد دون انقطاع : هو الخطر التركي. انه العودة الى نضال ايران القديم ضد طوران ، هذا النضال الذي خمد منذ ذلك العهد الذي رأى فيه الساسانيون انفسهم على الطريق التجاري بين الشرق الاقصى وبيزنطيــة ، اذ كــان عليهم ان يحرسوا حدودهم ضد الافتاليين في تركستان ثم ضد الاتراك الآتين من ألطاي . وهذا الدور الشبيه بدور امراء المانيا القديمة ـ دور الحكام المحافظين على سير المدنية ـ فان المملكة التي انبعثت في فارس الشرقية ستعود الى القيام به ابتداء من القرن العــاشر.

والامراء الاول الطاهريون والصفريون الذين استقلوا عن بغداد منذ القرن التاسع ، هم جنود مرتزقة ينحتون لانفسهم مساكن في خراسان وسيستـــان Séistan وفارس Fars . ولكن عاطفـــة القومية الفارسية ولدت من جديد بفضل السامانيين : فقد نقلوا الحرب من تخومهم في ترانسوكسيان الى بـــلاد القرغيز ثم فتحوا جميع بلاد فارس الشرقية بعد ان اطمـــأنوا من جهة الشرق . واصبحت عدة مدن في خراسان وترانسوكسيـــان مركزاً للفنون والفكر حيث احترام اللغة العربية لم يمنع بزوغ الادب الفـــارسي الذي هو العنوان الابدي لمجد السامانيين الذين عاضدوه .

وفي غرب ايران ارتفعت مملكة البويهيين فجأة ، وهي فارسية أيضاً : فقد احتل حكام المقاطعـــات هؤلاء في مدى خمس عشرة سنة بلاد فـــارس الغربية وحلوا معهم المذهب الشيعي ، وثبتهم خليفة بغداد بالاسم الذي سيحكمون تحته بشكل فعلي . وابتدأت عند ذلك بينهم وبين السامـــانيين حرب التفوق ودامت نصف قرن . وقد انتاب السامـــانيين الضعف من هذه الحرب وتحولوا الى الدفاع عن تاجهم ضد شغب ارستقراطي عسكري ، واتبعوا المثـــل المعطى من خلفـــاء بغداد ، حيث استنجدوا بالاتراك . فالاحباش يتناولون اجورهم من المكيين في القرن السابع ، وهناك اتراك وبربر وزنوج أدمت منافساتهم بغداد والقاهرة . اننا نجد في كل مكان وبشكـــل دائم في الاسلام هذا الاستخدام الخطر للجنود المرتزقة الذين يذكروننا بالسويسريين في الممالك الاوروبية. وهناك واحد من هؤلاء الاتراك ، وهو رقيق قديم ، قد تلقى من

السامانيين حكومة خراســان ، وحين خلع من منصبه تغلغل في جبــال الأفغان ووضع في غزنة اسس امبراطورية وقرع جرس المملكة السامانية : فقد طرد آخر امير منهم من خراسان عــام ٩٩٩ بواسطة محمود (الغزنوي) - رجــل الدولة الكبير ـ دولة الغزنويين .

ومحمود في اواخر ايامه كان قد افتتح بلاد فارس الشرقيــة وقسما من الهند حيث ادخل اليها الدين الاسلامي . ولما كان متديناً غيوراً فقد طلب توليته من قبل خليفة بغداد . ولكن مع انه جعل من نفسه بطل الاسلام ضد اتراك كشغر والسلاجقة الذين يهددون حدوده فانه لم يفعل شيئاً سوى انه أخر الغزوة المشؤومة لاخوانه في الجنس. ومن حسن الحظ فان المدنية الفارسية ستنسق عناصرها الكثير الاختلاف .

اذن ففي منتصف القرن الحادي عشر اصبح العالم الاسلامي مفككاً . انه متفكك دينياً لأن المذهب السني اضطر للدفاع عن نفسه في العراق ومصر ضد المذهب الشيعي الذي لا يزال قويــاً رغم ضعفه ، واضطر ايضاً للدفاع عن نفسه في اسبانيا ضدالتقدم المسيحي. وهو متفكك سياسياً لأنه متفتت في ايدي الامراء الذين لم يحتفظ احد منهم بقوة كافية لفرض سيطرته . ولكن قوى فتية دخلت الميدان في طرفي هذا العالم المنهوك : الاتراك السلجوقيون الذين سيقررون الوحدة السيــاسية والدينيــة في الشرق بعد ان طردوا البويهيين من بغداد عام ١٠٥٥ ، والمرابطون الخارجون من الصحراء الكبرى سوف يقررونها آنيــاً في الغرب . وهكذا

انفتح بعد خمسة قرون من السيطرة العربية، عصر الغزوات الكبرى الذي نقل نقطة الثقل في الاسلام . ومن الموافق ، ونحن على عتبة هذا التاريخ الجديد ، ان نلقي نظرة على الصفات العامة لهذا الدور الأول .

شروط التوسع الاسلامي . ــ هناك عوامل عديدة سهلت الفتوحات .

فالميدان اولاً كان مهيئاً بسبب الخلافات الداخلية . وقد رأينا العرب يُستقبلون كمحررين تقريباً من قبل اقباط مصر ، ومن السوريين السعداء بخلع النير البيزنطي . والامر كذلك في بلاد فارس واسبانيا لان الحكومة كانت قد اثارت السكان . وقد عمد العرب الى تلطيف هذه الادارات المزعجة دون ان يلغوها : فاحتفظوا قبل كل شيء بموظفي البلاد ، وخصوصاً بموظفي المالية الذين ثابروا على توزيع الضريبة ، وهي ضريبة كان مدخولها يساعد الخليفة على ضمان اخلاص جيوشه .

وهناك عامل آخر هو حرية التصرف الواسعة التي تركت لقادة الجيوش حتى من الخلفاء الاكثر استبداداً . ففي ايام عثمان وعدد من الخلفاء الامويين تتابعت الفتوحات بشكل شبه آلي دون تدخل الخليفة .

وهناك ايضاً عدد من هؤلاء القادة كان يسيّرهم ايمان صادق في عصر الفتوحات الاولى على الاقل . ولكن يبدو من الصعب القبول ان بعضاً منهم ، ومنذ خلافة عمر على الخصوص ، كانوا خالين من المطامع الشخصية : فمعاوية مثلا هل كان نزيهاً تماماً

اثناء معركة سوريا ..؟ وعمرو بن العاص حين ذهب الى مصر فجأة الم يكن يستشف امكان ايجاد امارة لنفسه..؟ وسؤال كهذا يمكن ان يلقى بصدد آخرين ، كفاتحي افريقية الشمالية واسبانية مثلاً .

واذا كان هؤلاء القادة يضمرون افكاراً ذات مصلحة شخصية فانهم كانوا متبوعين بجنود جهلة ، خشنين ، يؤمن معظمهم بوعود الكتاب المقدس (القرآن) القائلة ان الذين يموتون في سبيل ايمانهم سيتعرفون الى الغبطة الابدية . وهذا عنصر ، لا يقدر بثمن ، من القوة الاخلاقية للمحاربين، ومن السلطة لاولئك الذين يقودونهم . على ان يكون مفهوماً ان هذا لا ينفي تماماً اولئك المتضعين الذين يجدون في الحرب إرضاءً لغرائز النهب الموروثة عن الوثنية .

واخيراً فان هذه الحروب لم ترتجل ارتجالاً كما تبدو لأول وهلة . فقد رأينا العرب يستفيدون بمهارة سواء كان من الشقاق ام من الضعف الآني لخصومهم (على جبهة سوريا مثلاً). وهذه العصابات العربية لم تكن دون خبرة او نظام : فهناك تقليد حربي ثابت كثيراً او قليلاً قد تكوّن بشكل لاواعٍ بين هؤلاء الناس الذين حارب آباؤهم في صفوف اللخميين او الغسانيين ضد الجيوش الفارسية والبيزنطية القديمة . ويمكن ايضاً ان يكون للخلفاء مصلحة في قذف رعاياهم في الغزوات ليبعدوهم عن العاصمة ويربطوهم بالاسلام بواسطة الفتوحات والغنائم .

الجهاد ونظام الاراضي المفتوحة . ــ ونشر الاسلام بواسطة

السلاح هو واجب ديني : فالحرب عادلة لان من اهدافها هداية الناس الى الدين الصحيح . ولولا قليل لكان الجهاد احد فروض الاسلام الاساسية . والقرآن مثلاً يأمر بهداية الناس الى سبيل الله « بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن » (القرآن ١٦ ، ١٢٦)؛ ولكننا من ناحية اخرى نجد فيه الامر بقتل الكافرين (٤٧ ، ٤) والمحاربة في سبيل الله (٢ ، ٢٤٥) . ويبدو ان محمداً لم يتصفح بشكل واضح نتائج الحرب المقدسة ؛ ولكن المفهوم المسيطر ما لبث ان تقرر بعد وفاته (قتال دائم ضد غير المسلمين الى ان يخضعوا للاسلام) . والجهاد نظرياً هو فرض على جميع المسلمين الذكور ، الاحرار ، الاصحاء الجسم والروح ، المالكين ما يلزم للمعركة من عدة. وهو واجب ليس شخصياً بشكل صارم بل يمكن اعتباره قد نُفّذ حين يقوم به عدد من المسلمين .

فما هي اذن قواعد الجهاد ..؟ انه اجباري ضد الشعوب المجاورة لارض الاسلام (تحويل دار الحرب الى دار السلام) . وبين هذين الطرفين تقع الارض التي تدفع الجزية للاسلام (دار الصلح) . وهذا مفهوم وسيط ظل موضع جدال .

ويجب دعوة الكفار الى الاسلام قبل كل عمل عدواني . فاذا اجابوا الدعوة يصبحون منذ ذلك الحين جزءاً من الجماعة (الامة) ولهم نفس الحقوق التي للمسلمين . ولكن ارتدادهم يعاقب عليه بالموت .

واذا رفضوا اعتناق الاسلام فهناك حالتان : اما ان يفصل السلاح بينهم وبين المسلمين (الفتح عنوة) ؛ واما ان يدفعوا

ضريبة الحماية التي يمنحهم المسلمون اياها (الفتح صلحاً) .

ففي الحالة الاولى (الفتح عنوة) يتقرر قبل كل شيء التمييز بين الاشياء المنقولة التي اكتسبت بالقتال (الغنيمة) وبين الممتلكات المنقولة وغير المنقولة ، وخصوصاً اراضي المملكة التي لم تفتتح فعلاً بقوة السلاح ولكنها آلت الى المسلمين بواسطة الفتح(الفيء). وتوزع من الغنائم اربعة اخماس بين جميع الذين حضروا المعركة ، ويأخذ الفرسان دائماً حصة اكثر اهمية من حصة المشاة . اما الخمس الاخير فهو « حصة الله » وفقاً لآية نزلت بعد وقعة بدر بقليل (٨ ، ٤٢٠ والصحيح ٨ ، ٤١) : « واعلموا انما غنمتم من شيء فلله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... » واسرى الحرب يشكلون ايضاً قسماً من الغنيمة يكون لرئيس الجماعة الاسلامية ، الامام ، السلطة الكاملة عليهم : استرقاق ، او اطلاق سراح او موت .

أما الحالة الثانية ـ الفتح صلحاً ـ فان محمداً نفسه ميز في الفتح بين الوثنيين من جهة ، وبين اليهود والنصارى اصحاب الكتب المنزلة من جهة اخرى ؛ وهي كتب، رغم نسخها بالقرآن ، كانت تحقق لهم ميزة كونهم معتبرين من « اهل الكتاب » ويؤمنون بأحد الانبياء (مثلا القرآن ٥ ، ٥١ ـ والصحيح الآية ٤٧) : « وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون » . وبهذا اللقب منحهم محمد ، بعد خضوعهم ، حرية ممارسة دينهم مقابل دفع ضريبة . وفضلاً عن ذلك فقد اعتبر « اهل كتاب » اتباع زرادشت الذين لقيهم المسلمون في البحرين،

ثم السامريين في فلسطين ، ثم صابئة حران ، في خلافة المأمون (القرن التاسع) الذين نجحوا في اعتبار انفسهم من ذرية الصابئة الاسطوريين الذين تكلم القرآن عنهم (مثلاً ٢، ٥٩ ــ والصحيح ١ ، ٦٢ : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ») . وقد امتد هذا التساهل فيما بعد ، في القرن الرابع عشر ، الى الصينيين . ان جميع هؤلاء الذين اصبحوا تحت الحماية كانوا اذن من اهل الذمة .

وفيما عدا هؤلاء الذميين فان جميع الناس من غير المسلمين كانوا دهريين او وثنيين ، وكان لهم مبدئياً الاختيار بين الموت او اعتناق الاسلام . اما فعلياً فان هذا التمييز قد اختفى بسرعة واصبحت (الذمة) سارية على جميع الذين يخضعون لموجباتها (كبعض وثني الهند) . فما هي اذن هذه الموجبات ..؟

على السكان الذكور في البلدان المحتلة ان يدفعوا جزية للاسلام مقابل حرية ممارسة دينهم . وضريبة التساهل هذه اقرها القرآن (٩ ، ٢٩) : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون » . وتحدد قيمة هذه الجزية بموجب معاهدة ، ويعفى منها النساء والاطفال والشيوخ العاجزون عن القتال ، وكذلك العبيد ، والرهبان أيضاً حين يكونون فقراء . وهذه الضريبة يجب ان تؤدى فضة ،ويمكن ان تكون ايضاً عينية (باستثناء النبيذ ، والحيوانات الميتة او غير

المذبوحة) . وليس هناك عقوبات جسدية للعاجزين عن الدفع ، بل السجن .

ومن ناحية اخرى فان الذمي يدفع عن امواله الثابتة التي يحتفظ بهـا لاستثمارها ، او عن كل ملكية اخرى ، ضريبة عقـارية (خراج) ، وهي ضريبة كانت موجودة قبلا في المناطق الخاضعة للسيطرة البيزنطية والفارسية . وقد فرضت تحت شكـل تسليمات عينية ، ثم جعلها الولاة المسلمون بعد ذلك نقدية .

واخيرا فـان الذميين كانوا خاضعين لبعض الواجبـات والممنوعات : مساهمة في نفقة الجيوش الاسلامية ، شعـارات وملابس خاصة ، المنع من ركوب الخيل وحمل السلاح ، المنع من بناء معابد جديدة والاحتفال بها علانية : وشهادتهم لم تكن ذات قيمة في المحكمة . ومقابل ذلك فقد كانوا من النـاحية القانونية يتمتعون بالحماية في اشخاصهم واموالهم كالمسلمين تماماً .

وعبارتا الجزية والخراج اللتـان تدلان على الضريبتين اللتين يدفعهما الذميون كانت احداهما تستعمل مكان الاخرى احيانا في عصور الاسلام الاولى . وقد أقر التمييز بينهما تماماً بعد ذلك . فالخراج (الضريبة العقارية) هو الذي يغذي الخزينة العامة بشكل اساسي ، وعلى الخصوص ابتداء من الفتوحات الكبرى في ايام عمر الذي وزع الغنائم المنقولة بين الفاتحين ، ولكنه ترك الارض المحروثة لشاغليها الاولين مقـابل غرامة ظلت مفروضة عليهم حتى بعد اسلامهم ، وربما كان ذلك لايجاد الضرائب او لمنـع المحـاربين من النوم على الاراضي المفتوحة . والشرط الاخير ـ

إبقاء الغرامة بعد الاسلام ـ جعل اختفاء الخراج بطيئاً . وبالفعل فقد تضاعف الدخول في الاسلام مع الزمن ، واضطرت السلطات ان ترضى باعفــاء المسلمين الجدد من الخراج على ان يدفعوا فقط الضريبة المفروضة على المسلمين من اصل عربي . وقد رأينا قبلا ان الخلفاء الامويين ، باستثناء الخليفة الورع عمر الثاني ، كانوا على العموم ينظرون نظرة سيئة الى هذا الدخول في الاســلام . فعدا عن كونه يحدث في الغالب لمنفعة شخصية في المناطق الزراعية على الخصوص فانه كان يخفض كثيراً من مداخيل الخزينة العامة . ومن عثمان الى معاوية مثلا نقص نتاج ضريبة مصر الى النصف على اثر اعتناق الاقباط الاسلام .

ومبدأ الخزينة العامة (بيت المال) كان قد وضع في حياة محمد نفسه: فقد انشئت سجلات للاحوال الشخصية ، وأقرت حقوق المسلمين في ارباح الفتوحات وفقاً لأقدميتهم ، ومن هنا جــاءت أهمية الانساب . واتسعت ادارة الجباية حينذاك اتساعاً ملحوظاً : انه نوع من الثورة الاجتماعية احتلت مكانها بين الاسبــاب التي أدت الى مقتل عثمان . وبكلمة واحدة فان مال الله قد تحول سريعاً الى مال المسلمين . وبتأثير الادارات البيزنطية والفارسية تنظمت الخزينة العامة وتطورت .

ونظرياً فان الامام هو الذي كان يدير الخزينة العامة ، وهو الرئيس الروحي والزمني للجماعة الاسلامية ، واحيــاناً بواسطة ممثله . وكانت مصادر دخلها هي الجزية والخراج اللذان يدفعهما الذميون ، ومن ناحية اخرى الزكاة (ضريبة الاحسان) ، وهي

« جسنة » شرعية يدفعها المسلمون وتسمى العشر ايضاً حين تؤخذ من عائدات الزراعة (اما الاراضي البور فهي للامام) . وفضلا عن ذلك فهناك ضريبتان فرعيتان : الخمس المفروض على المعادن والكنوز التي يعثر عليهـــا الخ .. وحقوق الخزينـــة في قسم من الارث بسبب عـــدم وجود ورثة قريبين . وسنرى فيما بعد ان الزكاة والخمس كانا يستعملان وفقاً لقواعد مقررة ، نظريا عـــلى الاقل .

وهذه الضرائب رفعت بواسطة حكام المقاطعات الذين كان كثير منهم في الاصل يقودون المعارك الاقليمية . وبالفعل فقد اوجب امتداد الفتـــح تنظيم مراكز حربيـــة في مختلف اجزاء الامبراطورية . وقد عد المسعودي المؤرخ ، في احدى مؤلفاته ، سبعة امصار اسسها المسلمون : البصرة وقد تأسست في بدء الفتح الفارسي (نحو عـــام ٦٣٥) ، وكذلك الكوفة ، والفسطـــاط (القاهرة القديمة) نحو عام ٦٤٠ ، والرملة في فلسطين ، وواسط في العراق في بدء القرن الثامن ، وبغداد التي اسسهـــا المنصور الخليفة العباسي نحو عام ٧٦٢ ، وسامراء التي اسسها المعتصم نحو عام ٨٣٥ .ويقول المسعودي ان هذا الخليفة هو اول من اتخذ المرتزقة الاتراك لخدمته ، وقد ترك بغداد لان سكـــانها كـــانوا يتضايقون من وجود هؤلاء الغرباء . وسكن سبعة خلفـــاء في سامراء ــ مقر الخليفة ــ الهامة جداً في دراسة الفن الاسلامي .

وفي بعض المنـــاطق ، وعلى الخصوص تلك التي اخذت من البيزنطيين ، فان التنظيم الحربي لم يعدّل : ففي سوريا مثلا كان

هناك خمس فرق (اجناد) نظمت على النسق البيزنطي وتضم فلسطين والاردن ودمشق وحمص وقنسرين . وكذلك فقد نظم هارون الرشيد جنداً في كيليكيا .

التنظيم الاداري . ــ ان قيادة الجهاد وتنظيم الاراضي المفتوحة هي بالتحديد من واجبات الخليفة . والخليفة يجب ان يكون قرشيا ، وهو السيد المطلق ، والتمرد عليه يعني وفقاً للتقليد التمرد على الله . وقد اختير بالانتخاب ، نظرياً على الاقل . وقد احتفظ هذا المبدأ بأثره حتى في ايام الخلافة الوراثية ، وذلك بواسطة البيعة التي تعطى للخليفة عند اعتلائه سدة الخلافة . ومختصر القول فان الخليفة هو نائب النبي والامين على الشريعة .

ولقب الخليفة (والصحيح خليفة رسول الله) حمله الرئيس الروحي والزمني للجماعة منذ عهد عمر . وأعطي اسم خليفة فيما بعد ، وبسبب اتساع المعنى ، الى رؤساء الطرق الدينية ، وللموظفين أيضاً (المغرب) .

وقد اضاف الخليفة الى رتبته الكبيرة كخليفة للنبي رتبة القيادة العليا للجيوش الفاتحة (ومن هنا جاء لقب امير المؤمنين الذي اختاره عمر) . وله من ناحية اخرى رئاسة الصلاة العامة (الامامة) . وحقيقة القول فان الامويين كانوا امراء المؤمنين اكثر منهم أئمة ، مع ان كثيراً منهم اعتادوا رئاسة الصلاة : وكانت دراسة القانون الديني في عصرهم محصورة بالمدينة ،ولكن بعد تسلم العباسيين السلطة انتقلت هذه الدراسة من المدينة الى بغداد . وبينما كان الخليفة الاموي هو رئيس الدولة بوجه خاص

فان الخليفة العباسي كان ملكـاً ـ حبراً اعظم ، يرتدي ملابس النبي (البردة والخرقة) ولا يترك اية فرصة دون ان يؤكد رسمياً قرابته له .

ولكن هذه الدرجة السامية كانت تعزل الخليفة عن رعاياه دون ان يشعر ، وتعزله عن الولايات ايضاً ، الامر الذي اتاح لهذه ان تفرط في استعمال حريتهـا وان تمتد . والدواوين ، وهي مبدئياً سجلات للحسابات كانت تدون باليونانية (سوريا ومصر) او بالبهلوية (بلاد فارس) ثم ترجمت واصبحت منذ ذلك الوقت تدون بالعربية منذ ايام عبد الملك ، وتشير في ايام العباسيين الى مكاتب الدوائر المالية والاملاك وديوان الحكومة وغير ذلـك . وكان الوسيط لا بد منه بين الامير وهذه العناصر المتنوعة ، وهذا الوسيط هو الوزير . وطريقة نظام الوزارة هذه تحمل في ذاتهـا بذرة الانحطاط : فالخليفة الذي يعتمد فعلا على وزيره ينتهي بان يفقد عادة السلطة . ويبدو ان تحويل الاعبـاء هذا الذي يعطي كاتباً بسيطاً وظائف الوزيرالاول وامتيازاته قد استفاد منه خالد (البرمكي) اول ممثل لسلالة البرامكـة الشهيرة في ايام الخليفة المنصور ، وقد كان لولده يحيى وزير هارون الرشيد سلطات غير محدودة ، حيث حكم الامبراطورية بالفعـل طوال سبع عشرة سنة .

إلا انه يجب الا نعتقد بوجود مركزية نظامية . فالمقاطعـات كانت تحتفظ باستقلال اداري ومالي واسع معزز بتحسين البريد الذي اخذ الامويون مبادئه من البيزنطيين والفرس . وقد اصبح

مديرو مراكز البريد المعينون من قبل الخليفة او الوزير عمال استخبارات شيئاً فشيئاً، وكان على حكام المقاطعات ان يحذروهم احياناً .

ولم تكن الادارة هي الوحيدة التي استفادت من هذه الخدمات البريدية ، فالتجارة ايضاً وجدت فيها منفعتها . وقد اصبحت البصرة مثلا في ايام العباسيين ليس مركزاً للفعالية اللاهوتية والفلسفية فقط ، بل متروبولا تجارياً ايضاً ومركز استيراد لمنتوجات الشرق الاقصى (حرير ، توابل ، اخشاب ثمينة ، عاج) ، ومركز تصدير الاواني الزجاجية ، والتمور ، والسلاح والاقمشة ، والطنافس ، والجوهرات التي تتدفق نحو الغرب . اما فيما يتعلق بالتجارة البحرية فقد رأينا الاغالبة قبلا يشقون البحر المتوسط . وفي القرن التاسع كانت للاساطيل الاموية الاسبانية مرافىء استراحة على شواطىء فرنسا ، كما كان للاغالبة مرافىء على شواطىء ايطاليا ، وفي البحر المتوسط الشرقي طرد العرب البيزنطيين واصبحوا وسطاء بين اوروبا وآسيا واصحاب تجارة شلّتها الانقسامات العنصرية والسياسية مع الزمن.

ومن ناحية اخرى فان البوليس الذي انشأه الامويون قد نما مع الامبراطورية. فقد انضم الى مدير البوليس (صاحب الشرطة وقائد العسس الذي سمي والياً فيما بعد) مفتش (محتسب) مكلف بالسهر على الطرق العمومية والنظافة والاخلاق والموازين والمكاييل (ان السورة ٨٣ من القرآن تلعن الغشاشين) .

واخيراً ، بما ان الخليفة كان يفوض امام المقاطعة برئاسة

الصلاة فقد فوض ايضاً للقاضي القيام بسلطاته القضائية . وهاتان الوظيفتان كانتا محصورتين تارة بمحاكم المقاطعة ، وطوراً بموظفين يعينهم الخليفة مباشرة . والقاضي يجب ان يكون متعلماً صالحاً ويجب ان يعرف معرفة متقنة المجموعات القضائية للمذهب المكلف بتطبيق احكامه. وعدا قانون الدعاوى، عليه ايضاً ان يدير اموال القاصرين وفاقدي الاهلية ، واموال الموتى . وبكلمة واحدة عليه ان يفصل بجميع الدعاوى المدنية والجنائية . ولكن الادارة القضائية كانت بالفعل مزدوجة بشكل دائم ، فهي علمانية واكليركية في العالم الاسلامي . وجميع القضايا التي لا تتعلق بالقانون الديني كانت خارجة عن نطاق وظيفة القاضي . وهنا يأتي مجال النظر في ماهية الاسس التي يرتكز عليها القانون الاسلامي .

تعليق العلامة محمد جواد مغنية

(راجع صفحة ٦٧)

١ ــ ذكر اهل التراجم والسير ان الحسن كان اعبد الناس وازهدهم في المال . واتفق المؤرخون جميعاً ، ومنهم اليعقوبي والطبري وابن الاثير وغيرهم على ان الجيش الذي تجمع لحرب معاوية مع الحسن انتقض عليه ، ووثب به ، وانتهب مضاربه حتى انتزعوا البساط من تحته ، وطعنوه في فخذه ، وناداه الناس من كل جانب : « البقية البقية وامض الصلح » ، كما في رواية ابن الاثير ، فلم ير بدا من التسليم ، والحال هذه ، وبماذا يقاتل اذا كان اصحابه حربا عليه لاعلى عدوه ؟ ! وكان اصحاب معاوية وجيشه يداً واحدة ، واطوع له من بنانه ، فالصلح لا مفر منه ، سواء أقاتل ام لم يقاتل . وما دام الامر كذلك فمن الخير ان يحقن الدماء ، وان يملي هو شروط الصلح على معاوية قبل ان يمليها معاوية عليه . واذا تأملنا هذه الشروط وجدناها اشبه بشروط الغالب على المغلوب ، فقد اشترط عليه ان يعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وان لا يبايع احداً من بعده ، وان يترك سب ابيه ، وان يكون الناس آمنين حيث كانوا من ارض الله ، وان لا يأخذ ما في بيت مال الكوفة ، وكل هذه المواد على معاوية ، وليست له ، واذا لم يف بها فقد لزمته الحجة ، واثبت على نفسه بنفسه الخيانة وعدم الاهلية للحكم والسلطة على الناس .

محمد جواد مغنية

الفصل الثالث

أسس القانون

١ ـ القرآن

القرآن هو توراة الاسلام . فماذا تعني كلمة قرآن ..؟ لقد تناقش العلماء المسلمون في لفظها ، واصلها ومعناها : (قرآن) مشتقة من الجذر العربي « قرأ » والاكثر تواتراً: « تلا ، انشد ». وبعبارة اخرى فانه الوحي الذي تلقاه محمد من الله ثم اوضحه . وكتاب الاسلام المقدس يسمى احياناً « الكتاب » او « الذكر ».

ويقسم القرآن الى ١١٤ فصلا يحمل بالعربية اسم « سورة ». وهذه الكلمة ، ذات الاصل غير الواضح ، تعني في اول الامر « وحي » ثم « مجموعة من الوحي او شذرات من الوحي » . وهي تظهر في بعض آيات القرآن حيث دعي المشركون لصنع سورة او عدة سور من مثله (٢ ، ٢١ ؛ ١ ، ٣٩ ؛ ١١ ، ١٦) .

وحيث يعلن الله انه انزل الآيات في سورة (١،٢٤) ، وحيث تفرض السورة على المسلمين اتباع نبيهم الى الحرب (٨٧،٩) .

اما من ناحية تلاوته فان القرآن قسم بعد ذلك الى ثلاثين جزءاً او الى ستين حزباً . وآيات القرآن البالغ عددها ٦٢١١ تعادل تقريباً ثلثي آيات العهد الجديد . ويصبح القرآن اقصر من ذلك لو حذفنا الترديدات العديدة التي لا يمكن تجنبها ـ والتي هي ضرورية ايضاً ـ في كتابة من هذا النوع . وقد قال لانبول Lane-Poole بحق : « لو القينا القصص اليهودية والترديدات جانباً لامكن جمع النصائح الزمنية، والطلبات الشخصية وخطابات محمد في حيز صغير جداً . »

محمد والوحي . ـ ما هو الاصل الذي يعزوه محمد للوحي ؟ لقد قال عنه انه صادر عن كتاب سماوي « ام الكتاب » (القرآن ١٣ ، ٣٩) يمسه المطهرون فقط . وقد عرف محمد نفسه من هذا الكتاب بعض الاجزاء التي اوحيت اليه باللغة العربية .

اما الطريقة التي حدث فيها هذا الوحي فان القرآن لا يحتوي الا على اشارات غامضة ، وما من شك في ان محمداً لم يصرح بوضوح حول هذه النقطة، اما الثابت فهو ان الله قد سلمه بواسطة « روح » قدمه محمد كملاك ويدعى جبرائيل . وهذا الروح قد اوحى قبلا لاسلاف محمد : « وآتينا عيسى ابن مريم البينات ... وأيدناه بروح القدس » (القرآن ٢ ، ٨١ ، ٢٥٤ ـ والصحيح ٢ ، ٨٧). اما محمد نفسه فان الله امره ان يعلن ذلك للمشركين: « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى

وبشرى للمسلمين » (القرآن ١٦ ، ١٠٤) .

ومن الراجح ان محمداً لم يطلق في بادىء الامر اسماً على الروح الذي يلهمه. وقد وصف ظهوره دون ان يسميه في مقطع من اجمل مقاطع القرآن (القرآن ٥٣) يعود الى الدور الاول ، ولم يطلق عليه اسماً الا في جزء من احدث اجزاء القرآن (٢ ، ٩١) .

ووفقاً للتقاليد فان محمداً تلقى في بادىء الامر نوعاً من الدوي، فصار كأنه مصاب بالحمى، وشحب لونه ، وارتجف وتدثر بدثار. وهناك بعض من المؤرخين المتأخرين ، والبيزنطيون منهم على الخصوص ، تحدثوا عن الصرع الذي يمكن ان يكون محمد مصابا به . ومن المعلوم في القرون الوسطى ، في الشرق كما في الغرب ، ان هؤلاء المرضى كانوا يعتبرون كأن روحاً يمتلكهم . وقد اصبحت الفورانات عند محمد مألوفة كثيراً ابتداءاً من الوحي الاول الذي حدث في شهر رمضان (القرآن ، السورة ٩٧) . ولهذا السبب اختير هذا الشهر فيما بعد كشهر للصوم .

ويؤكد التقليد ان محمداً في بدء رسالته وقبلها ايضاً كان يكثر من الصوم ويقضي الليل بالصلاة في اغلب الاحيان ؛ فاذا كان هذا العمل صحيحاً ــ وهو موضع مناقشة ــ فان الصوم ، وقد اضعف جسمه ، يمكن ان يحدث رؤى في الليل على الخصوص . وهناك ليلة من الليالي الاكثر شهرة هي ليلة اسراء محمد . فقد اركبه الملاك جبرائيل ، اثناء نومه ، على حيوان اسطوري اسمه البراق ، وهو نوع من السنتور الانثى حمله نحو اورشليم وحبرون وبيت لحم حيث التقى بابراهيم وموسى والمسيح ؛ وقد اصبح

هذا الاسراء قضية مفضلة عنـــد الشعراء والمزخرفين المسلمين ، وارتبطت به احدى المعجزات المنسوبة الى النبي : العلامة (القدم الشريف) التي رسمها قدمه في صخرة مسجد اورشليم عندما اعتلى البراق ، وهي علامة يريد المؤمنون ان يجدوها في اماكن اخرى من العالم الاسلامي .

وما من شك في ان القرآن لا يمكن ان يكون كله من نتـــاج الانخطاف الروحي لان هـــذا الانخطاف يفترض هياجاً عنيفاً لا يتيح الا صدور كلمات او عبارات متقطعة . ومن الممكن القبول ان الاجزاء الاكثر قدماً تعرضت لبعض التعديلات ؛ ولكن من المستحيل اثبات ذلك ببرهان قاطع . ومن صفات القرآن الاساسية مظهر التجزؤ هذا . وهذا التفكك الواضح جداً مشتق بوضوح من الطريقة التي يوحى بها الى محمد : فاذا انتقل في غالب الاحيان من موضوع الى آخر دون ان يكون هناك علاقة فان ذلك يحدث بسبب ان وحي محمد هو الذي اوجب ذلك بصورة رئيسية ، في مكة بسبب هجمات خصومه، وفي المدينة بسبب الظروف السياسية وغيرها . وفضلا عن ذلك فاننا نجد بوضوح في القرآن نفسه(٣،٢٥) تمييزاً بين الآيات ذات المعنى الثابت والآيات التي يمكن ان يكون لها معان عدة . وهناك ايضاً وحي ينسخ ليس فقط مفاهيم اديان سابقة للاسلام بل ايضاً آيات قرآنية تلاها محمد قبلا : « ما ننسخ من آية او ننسيها نأت بخير منها او مثلها الم تعـــلم ان الله على كل

شيء قدير » (القرآن ٢، ١٠٠ ـ والصحيح ٢، ١٠٦) . وبكلمة، فان الله لا يتردد في العودة الى ما امر به . وهذه الخاصة فسحت مجالا لولادة مكتبة من التفسيرات وشروح الآيات القرآنية الناسخة والمنسوخة .

ومع ذلك فان محمداً يرى ان دينه خرج من نفس المصدر الذي خرج منه الدينان اليهودي والمسيحي . فالاديان الثلاثة منبثقة مباشرة من كتاب سماوي واحد . والقرآن أنزل « بلسان عربي مبين . وانه لفي زبر الاولين » (القرآن ٢٦ ، ١٩٥) . وهو يؤيد شريعة موسى ، وانجيل المسيح ، ومزامير داود . ومما لا شك فيه ان محمداً لا يعرف هذه الكتب المقدسة معرفة مباشرة : وفضلا عن القرآن (٧ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ؛ ٦٢ ، ٢) فان التقاليد تقدمه كأمي لا يستطيع القراءة في نصوص الكتب المقدسة . وهذه الوحدة بين الاسلام والاديان السابقة يصرح بها دون تحديد طوال اقامته في مكة . اما في المدينة فقد خفف منها ، وبالفعل ، ووفقاً لأجزاء القرآن التي يعود تاريخها الى هذا الدور الثاني من حياته ، فان اليهود والمسيحيين لم يتلقوا سوى قسم من الكتاب . والأسوأ من كل ذلك انهم حرفوا كلماته (القرآن ٤ ، ٤٨) : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » (٥ ، ١٨) . ومما لا يقبل الجدل ان القرآن يعكس بطريقة غير مباشرة، تقل او تكثر، تأثير مذاهب مشتقة من اليهودية او من المسيحية ، وهي مذاهب كانت متعددة يومذاك في

بلاد العرب .

ولكن محمداً في بدء رسالته تعرض كثيراً لتأثير الوثنية العربية التي كان يبغي التخلص منها. ونسق انشاء القرآن نفسه ، والمؤلَّف من جمل موزونة بشكل غير منتظم ومسجوعة احياناً فيما بينها (هناك بعض الآيات في ثلاث سور تتكرر كلازمة . راجع دراسة ب . جوس البديعة عن التوراة) . ان هذا النسق الانشائي ، كما رأينا لا يخلو من مشابهة مع السجع ، ذلك النوع من النثر حيث الكلمات بمجموعها تعود في مسافات منتظمة . وهو شكل من اشكال البيان سبق الشعر المنتظم (وقد اتى المؤرخون العرب ببعض الامثلة منه) . انها مشابهة في الظاهر فقط لان السجع الحقيقي يتطلب وضوحاً موقّعاً ومتناسقاً لا نجده في القرآن . وهذا السجع الذي تغير كثيراً ، والذي سيعود فيما بعد الى الظهور في الادب العربي ، كان في الاساس هو الشكل للغة التي يستعملها الكهان الوثنيون . وهناك من جعل تقاربا بين الكاهن العربي والكاهن عند العبرانيين ، ولكن المشابهة ليست الا سطحية : فالثاني هو بشكل اساسي مقرب الذبائح ودكتور في العلوم الدينية بينما الاول هو عراف في الاساس كان دوره متفوقاً في ايام الوثنية العربية ؛ وكان يستشار في جميع الاعمال الهامة : الحروب التي يقودها احيانا ، والمنازعات ، والبحث عن الحيوانات او الاشياء الضائعة او المسروقة ، واكتشاف المجرمين. ورؤى الكاهن ذات اصل مؤذٍ لان الشيطان هو الذي يوحي اليه (ومحمد لم يتحدث عن شيطان بل عن روح)؛

ويتكلم الكاهن بشكل غامض مع ايمان مرتكزة على ظـــاهرات الطبيعة : انها نقطة احتكـــاك جديدة بالقرآن حيث تحتوي اقدم اجزائه على عدد من الايمان من النوع نفسه .

نثر موقع ، توسط روح غـــامض ، كثرة الايمـــان . ويجب الاعتراف ان خصوم محمد كان لهم بعض الحق في اعتباره ككاهن او كشاعر ، الامر الذي يعود تقريباً الى الشيء نفسه لأن الشاعر الوثني يلهمه شيطان هو ايضاً . ومن ناحية اخرى فان محمداً قد منع الشعر (القرآن ٥٢ ، ٩ ؛ ٦٩ ، ٤٢ ؛ ٨١ ، ٢٢) ، واعلن انه عدو الشعر (٢٧ ، ٢٢١) . وهذا لم يمنعه من اغتنام الفرصة للاستفادة من مواهب الشعراء .

وشاء بعضهم ان يرى في لغة القرآن لغة عامية نقحت فيما بعد. ان هذا الرأي لا يثبت للامتحان . اما فيما يتعلق بانشاء القرآن فهو تارة عنيف وطوراً هـــادىء ؛ انه انشاء خطيب اكثر منه إنشاء شاعر . وهو يتنوع وفقاً لازمنة الوحي ، وهذه التنوعات نفسها ، وسنراها فيما بعد ، تتيح لنا اثبات تأريخ تقريبي جدا للسور .

تثبيت نص القرآن . ــ عند وفاة محمد لم يكن هناك اية مجموعة للنصوص القرآنية قررت بشكل نهائي . وما من شك في ان عدداً من مجموعة الوحي الاول لم تكن قد حفظت؛ ولكن شذرات هامة كانت قد سجلت كتابة على عظام مسطحة ، واوراق نخيل او حجارة : وبسبب الاهمية التجارية للمدن المقدسة كـــان عدد من سكانها يعرفون القراءة والكتابة دون شك ، وتسرد التقاليد اسماء الاشخاص الذين قـــاموا بوظيفة الكتابة للنبي : أبي بن كعب ،

وعبدالله بن ابي سرح ، وزيد بن ثابت بشكل خاص ،

ويعود فضل جمع هذه الشذرات المبعثرة للمرة الاولى الى ابي بكر خليفة محمد ، او الى عمر الذي اشار عليه بذلك . وفي السنة الحادية عشرة والثانية عشرة للهجرة فان عدداً من الناس الذين كانوا يعرفون الآيات القرآنية غيباً قد ماتوا في الحرب ضد النبي الكاذب مسيلمة . وقد خاف عمر حينذاك ان يختفي النص المقدس بكامله فحمل ابا بكر على جمع الوحي . وتردد ابو بكر اولاً في ان يقوم بعمل لم يحدثه النبي عنه ، ولكنه امتثل ودعا الفتى زيدا بن ثابت : وهذا جمع بدوره كل ما وجده مكتوبا على مختلف المواد وكل مـــا احتفظ به رفاق النبي في ذاكراتهـــم ، ثم صنف هذه الشذرات ونسخها في صحف واعطاها لابي بكر .

وهذا الجمع الاول لمخطوط القرآن لم يكن ذا صفة رسمية بـــل كان فقط مشروعاً خاصـــاً من ابي بكر وعمر ، ولكنه اكتسب اهمية كبرى بعد بضع سنوات وذلك عند تثبيت النص القـــانوني للقرآن في ايام الخليفة عثمان .

وبعد وفاة ابي بكر اصبحت هذه المخطوطات الاولى التي قام بها زيد في حوزة الخليفة عمر الذي عهد بهـــا الى ابنته حفصة ، ارملة النبي ؛ وهذا العمل سيؤكد عند الحاجة الصفة النـــافعة لهذا الجمع الاول للقرآن . ولكن من المقبول به ان هناك مجالا التميز بين جمع المواد التي تؤلف الصحف وبين الكتابة الحقيقية المنسوبة الى زيد ـــ الكتابة المرتكزة على الصحف . وفي هذه الحالة فان هذه الصحف ، وقد انتفع بها ، فقدت اهميتهـــا وأودعت لدى

حفصة ارملة النبي كتذكار بسيط .

وفضلا عن ذلك فان كتـــابة زيد هذه لم تكن وحيدة : فقد عزيت بعض الكتابات الخاصة الى اربعة من رفاق محمد هم : أبي بن كعب ، وعبدالله بن مسعود ، وابو موسى عبدالله الاشعري ، والمقداد بن عمرو . وهذه الكتابات كـــانت تمثل اختلافات في التفصيل لا نرى من لزوم لذكرهـــا . اما ما يهمنا فهو ان هذه الاختلافات تولد منها انقسامات بين المؤمنين . فقد تبنى اهـــالي دمشق اولى هذه الكتابات ، وتبنى الثانية اهالي الكوفة ، والثالثة اهالي البصرة : والرابعة اهالي حمص . وهكذا اصبحت المنازعات الخطرة تهدد الاسلام . وتقول التقاليد ان القائد حذيفة اشار على الخليفة عثمان (نحو عام ٦٥٠) ان يقرر نصاً نهائياً للقرآن. وهكذا دعا عثمان زيداً بن ثابت كاتب المخطوط الاول وضم اليه بعض القرشيين كمساعدين .

ويمكن الافتراض انه كان لعثمان هدف سيـــاسي بعمله هذا يعادل الهدف الديني . فقد وصل الى الخلافة بجهد ، وكـــان ان عزز مركزه بإقراره نصاً لا يتغير للكتاب المقدس . وقد صنع منه عدة نسخ حفظت واحدة منها في المدينـــة واصبحت النسخة النموذجية ، « الامام » ، وارسلت النسخ الاخرى الى الكوفـــة والبصرة ودمشق ـ الى المدن التي يوجـــد فيها حاميات او التي يتمسك اهلها بواحدة من النسخ المتباينة التي اتلفت على الاثر . وتؤكد التقاليد ان عثمان كتب بيده احدى هذه النسخ ـ وفي هذه الحالة تكون هذه النسخة هي نسخة المدينة ، ولكن الراجح هو

انه ترك هذا الامر لزيد .
وهذا القرآن الرسمي يضم ، وفقاً للتقليد ، سورتين اقل من مخطوط ابي ، وسورتين اكثر من مخطوط ابن مسعود. وعدا ذلك فهناك بعض الفروق في الاملاء والكلمات تفصل بين النسخ .
ولكن سؤالاً اكثر اهمية يفرض نفسه : هـل تحتوي نسخة عثمان على مقاطع مختلقة ؟
لقد رفض الخوارج مثلاً السورة الثانية عشرة ، معلنين ان اللهجة الغرامية لقصة يوسف والمرأة المصرية تجعلها متنافرة مع كتاب مقدس ! ويعتقدون بالتأكيد ان وحياً من هـذا النوع لا يأتي من الله. ولكن مع ان قسماً من السورة فقط قد خصص لهذه القصة فان التقليد يؤكد انها موجودة في اقـدم النسخ الخاصة ؟ يضاف الى ذلك ان نولدكه يلاحظ بحق انها تتلاءم مع بقية القرآن من ناحية اللغة والنسق الانشائي .
ومن ناحية اخرى فان الشيعيين يؤكدون ان المقاطع التي تتعلق بعلي وعائلته قد حذفت[1] بأمر عـثمان . ويستندون في ذلك الى عدم تلاحم بعض المقاطع ، ويعتبرون ان النص الاصلي قد انتقل سراً من كل امام الى خلفه ، وسيظهر في النهاية عند ظهور الامام المختفي .
وما من شك ــ ويجب تكرار ذلك ــ في ان القرآن كما وصل الينا لا يتضمن الوحي كله ؛ ومقابلِ ذلك فقـد ظهرت له بعض

---

١ ــ راجع تعليق العلامة محمد جواد مغنية في آخر هذا الفصل. (ص ١٣٦)

الاضافات التفسيرية والتذييلات (التي لا يستنتج منها شيء)، وكذلك تغيير مكان بعض الجمل. ولكن الامر لا يتعلق ابداً بتحريفات يعترض عليها المؤمنون: والخلاصة ان أقدم المؤرخين قد صمتوا حول هذه النقطة.

وهناك تسع وعشرون سورة تنتمي كلها تقريباً الى العصر الذي سبق الهجرة مباشرة، وتبتدىء بحروف مفردة لا تزال تحير مفسري القرآن من مسلمين وغيرهم. فالعلماء المسلمون بعد ان بحثوا لها عن ايجازات وجدوا فيها لغزاً لا يعرفه إلا الله وحده. وعاد بعض المستشرقين الى فكرة الايجازات هذه. وأراد آخرون ان يجدوا فيها الحروف الاولى لأسماء المالكين الأُول للنسخ التي كتبها زيد. اما عناوين السور فقد اعطيت لها فيما بعد، وكذلك التقسيم الى آيات فانه تقرر بعد ذلك.

ولا يجب الاعتقاد ان كتابة القرآن التي تمت بأمر الخليفة عثمان قد ظلت دون تغيير. وهذهالتغييرات تعود الىثلاثةاسباب رئيسية: الاخطاء التي ارتكبها الناسخون، ودروس النص المقدس القديمة التي احتفظ بهـا القراء والمرتلون المحترفون في ذاكراتهم رغم كل شيء، وعدم كفاية ووضوح الكتابة العربية التي تختلط فيهـا بعض الحروف بسهولة، والتي تخلو من اي حرف صوتي موجز (الامر الذي يمنع معرفة الفعل مثلاً اذا كان للمعلوم ام للمجهول). وزيادة على ذلك فان الامويين القليلي الاهتمام بهذه القضايا الدينية لم يعملوا على حذف مصادر الاختلاف هذه. وقد اصبحت هذه الاختلافــات بالتدريج مصدر قلق، وانتهوا في القرن العاشر

الميلادي ، وبعد شيء من التردد ، الى ان يضعوا نهائيـاً اساس النص الرسمي مستنداً الى حكم سبعة علماء مشهورين اضيف الى كل منهم اثنان من القراء المجربين . وهذا اختيار تحكمي الا انه اوقف المجادلات . وفي القرن الحادي عشر اعترف بحكمهم هذا تدريجياً . وقد بقي اثنتان قيد الاستعمال من هذه القراءات السبع، واحدة خاصة بمصر والاخرى بأفريقية الشمالية. ومن ناحية اخرى فان الكتابة قد تحسنت في النصف الثـاني من القرن الثامن وذلك بادخال اشارات صوتية كانت في اول امرها نقاطـا ثم خطوطاً تمنع كل خطأ في القراءة .

محتوى وتأريخ القرآن . ـ من المعـلوم ان ترتيب السور مؤسس بكل بساطة وفقاً لطول كل سورة. والسور الاكثر قصراً (وهي الاقدم) موجودة في نهاية القرآن . ولم يستطع زيد ورفاقه ان يرتبوا القرآن على اساس معنى الآيات لان صفة الوحي المتقطعة تعترض ذلك . ولم يستطيعوا التفكير بالترتيب التاريخي لان الوقت كان متأخراً لاثبات هذا الترتيب . وعلى كل حال فان الترتيب النازل وفقاً لطول السور فيه امران شاذان : فمن ناحية اولى نرى السورتين الاخيرتين (رقم ١١٣ و ١١٤ الناقصتين بالتأكيد من قرآن ابن مسعود) ليستا هما الاكثر قصراً ـ ومع ذلك فهما تمثلان صفة خاصة جداً لانهما ، والحق يقال، قواعد ضد الرقى المؤذية. ومن ناحية اخرى فان السورة الاولى (الفاتحة) قد وضعت على رأس الكتاب مع انها لا تعد سوى سبع آيات ، وقـد كان ذلك دون شك لان لهـا شكل الصلاة . وفضلاً عن ذلك فانهـا تنتهي عادة ، بعد ان ترتل ، بكلمة « آمين » ، الامر الذي

لا يحدث في السورْ الاخرى ؛ وقد أوحي ايضاً بوجوب تلاوتها في اغلب الإحيان (القرآن ١٥ ، ٨٧) .

ولكن هذا الترتيب ، الاصطناعي ، الذي تبناه زيد ورفاقه لا يستطيع ان يرضي النفوس المفكرة . فقد أكد الشارحون منذ زمن باكر وجود فروق شديدة بالنسق الانشائي في مختلف اجزاء القرآنْ ، وسجلوا بعض التلميحات الخفيـــة لبعض الحوادث في حياة محمد . وهكذا عرضت قضية تأريخ السور .

وما من شك في ان هذا التأريخ يجب ان يؤسس على بحث الاسباب التي انتجت الوحي . ولكن المعلومات الوجيزة تسبب الخطأ . ويبدو مع ذلك ان السورة الثامنة تتعلق بوقعـة بدر ، والسورة ٣٣ بوقعـــة الخندق ، والسورة ٤٨ بصلح الحديبية ؛ ويوجد في السورة ٣٠ اشارة الى الهزيمـــة التي انزلهـــا الفرس بالبيزنطيين نحو عام ٦١٤ . ولكن هذه المعطيات قليلة العـــدد وتتعلق بالدور المديني . وقد صرف الشارحون المسلمون همهم الى ان يكتشفوا في آيات القرآن المنفردة بعض التلميحات الى سلسلة من الحوادث التاريخية ؛ ولكن النتائج التي حصلوا عليها ظلت في غالبها موضع مناقشة .

والفحص المباشر للنسق الانشائي القرآني بـدا اذن حريـــاً بالافتراضات ذات الصفة التاريخية . وقام قبلا بعض الشارحين العرب بمحاولات في هذا الاتجاه : فالسمرقندي مثلا لاحظ ان مجموعة السور المكية ومجموعة السور المدينية يمثل كل منها تعبيراً خاصاً لمخاطبة المؤمنين (« ايها الناس ! » ثم « ايها المؤمنون») .

وبالاختصار فان قاعدة النقد للنص القرآني هي الآتية : يمكن تميز نوعين من النصوص ، النصوص المكية (السابقة للهجرة) ، والنصوص المدينية (بعد الهجرة) . وأساس الحكم هذا وان لم يكن مطلقاً ، الا انه اعطى نتائج مرضيّة .

أ ــ قبل الهجرة . ــ فيما يتعلق بسور الدور الاول فان التقليد يقدم معلومات قليلة جداً . وقد حدد تأريخ حياة النبي تحـديداً سيئـاً وخصوصاً فيما يتعلق بالسنوات التي سبقت الهجرة ؛ فابن هشام ، وهو أفضل مؤرخ لسيرة محـمد ، لا يعطي اي تاريخ . ولهذا كان من الصعب جداً توضيح تاريخ السور المكية . ولكن بعض الفكرات في القرآن تنتمي دون اي شك الى هـذا الدور الأول: فحين أكد محمد بحرارة بعث الموتى ووحدانية الله، وحين دافع بشدة عن نفسه انه ليس بشاعر ، وحين سفّه العادة الجاهلية التي تقضي بوأد البنات ، فان هذا يتعلق بوحي تلقاه في مكة . وهناك ملاحظة هامة : في أول الامر لم تكن فكرة محمد الرئيسية هي التصريح بالتوحيد ، ولكنه صرح باقتراب يوم الدينونة ، وهي فكرة مستعارة من المسيحيين على الارجح .

والمستشرق الالماني وايل Weil ، وقد حذا نولدكه حذوه ؛ اثبت وجود ثلاثة اقسام من السور الموحاة في مكة . مستنداً الى براهين متخذة من القرآن نفسه ، وخصوصاً المفردات والنسق الانشائي

أ ــ ففي القسم الاول ، وهو الاجمل من الناحية الادبية ، إنشاء بديع ملون بصور جريئة، وآيات قصيرة موقّعة تحتوي على

مواعظ بسيطة وقوية معاً ذات معنى غامض في الغالب ، وتتعلق بافكار وتلميحات لم نستطع ادراكها . وعدا ذلك فان هذا القسم الاول مطبوع بطابع كثرة الايمان المرتكزة عموماً على ظاهرات الطبيعة ، ولكن الكثير منها ظل لغزاً . انها ايمان أمر الناس بها ان يفكروا بسلامتهم . وهذه السور القصيرة ، المعبرة عن عواطف مشوشة ، لم تكن كلها مفهومة من معاصري محمد . والسورة السادسة والتسعون تعتبر اقدم واحدة بينها .

ب ـ وسور القسم الثاني اكثر هدوءاً . فقد بدأت الأيمان تختفي تاركة مكانها لصيغة « هـذا هو وحي الله » او لتوجيه الكلام فجأة ، « تكلم » المرسلة من الله الى نبيه . والتبشير بيوم الحساب ترك مكانه لاعلان التوحيد : فقد قطع محمد علاقته بعباد الاصنام . وطالت السور ، حيث توجد فيها بعض اشارات ، لا تزال غامضة ، الى قواعد السلوك او الطقوس ؛ وتلميحات عن الانبياء الذين سبقوا محمداً .

ج ـ ان تلك الاساطير المتعلقة بالانبياء قد تكاثرت في القسم الثالث من السور المكيـة : انعكاس مشوش لاساطير الماغادا اليهودية ؛ وهذه الاساطير تضم ١٥٠٠ آية تقريباً ، اي ربـع القرآن ؛ وهي ترمي الى ان تري المشركين كيف ان الناس القدماء الذين رفضوا الاصغاء الى الانبياء قد ضربهم الله . وهذا القسم الثالث ، المتخم بالكلام المردد ، والمكتوب بانشاء اقل تماسكاً ، والخطابي اكثر منه شعرياً ، هو القسم الاقل قيمة في الكتـاب ، رغم الفائدة الفولكلورية التي تمثلها الاساطير . وصيغ الأيمـان

الكثيرة في السور القديمة قد اختفت تماماً . وقد اشير فيها الى الله بكلمة « الرحمن » في الغالب ، وهي كلمة اختفت من السور اللاحقة؛ وفسر احد المستشرقين هذا الحذف بقوله ان محمداً كان يخاف ان يرى المؤمنون بكلمة « الرحمن » إلهاً غير الله . وفي معاهدة الحديبية رفض المكيون الصيغة المحتوية على هذا الاسم وتمسكوا بالصيغة القديمة « بإسمك اللهم » .

وخلاصة القول ان القسم الاول ذو نبرة شعرية موافقة للسنوات الاربع الاولى من رسالة محمد ؛ والقسم الثاني ذو النبرة النصف شعرية والنصف خطابية موافق للسنتين الخامسة والسادسة؛ والقسم الثالث ذو النبرة الخطابية يشمل السور الموحاة في السنة السادسة للهجرة ؛ هذه هي الاقسام التي وضعها نولدكه لاجزاء القرآن المكية . « اللوحات المرسومة بالوان حارة عن نهاية العالم ويوم الحساب ، والمواعظ التي تهيء لترك الكفر والحياة الدنيا ، والقصص عن مصير الشعوب القديمة وعن سلوكها حيال الانبياء الذين أرسلوا اليها، واثبات قوة الله الخارقة (بخلق العالم والتكوين البديع للانسان) ، وضعف الخليقة التي يستطيع ساعة يشاء ان يميتها ويحييها ، هذا ما تتضمنه اقدم اقسام هذا الكتاب المنزل » (غولد زيهر) .

ب ــ بعد الهجرة . ــ لم تظهر الاوامر بصورة حقيقية إلا في اجزاء القرآن الموحاة بعد الهجرة . وسور الدور المدني هذه هي عمل مشترع ديني وسياسي قد انتهى من التبشير بدينه فعكف على تنظيمه ، واضعاً القواعد الاساسية لمجتمع جديد . اما نسق إنشاء

هـــذه السور فلا يختلف ابداً عن نسق القسم الثالث من السور المكية، باستثناء الكلمات الجديدة التي ادخلت في الاوامر المتنوعة . والآراء منقسمة حول آخر آية موحاة : إلا ان كثيراً من المؤلفين متفقون انها الآية الخامسة من السورة الخامسة .

وفي الاساس فان التلميحات الى الحوادث المعاصرة لا تنقصه: هناك تذكير بالاحترام الواجب للنبي ولعائلته ، وثنـــاء على الذين ماتوا في سبيـــل الله ، وحملة على المرائين ، وحملة على الثالوث المسيحي (القرآن ٢٤ ــ ١٦٩ ــ والصحيح ١٧١) : « ... انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الارض وكفى بالله وكيلا » . والمسيح لا يظهر إلا في الســـور المكية ، وابراهيم يدخل فقط كأحد الانبيـــاء السابقين لمحمد ، دون اية علاقة مع العرب ؛ ولكن ابراهيم في السور المدينية ، وبعد خلاف محمد مع اليهود ، يرتبط مباشرة بالعرب ، ليس فقط لانـــه بنى البيت الحرام في مكة مـــع ولده اسماعيل ، بل لأن دين الفطرة البدائي الذي يرمي محمد الى اعادة تثبيتـــه هو دين ابراهم الذي شوهه اليهود والنصارى .

وتنظيم القوانين الدينية ، من مدنية وجزائيـــة ، يجتمع على الخصوص في السور الثانية والرابعـــة والخامسة ، وهي تشمل ما يقارب ٥٠٠ آية (عشر القرآن تقريباً) . الا انه ليس من المتوقع ان نجد في السور المدينية قانوناً صرفاً ، وهناك مجـــال للقول مرة

اخرى ايضاً ان المسلمين ، بعكس القول الخاطىء المـــألوف ، لا يقاضون وفقاً للقرآن . وبالنتيجة يجب الا نعتقد ان السور المدينية هي ذات صفـــة تشريعيـــة بحتـــة : ان توابع بعض الآيات تضاهي اجمل اقسام القرآن (١٣٥،٢٢) ؛ وهناك بعض الآيات الاخرى تختصر المعتقدات والواجبـــات الدينية للمسلم الصالح بوضوح تام ؛ (القرآن ١٧٢،٢ ـ والصحيح ١٧٧) :

« ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتـــى المال على حبه ذوي القربى واليتـــامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البـــأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » .

وقد رأى غولدزيهر بحق في هذه الاوامر القرآنية رد فعل من ناحية اولى ضد التعقيدات البربرية للطقوس الوثنية ، ومن ناحية اخرى مجموعة من الصفات الاختيارية . فطقس الحج مثـــلاً (وسنراه فيا بعد بشكل اوضح) جاء من الوثنية العربية، وطقس الصلاة يرتبط بعادات المسيحية الشرقية . ولكن هنـــاك مؤثرات اخرى تظهر في القرآن أراد غولدزيهر ان يرى فيهـــا أثاراً من النيوستيسية Gnosticisme [1] وخصوصاً في الآية المسماة « آية

---

١ ـ نظام فلسفي ديني يزعم اتباعه انهم يعرفون الطبيعة وصفات الله معرفة كاملة . المترجم

النــور » (٤، ٣٥)، ومن البارسيّة Parsisme (مذهب زرادشت).

٢ ــ السنّة

ظل محمد طوال حياته يحكم الجماعة الاسلامية ؛ اما بعد وفاته فان الاوامر التي يضمها القرآن كانت غــير كافية للاجابة على جميع القضايا الاجتماعية ؛ ولذلك وجب اذن الاستعاضة عنهــا بشيء آخر غير الوحي النبوي الذي ظل حتى ذلك الحين يكمل القرآن عندما تدعو الحاجة.

وظهر اولاً ثلاث طرق: اذا لم يوجد حل مسألة ما في القرآن كانوا يلجأون في الدرجــة الاولى الى « السابقات » المؤلفة من مجموعة « اعمال » النبي (السنّة) ؛ وفي الدرجة الثانية الى العادات القديمة في المدينة (وقد استعان محمد بها اكثر من مرة) ؛ واخيراً، عند زوال جميع الوسائل، فان القاضي يلجأ الى عاطفته الشخصية في العدل (الرأي).

اذن هناك مفهومان متنــاقضان يفرضان نفسيهما منذ ايام الاسلام الاولى : استعمال الاوامر الشرعية الصادرة عن النبي نفسه من جهة ــ وهو مفهوم مؤيد بمستند ؛ ومن جهــة اخرى بحث مستقل ــ وهو مفهوم ذو صفة نظرية . ولكي يسد الفقيه ــ كلمة مشتقة من الفقه ــ في ايام الاسلام الاولى نقص العناصر التشريعية الموجودة في القرآن وفي العدد القليل من « السابقات » كان عليه

ان يستعمل الرأي ؛ ولكن هذه الطريقة ، التي ستظهر فيا بعد وتتخذ اهمية كبرى ، كانت اثناء هذا الدور الاول قد اخفتها السنة التي ما فتيء دورها يكبر .

فا هي تماماً هذه السنة ..؟ اننا نعثر في القرآن على عبارات « سنة الاولين »، « سنة الله » بمعنى « تصرف الله حيال الشعوب القديمة التي عوقبت بسبب كفرها » . اما خارج القرآن فان كلمة « سنّة » تعني اعمال ومآثر واحكام واقوال محمد . وقد كتب ونسنك Wensinck بحق ان « مراعاة السنّة يمكن ان تدعى : تقليد محمد » . ومع التوسع فان السنّة ، وهي ملخص عادات ومفاهيم اقدم الجماعات ، تدل على التطبيق العملي ونظرية الدين الاسلامي الاصلي؛ وكما هو الامر عند اليهود ، فهي تقليد القانون الشفهي مضافاً الى القانون المكتوب ؛ واولئك الذين يحيدون عنها يقعون في البدعة . وكلمة البدعة اخذت مع الزمن معنى «الهرطقة» واصبحت ايضاً مرادفة لكلمة « كفر » . هذا بالرغم من ان البدعة تنتج عن خطأ مرتكبة اثناء البحث عن الحقيقة ، بينما الكفر هو من عمل مقاومة متعمدة . ولكن اذا كان المحافظون قد منعوا التجديد فان المتحررين اجازوه في بعض النقاط حاسبين حساباً لتطور الاسلام ، وبفضل « الاجماع » .

وقد قيل منذ وقت مبكر انه اذا كانت السنّة تستطيع ان تستغني عن القرآن فان القرآن لا يستطيع الاستغناء عن السنة . ومن هنا جاءت تسمية المسلمين الاصلاء « اهل السنة » او « السنيّون » .

وكان ناشرو السنة رفاقاً لمحمد ، مذكرين بالمناسبة باعمال

واقوال، وايضاً صمت النبي الذي يمكن اتخاذه مثلا في حالة معينة. فالسنّة اذن دعيت بسرعة لاتمام كلام الله ، سواء كانت تتفق معه ، او تفسره ، او تدخل فيه عنصراً جديداً . وقد ولدت هذه الدراسة الى جانب الفقهاء الذين يفسرون ويناقشون النصوص . انها مدرسة من العلماء المكلفين بجمع واثبات جميع الاحاديث المتعلقة بتفاصيل حياة محمد ورفاقه مهما كانت طفيفة .

٣ ـ الحديث

هذه الأحاديث التي يوجد منها آلاف كيف جمعت ؟

في بادىء الامر كانوا يلجأون الى الصحابة ، رفاق محمد الحقيقيين ، وبعد ذلك الى التابعين ، وهم اول جيل بعد محمد ، وبعد ذلك ايضاً الى تابعي التابعين . ويقسم الحديث بالضرورة الى قسمين : المتن ، وما يسبقه من اسماء اشخاص نقلوه الواحد عن الآخر (الإسناد). وقد أورد غولدزيهر حرفياً بعضاً من اجمل هذه الاحاديث المنسوبة الى محمد ، ومنها :

« احبوا الفقراء ، تطلعوا دائماً الى من هم تحتكم ولا تتطلعوا الى من هم فوقكم ؛ لا تطلبوا ابداً شيئاً من أحد ، كونوا بارّين بآبائكم ولو احزنوكم ، قولوا الحقيقة دائماً مهما كانت مرة ، لا تدعوا الشتائم تصرفكم عن سبيل الله ... »[1] .

---

١ ـ كان علينا ان نورد هذه الاحاديث بنصها الحرفي كما وردت في مظانها ولكن العثور على هذا النص يتطلب وقتاً لا نملكه ولهذا اكتفينا بايراد المعنى .
المترجم

وانتشار الاسلام جعله يحتك بأفكار ومدارس أجنبية . ومن هنا كان التطور الاجتماعي الذي قاد المحدثين تدريجياً الى ما يدعى Piafraus ؛ فقد عصرنوا بعض الاحاديث ليجعلوها ملائمة لحاجات الزمن من الناحية القضائية : انها اخطاء واضحة جبهت النقاد المسلمين انفسهم .

وكانت اديان الشعوب المغلوبة ذات اثر في تطور الاحاديث؛ فقد وجد فيها غولدزيهر، بصوره خاصة، تذكارات من الاناجيل ومنقولات غير صحيحة عن المسيحية ، وافكاراً يهودية واغريقية وضعت في فم النبي لهدف بنّاء : « انها مسألة من ألذ المسائل... ان نحدد المصادر التي تجري منها هذه المواد غير المتلاحمة، بواسطة تشعبات عديدة ، وان نكتشف المجاري التي تشهد بوجودها » . وقد اثبت غولدزيهر وسنوك هورغرونج ان عدداً من الاحاديث كأنها انعكاس لآراء كانت مسيطرة في الاسلام منذ الايام الاولى، وهذا ما يعطيها قيمة لا جدال فيها في تاريخ التطور الاسلامي : فهناك احاديث تهتم بقضايا سياسية ، وتبدو مؤاتية او غير مؤاتية اما لانصار عثمان واما للعلويين، الامر الذي يشير الى العصر الذي حددت فيه .

ولكن العلماء المسلمين تعلقوا باكراً بنقد نصوص الحديث ، كما كان الامر مع القرآن ، وخصوصاً بنقد نقلة النصوص . فقد درسوا ، بمؤلفات عديدة ، تاريخ حياة هؤلاء الاشخاص ، ودرجة الثقة التي يستحقونها، وهي درجة كانت في الغالب موضوع منازعات حامية ؛ وهكذا ساروا الى وضع تصنيف للاحاديث ،

وهو تصنيف كثير التعقيد كان يرتكز على قيمة رواتها (مثلا « تقريب » النووي الذي ترجمه و . مرسيه) .

ومجموعات الحديث كثيرة . وكانت تصنف في الاصل وفقاً لمؤلفيها (الاسناد : ومنه اشتق اسم « المسند » الذي اطلق على هذا النوع من المجموعات) . ولكن الاحاديث قد صنفت فيما بعد بحسب المواد وقسمت الى فصول (ومن هنا جاء اسم «المصنف» الذي اطلق على هذه المجموعات) . وهناك ست مجموعات من هذا النوع الثاني وضعت في القرن التاسع بواسطة علماء من اصل فارسي وتعتبر كنصوص تأتي حظوتها بعد القرآن مباشرة . وكان دور الفرس عظيماً في العلوم اللاهوتية ، وقد اعترف بذلك ابن خلدون المؤرخ العربي الكبير حيث قال :

« انه لشيء يستلفت النظر ان يكون معظم المشهورين عند المسلمين بمهارتهم في العلوم هم اجانب . والامثلة التي تناقض ذلك قليلة جداً ... فقد كان بينهم اشخاص يحفظون الاحاديث عن ظاهر قلب ومعظمهم ينتمون الى العنصر الفارسي . وجميع العلماء الكبار الذين عالجوا مبادىء اساسية في الفقه ، وأولئك الذين اشتهروا بعلم اللاهوت العقائدي ، ومعظم الذين اشتغلوا بتفسير القرآن كانوا فرساً ... ان تعليم جميع العلوم اصبح فناً خاصا بالفرس » .

وكان العلماء المسلمون في ذلك العصر قد وصلوا الى نوع من الاتحاد في الرأي ، وتركزت دعائم الوحدة السياسية الاسلامية ؛ ومؤلفو هذه المجموعات لم يلعبوا اذن دور المبدعين الجريئين ،

هذا الدور الذي عزي اليهم احيانا ، ولكنهم استطاعوا انيجمعوا بصورة نهائية جميع الاحاديث الصحيحة المشهورة . والخلاصة ، فان قيمة مجموعاتهم هذه لم يعترف بها بشكل عام الا بعد زمن : وقد وضعوا منها على الاثر مختارات وشروح (لان هذهالاحاديث منشأة فيالغالب بلغة قديمة تحتاج الى تفسير)؛ واحتلوا مكانهم بين المعلمين الذين تدرس آثارهم في جامعات ومعاهد العالم الاسلامي.

٤ ـ الفقـه

بينا كان علماء الحديث يتعلقون بالنص الحرفي فقط كان هناك علماء آخرون قد بدأوا يناقشون روح القانون ، اي انهم اضافوا الى العلم ، وهو الناحية التقليدية في اللاهوت والقـانون الديني ، الفقه الذي يشكل القسم النظري منه. والعلاقات الموطدة مع اناس اكثر فطنة من العرب (ولا نذكر إلا السريان والفرس)،ونمو الترف الذي عجلت به الفتوحات . كل هـذا اظهر اكثر فأكثر عدم كفاية الاسس التشريعية التي قـام عليها المجتمع الاسلامي . فالامويون المالكون في دمشق سلكوا مسلك مـلوك بلاد العرب القديمة ، وتمسكوا بشيء من الاعتدال في المحافظة على الشريعة . وكان هناك حينـذاك ما يشبه الانفصال بين السلطتين الروحية والزمنية ؛ وحالة كهذه لا تفسح مجالاً لتقييد تكييف الفقه وفقاً للحياة العملية .

ولكن انقلاباً قد تم في الظاهر على الاقل بعد تسلم العباسيين السلطة : ان الامويين كانوا ملوكاً زمنيين بشكل خـاص . اما

العباسيون فقـــد بدوا ملوكاً روحيين كما هم زمنيون ؛ وباتخاذهم الجهة المعاكسة لأسلافهم فقـــد تمسكوا بالحزب الاكليركي الذي كانوا بحاجة اليه ليسند شرعية حكمهم؛ والاتحاد الودي بين الدين والحكومة ، وهي فكرة ايرانية ، قد انتصر بواسطتهم .

وتضاعفت فجأة اهمية النصوص المقدسة لان دراستها لم تعد قضية تدين فقط بل قضية تطبيق عملي . وبدأ الفقه يتنظم ولكن بوفاق تام مع القانون السماوي . وساعدت الفتوحات نفسها على هذا النمو للفقه لانها وضعت العرب امام شعوب تسيرها قوانين قديمة (يهود ، روم ، فرس) لم تكن دون تأثير على اول نضج القانون الاسلامي . وبالفعل فان هـــذا الفقه لم يولد تلقائياً عند العرب ، فقد تنظم في القرن الثاني بعد الهجرة في سوريا والعراق على اثر الاحتكاكات بمدارس القانون المسيحية . وقـــد سجل غولدزيهر عدة مشابهات بين النصوص العربية واللاتينيـــة التي ستذكر في موضعها .

ولكن ميولاً متناقضة ظهرت بين الفقهـــاء : فبعضهم كان يستند الى الحديث بشدة ، وآخرون بحثوا عن قواعد قضائيـــة اخرى بعد ان تأكدوا من عدم صحة وتناقض احاديث عديدة. وعند ذلك ولدت مدارس الفقـــه المنفصلة بسبب اختلافات في التأويل وفي الطريقة .

واقدم محاولة لجمع القوانين بوشر بها من وجهة النظر السنيـــة هي المجموعة المسماة « الموطأ » التي وضعها مالك بن انس (توفي عام ٧٩٥)؛ ويبدو هذا الكتاب كتحكيم بين مجموعـــة الاحاديث

وبحث الفقه الصرف ؛ فالك المتمسك بمتن الحديث دون ان يهتم بالاسناد صمم على وضع نظام قضائي مرتكز على الحديث بصورة مباشرة ؛ وكتابه يمثل المفاهيم القضائية لعلماء المدينة في القرن الثامن . والمصدر الرئيسي لمالك هو القرآن ثم سنة محمد ورفاقه ؛ ولكنه يضيف الى ذلك عادات المدينة عند اللزوم . وفضلاً عن ذلك فقد كان من رأيه ان الاحاديث ، التي وان كان من الضروري ان تستعمل كقاعدة فهي ذات قابلية للتبديل اذا تعارضت مع الصالح العام (مبدأ الاستصلاح) . واخيراً فهو يستنجد عند الضرورة بمبدأ آخر : اجماع علماء المدينة على قضية معروضة. وبكلمة ، فان مالكاً حفظ الحديث الا انه قبل بالتأويل الشخصي (الرأي) في حدود عدم ضرره بالصالح العام ؛ وهي طريقة رآها غولدزيهر قريبة من احدى طرق القانون الروماني

ووضعت في الوقت نفسه تقريباً انظمة قضائية في سوريا (مع الاوزاعي المتوفي عام ٧٧٤ وقد نال نجاحاً كبيراً) ، وخصوصاً في العراق الذي كان يومذاك ميداناً للحركة الفكرية . وأشهر ممثل لهذه المدرسة هو ابو حنيفة (المتوفي عام ٧٦٧) والذي يبدو انه يعمل بواسطة التعليم اكثر مما يعمل بواسطة الكتابة . وهو فارسي الاصل لم تتح له الفرصة اللازمة ليضع نظرياته موضع العمل (كمالك الذي تولى مهنة القضاء) : انه فقيه نظري ، وتميز مذهبه ثلاثة مبادىء : رجحان الرأي (تعقل شخصي مرتكز على العقل السليم) ؛ والقياس (مبدأ المماثلة) المتمم بأسلوب «الاستحسان» المماثل «لاستصلاح» مالك والذي

يتألف تقريباً مما يلي : « في مجرد نص ما يدل القياس في حالة كهذه على معنى بذاته ، ولكن بالنسبة للظروف اعتبر ان من الافضل التصرف بطريقة غير مستمدة من الاولى » .

ومذهب ابي حنيفة انتشر اولا بواسطة تلاميذه في الشرق بوجه خاص ثم اعتنقه السلاطين السلجوقيون ، والسلاطين العثمانيون فيما بعد . اما مذهب مالك فقد انتشر خصوصاً في المغرب ، وفي شمالي افريقيا بوجه خاص .

وخلاصة القول ان مذهبي مالك وابي حنيفة ليسا بعيدين الواحد عن الآخر كما يظن لأول وهلة : واذا كان الاول اكثر اعتدالا في استعمال الرأي (وهذا لم يثبت) الا انهما يختلفان بنوع خاص في موضوع مبدأ الاجماع . والاجماع المالكي المقتصر على علماء المدينة ظل محلياً تماماً ؛ إلا ان هذا الاجماع المحصور اضطر الى التوسع بعد قليل بواسطة رئيس مدرسة : هو الشافعي المتوفي عام ٨٢٠ .

وبالفعل، فحين كان مالك لا يستعمل الاجماع الا كوسيلة عرضية فان الشافعي قرره كمبدأ قطعي : اجماع عام للعلماء ؛ وحين تم ذلك قرر الشافعي عصمة الجماعة بشكل ما ، وهي القوة التشريعية الوحيدة الكفء حقيقة في الاسلام : فعلماء الاسلام يستطيعون ، مبدئياً على الاقل ، ان يفعلوا ما يريدون منذ ذلك الوقت بشرط ان يكون ذلك باجماع الآراء .

ومن الراهن ان هذا الاجماع لا يستطيع البقاء عملياً كاتفاق عام بين جميع علماء العصور . ومن ناحية اولية كيف يمكن

الحصول عليه ما دام الاسلام يجهل المجـامع الاسقفية Concilcs والمجامع المقدسة (السنودس) (لقد شاهدنا في القرن العشرين فقط عقد مؤتمرات اسلامية للبحث في مستقبل الخلافة) ..؟ ان اجماع مالك كان مقتصراً فقط على اجماع علماء المدينــة ؛ والوهابيون مقلدو الظاهريين بدوا انهم اكثر تشدداً ، فقـد حصروا الاجماع بصحابة النبي . اما الشافعيون فقد عرفوا الاجماع بانه الاتفــاق الاجماعي بين علماء عصر معين . « حين تتخطى عــادة ما دوراً طويلاً وتكون فيه موضع تساهل ومعترفاً بها فانها في النهاية تصبح سنّة . وقد ظل علماء الدين الصالحون يتذمرون من البدعة طوال اجيال ؛ ولكنها اصبحت مع الزمن موضع تساهل بصفتها احـد عناصر الاجماع ، وفي نهاية المطاف طولب بها . واصبحت مخالفتها هي البدعة منذ ذلك الوقت » (غولدزيهر) . وهذا الاجماع اثبت مثلا النص النهائي للقرآن ، ومجموعات الحديث القانونية الستة ، والموالد المقامة على شرف النبي ، والايمــان بمعجزاته ، ووجود القديسين وقوة شفاعتهم وتعبدهم . وهكذا اضيف عيــد مولد النبي الى الاعياد الدينية منذ القرن الثامن ، ولم يعتــبر كبدعة بل كسنة ؛ ويكون الاحتفال به في كل العالم الاسلامي في شهر ربيع الاول .

« انه عبارة مبهمة هذا الاجماع الذي تنوع تفسيره كثيراً ؛ فهو عبارة مائعة ، ونوع من الحقيقة الخفية حول القرآن والسنة ، عليها عند كل ضرورة ان توضح الارادة الالهية . وهذا الاتفاق في التفكير العلمي الذي نبذل جهداً عظيماً في تحديد تاريخه ليس

هناك من شيء يؤكده رسمياً ؛ وليس هناك من شخص صرح به رسمياً ؛ انه من عمل الرأي وليس شيئاً آخر ... والمدهش في هذا المذهب الذي تقرر بعد نقاش طويل وحاد هو عـــدم وجود مبادىء عامة » (غودفروا ديموميين) .

والأهمية التي يعزوها الشافعي للاجماع قادته بصورة منطقية الى نبـــذ الرأي و « الاستحسان » الحنفي و « الاستصلاح » المالكي ؛ ولم يحتفظ بسوى القيـــاس او التعقل بواسطة المماثلة (ويمكن ان يكون ذلك بسبب رد فعـــل ضد خصوم هـــذا الاسلوب) ، مصرحاً « برسالته » التي يشرح فيها مذهبه ان من الواجب الرجوع الى القياس « في الحالات التي لا يعالجها القرآن ولا السنة ولا الاجماع » ، وهذا ما حوّله الى دور عفا أثره .

فالشافعي اذن يرى ان أسس الفقـــه هي بحسب أهميتها : القرآن ، السنة ، الاجماع ، القياس ، (أما الرأي فلم يكن معتبراً كقاعدة متينة) . وسنوك هورغرونج باستعراضه تطور هـــذه المبادىء الاربعة قـــد حددها بشكل تام : فالمبدآن الأولان هما القاعدتان التاريخيتان للقانون ، والاجماع (الذي يضمها معاً) هو القاعـــدة العقائدية التي لا يمكن لشيء ان يكون متيناً بدونها ، والقياس هو القاعدة المنطقية .

والمذهب الشافعي بالرغم (او بسبب) من اختياريته لم ينل القبول العام . فالمحدث الكبير البخاري ، وهو شافعي ، سيدرج في مجموعته من الاحاديث فصلا يتضمن الاحاديث المتعلقة برفض الرأي والقيـــاس ، وهناك احاديث ممـــاثلة موجودة في مجموعة

الدارمي . وعـــدا ذلك فان رد فعل لاتبـــاع الفقه مرتكز على مصادر الحديث قد خلق المدارس الحنبليـــة والظاهرية في عصر الشافعي .

والمدرسة الحنبلية تحمل اسم مؤسسها احمد بن حنبل (المتوفي عام ٨٥٥) التلميذ القديم للشافعي . والحق يقال ان ابن حنبل لم يضع نظاماً ، ولكنه اجاب على عدد من الاسئلة القضائية اثناء قيامه بالتدريس الذي انتشر بواسطة تلاميذه . والقانون في رأي ابن حنبل لا يمكن ان يخرج الا من مصادر الحديث ، الامر الذي قاده احياناً الى قبول احاديث ذات قيمة هي موضع مناقشة ، وهو ، مبدئياً ، عدو كل بدعة . ومن هنا كانت الصلابة المتناهية والتمسك العنيف بالاصل اللذان سيحدثان معارك دامية احياناً . وفي القرن الثامن عشر ستشتق من المذهب الحنبلي ، بصورة غير مباشرة ، الحركة الوهابية الاكثر عداوة لكل بدعـــة . « ان المدارس الداعية الى الاسلام الصحيح ليست شيئـــاً آخر سوى سلسلة من الدرجات ... حيال البدعة . ومذهب الحنابلة من جهة والمذهب الحنفي من جهة اخرى يمثلان الدرجتين النهائيتين لهذا السلّم » . (غولدزيهر) .

ومع ذلك فان ابن حنبل قـــد قبل بالرأي في حالة الضرورة القصوى . ولكن هذا الرأي اختفى مع المدرسة الظاهريـــة التي اسسها داود الظاهري (القرن التاسع) وتحدد الاجماع بصحابة النبي : وعـــدا ذلك فان الظاهريين لا يرضون بسوى الكتاب والسنة كمصادر قضائية بشرط ان يفسرا حرفياً . ومع ان المذهب

الظاهري وجد في ابن‌حزم متفوقاً ذا موهبة نادرة في القرن الحادي عشر فانه لم يستطع التماسك وذهب ضحية تشدده .

وهناك ايضاً مدارس اخرى كان وجودها سريع الزوال ، كمدرسة الاوزاعي مثلا (القرن الثامن) الذي ضم آنياً الى منهبه مسلمي المغرب، واسبانية ، ومدرسة الطبري العالم الديني والمؤرخ المشهور (المدرسة الجريرية المشتقة من المذهب الشافعي في القرن التاسع ـ العاشر)؛ ومدرسة سفيان الثوري (احد انصار الحديث في القرن الثامن) .

والواقع ان الفقه بلغ ذروته مع الشافعي . والمدارس الثلاث الاخرى ، بالاضافة الى مدرسته ، قد تقاسمت المسلمين السنيين في العالم الاسلامي . وهذه المدارس يطلق عليها بالعربية اسم « مذهب » الامر الذي يحصر التأويل بالقسم الديني وحده ؛ والكلمة الفرنسية التي تطابق كلمة « مذهب » (المعنى الاصلي : طريق ، ممر) هي « طريقة Méthode » او « نظام Système ، بشكل اقل وضوحاً ولكنه اكثر شمولا ؛ اما ترجمة مذهب بكلمة ملّة ، فرقة Secte فخطأ فادح ؛ وسنرى لماذا فيما بعد .

وتفرق المسلمين السنيين بين هذه المذاهب الفقهية الاربعة يعود لاسباب متنوعة (مساندة الامراء ، التفضيل الشعبي ، طرق المواصلات الخ ..) وهذه هي في حالتها الراهنة :

١ ـ المذهب الحنفي (بسبب تحرريته وتفوق النفوذ العثماني): تركيا ، الهند القارية ، الصين ، وله اتباعه في مصر وأنسولند (ماليزيا) .

٢ ـ المذهب الشافعي (الاكثر انتشاراً بعد الحنفي) : مصر السفلى، الحجاز وبلاد العرب الجنوبية، افريقيا الشرقية والجنوبية، فلسطين ، وخصوصاً في أنسولند .

٣ ـ المذهب المالكي : (اسبانية في السابق) ، افريقيا الشمالية، مصر العليا ، افريقية الغربية ، السودان .

٤ ـ المذهب الحنبلي : (اصبح مذهباً في القرن الثاني عشر فقط ؛ كان كثير الانتشار في سوريا وبلاد ما بين النهرين حيث نشر السلجوقيون المذهب الحنفي؛ وفي القرن الرابع عشر تجدد في سوريا بفضل ابن تيمية وتلامذته) ؛ اقتصر اليوم على بلاد العرب (نجد) .

والخلاصة فان الاسلام السني يعطي القيمة نفسها لهذه المذاهب الاربعة التي لا يوجد بينها سوى خلافات ثانوية (اختلاف المذاهب) تتعلق بتطبيق الشريعة (فروع الفقه)، وليس هناك من خلاف على مبادىء الشريعة (اصول الفقه) . وهناك حديث قد اعلن عن هذه الخلافات واستحسنها . والمسلم يستطيع بكل حرية ان يترك مذهباً ليلتحق بآخر . وفي جامعة الازهر الشهيرة في القاهرة فان كل مذهب يتمثل باساتذة وتلامذة ، إلا ان المذهب الحنبلي الذي ظل غير موجود طوال سنوات لم يكن له في عام ١٩٠٦ سوى ثلاثة اساتذة و ٢٨ تلميذاً (من مجموع ٣١٢ استاذاً و ٩٠٦٩ تلميذاً) . ويمكن تلخيص هذه المذاهب بالقول ان المالكين والحنابلة لا يزالون يهتمون بالنص الحرفي بينما الاحناف والشافعيون يتمسكون بروح الشريعة .

ويطلق المسلمون على كل واحد من مؤسسي المذاهب السنية الاربعة اسم « المجتهد المطلق » اي عـالم يملك الكفـاءة المطلقة لتكوين رأي خاص (اجتهاد) بتطبيقه مبدأ القياس والاساليب الاخرى الخـاصة به على الكتاب والسنة . وهؤلاء المؤسسون وضعوا اصول الفقه ، اما الذين طوروا بعدهم نتـائج (فروع) هذه المبادىء فهم «المجتهدون» ، وذلك ليس بشكـل مطلق بل بالنسبة الى مدرسة خاصة ؛ وبعد هؤلاء المجتهدين ، وفي الأزمنة التي تلت ، فان علماء الفقه لم يعد باستطـاعتهم القيام بعمل الا بموجب « فتوى » مستندة الى سابقة او عدة سابقات . وقد اطلق عليهم اسم « مفتي » وليس اسم « مجتهد » لانهم لا يأتون برأي خاص . وهناك بعض العلماء (ونخص منهم ابن تيمية والسيوطي) لا يفسحون مجالا للاجتهاد ، ولكن الفقهاء بوجه عـام يبنون احكامهم على عدد قليل من المؤلفات التي يعودون اليهـا دون انقطاع : مختصرات الفقه مع الشرح والتفسير ، مجموعات الفتاوى؛ وفي الجزائر مثلا فان كتاب الامام مالك «الموطأ» وهو الاساس الحقيقي للمذهب المالـكي ، قد اهمل تقريباً واستعيض عنه بكتاب لاحق هو « مختصر » سيدي خليل الاكثر كمالا ووضوحـاً من الموطأ . وبكلمة ، فليس هناك مجموعة قوانين بالمعنى الذي يعزوه الاوروبيون لهذه الكلمة .

وبالاختصـار ، فان الفقه « يضم مجموعة الالتزامـات التي تفرضهـا الشريعة القرآنية على المسـلم بصفته المثلثة كمؤمن وكإنسان وكمواطن في حكومة تيوقراطية » (لامنس) . وهذا

القانون الاسلامي الذي تتحد فيه المسائل المذهبية بمسائل الحق المدني والجزائي والدستوري ، ان هذا القانون الذي وضع منذ قرون ظل مسه محرماً ، وظل محتفظاً به بعناية في مدرسة ، بدلا من ان يكون انعكاساً للضرورات الاجتماعية في الوقت الحاضر . وهو نظام نظري وبعض اوامره وتوقيماته المستندة الى « حيل » يقل تطبيقها شيئاً فشيئاً .

« منذ اواسط القرن الاول الهجري اصبح القانون دينياً ، اي انه قانون يُفهم ويؤمر بتنفيذه بالنسبة لحالة معينة لم تكن موجودة حقيقةً الا في ايام الخلفاء الاربعة الاولين ، الامر الذي لا بد ان يكون له تأثير رئيسي على نموه في المستقبل . انه فعلا يختلف كثيراً عن تأليف القوانين بالنسبة لتعقيدات الحياة الواقعية او بالنسبة لنظام مثالي للامور ... وهذا القانون ... لا يقل احتفاظه ... باعلى درجة بداغوجية للعالم الاسلامي ، كمادة للتعليم ، ومستودع امين للمثالية الدينية المعترضة على الواقع » (سنوك هورغرونج).

ومن ناحية اخرى فان غولدزيهر لاحظ، بكثير من الصواب، تلك الصفة النظرية القضائية التي تكدر الحياة الدينية نفسها وتقلل احياناً من العاطفة الالهية .

ولكن التطبيق العملي ، وفقاً للشهادات التاريخية ، قاد المسلمين في كثير من الاحيان الى ان لا يراعوا كل تطلبات هـذا الفقه المثالي . فهناك عدة اقسام منه اصبحت هرمة . وفضلا عن ذلك فان تدخل السلطان أحل احياناً محل الفقه قانوناً دنيوياً محليـاً . واخيراً ، فان القانون المعتاد (العرف والعادة ، وعند البربر بوجه

خاص : القانون) حفظ في اغلب الاحيان تلك الوضعيات التي اتخذها حتى قبل ظهور الاسلام : فقـــد انتج احياناً الانفصال المطلق بين السلطتين الروحية والقديمة بسبب حالات قضائية لا تتوقف تماماً على القانون الديني ؛ ففي مراكش مثلا ، ان « عادة فاس » المطبوعة على الحجر يستعملها القضاة بشكل منظم . ولم يوجد رسمياً في الاسلام اي جسم تشريعي لتحـــديد القوانين ؛ فالقانون تطور من تلقاء نفسه ، وقد رأينا قانوناً مدنياً يسير جنباً الى جنب مع القانون الديني الذي ظل مرعي الاجراء في القضايا المذهبية البحتة . وفي القانون التجاري مثلا فان التطبيق العمـــلي تغلب دائمـــاً على النظريات ، ومن ناحية اخرى انتقلت مسائل القانون العـــام والقانون الجزائي ، وقضايا الضرائب والملكيّة بشكل لا شعوري الى الفقه الزمني . وقد ثأر القانون الديني لنفسه عند تقلد السلاطين العثمانيين السلطة في تركيا وذلك باحـــداث وظيفة شيخ الاسلام ومفتي القسطنطينية ؛ ولكن التطور الاجتماعي في العصور الحديثة حدا بالحكومة التركية الى وضع قوانين الحقوق المدنية ، وهذا طبعاً قبل تجديدات حكومة انقرة ؛ وهكذا كان « قانون نامه » (مجموعة القوانين) المعلن من قبـــل السلاطين العثمانيين: كقانون محمد الثاني الذي نظم بروتوكول الاحتفالات. والمداخيل الناتجة عن الاعمال ، وحدد الغرامات التي يحكم بها في حالة الجرم ؛ وسليمان ايضاً اعاد تنظيم نظام الاقطاعات العسكرية الذي وضعه مراد الاول ، ووضع قانوناً لنظام المزارع في مصر ، وحدد حقوق وواجبات الرعايا (معناها الحرفي « القطعان » ،

وهم الرعايا المسلمون لوهم المسلمين من المزارعين او التجار الذين لا يستطيعون ممارسة اي عمل عسكري او مدني. وفي عام ١٨٥٦، فان هذا التعبير المعتبر مهيناً للرعايا المسلمين قد استبدل بكلمة « الاتباع ») ؛ وهناك قانون ـ نامه آخر عالج انظمة البوليس ؛ وفيا بعد فان التنظيات التي دشنها « خط شريف » كولخانه (١٨٣٩) قادت الى « القانون الاساسي » عام ١٨٧٦ الذي قرر دستور الامبراطورية العثمانية . وهناك ايضاً دستور منح للفرس على اثر الثورة بتصريح ملكي عام ١٩٠٦ وأكمل عام ١٩٠٧ .

ومن ناحية اخرى فان المسألة القضائية قد عرضت بشكل لا يمكن تجنبه في البلاد الاسلامية التي يديرها الأوروبيون . ففي ارخبيل ماليزيا (حيث تغلغل الاسلام ببطء ابتداءً من نهاية القرن الثالث عشر بفضل البحارة والتجار العرب) تركت الادارة الهولندية الامور كما هي ولكنها جعلت بعض الاختصاصيين يدرسون الفقه المحلي. والانجليز في الهند والفرنسيون في الجزائر شرعوا بوضع مجموعة في الحقوق الاسلامية. والمعروف ان الجزائريين يتبعون المذهب المالكي؛ والمذهبان الحنفي والمالكي تنازعا على التفوق في افريقية الشمالية طوال قرون، وكانا قد انتشرا هناك في وقت واحد اثناء القرن التاسع ؛ وابتداء من العصر الذي حكم فيه الفاطميون (القرن العاشر) فان المذهب الحنفي ، وهو اكثر مرونة من المذهب المالكي ، قد نجح في الثبات امام المذهب الشيعي المنتصر . ولكن الزيريين حين خلعوا نير الفاطميين في القرن الحادي عشر فضلوا المذهب المالكي على الحنفي الذي ظل

في النهاية ملجأً للأقلية رغم مساندة الاتراك في القرن السادس عشر . وسكان طرابلس الغرب هم ايضاً مالكيون ، وهذا ما جعل الايطاليين يعودون بحكم الضرورة الى دراسة وترجمة المجموعات المالكية ـ وخصوصاً « مختصر » سيدي خليل الذي تُرجم الى الفرنسية منذ وقت طويل .

اما في الجزائر خاصة ، فان قانون ٢٠ ايلول ١٩٤٧ المهيأ بالتنظيم الصادر عام ١٩٤٤ انشأ القانون الاساسي للفرنسيين المسلمين في الجزائر ، كمواطنين فرنسيين يحتفظون بقانونهم في الاحوال الشخصية. وهكذا اصبح القانون الاسلامي جزءاً متمماً القانون الفرنسي ؛ انه قانون وطني لجزء من الوطنيين المسلمين .

تعليق العلامة محمد جواد مغنية

(راجع صفحة ١٠٨)

١ ـ اتفق المسلمون كافة، السنة والشيعة، على انه يستحيل ان تنال يد التحريف القرآن الكريم سواء أكان ذلك بالزيادة ام النقصان، واستدلوا على ذلك بالآية ٤١ من سورة فصلت : «ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» . وبالآية ٨ من سورة الحجرات : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» . وما كان في حفظ الله وحرزه لايمكن ان تناله يد السوء . وقد نسب الى الامامية افتراءً وتنكيلاً نقصان الآيات ، مع ان علماءهم المتقدمين والمتأخرين من الذين هم الحجة والمعتمد قد صرحوا بان القرآن هو ما في ايدي الناس لا غير دون زيادة او نقصان؛ فمن المتقدمين الشيخ الصدوق في كتاب اعتقاد الشيعة الامامية ، والسيد المرتضى في كتاب المسائل الطرابلسيات ، والشيخ الطوسي في كتاب التبيان . ومن المتأخرين الشيخ جعفر النجفي في كتاب كشف الغطاء ، والسيد محسن البغدادي في شرح الوافية . وألف الشيخ علي الكركي رسالة خاصة في ذلك ، والسيد محسن الامين في الجزء الاول من اعيان الشيعة ، والشيخ جواد البلاغي في الجزء الاول من آلاء الرحمن ، ونقل السيد الأمين والشيخ البلاغي ان القائلين بالنقصان هم من شذاذ السنة والشيعة لا يعتمد على قولهم . إذن نسبة التحريف الى الشيعة كنسبتها الى السنة كلتاهما لم تبن على اساس .

محمد جواد مغنية

الفَصْلُ الرَّابع

العقيدة والقانون

١ ـ العقيدة

هناك آيتان قرآنيتان تعددان النقاط الاساسية للعقيدة : « ياايها الذين آمنوا : آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي انزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر فقد ضل ضلالاً بعيداً »، (٤،١٣٥) ؛والآية الاخرى (٢ ، ٢٨٥) تعود الى هذا التعداد بشكل اكثر ايجازاً.

هذه هي مواد الايمان الاساسية. فالايمان يجب ان يضاف الى الاحسان والى الاسلام (التسليم لله ، عاطفة الخضوع) ليتكون الدين بالمعنى الواسع للكلمة . ونجد في القرآن عبارتي ايمان واسلام تستعملان تارة بمعنى واحد وطوراً تتميزان بوضوح (جاء في القرآن ، ١٤،٤٩ : « قالت الاعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ... ») ؛ وبالفعل فان عبارة الايمان قد نوقشت طويلاً من قبل علماء الدين وانتهى الاسلام الحقيقي الى القول ان الايمان يتألف من ثلاثة عناصر :

التصديق، والاقرار ، والعمل .

وهذه المعتقدات لم تكتب رسمياً في الاسلام كما هي في الاديان الاخرى (كقانون الايمان المسيحي مثلا) ؛ وكان العلماء يحاولون وخصوصاً منذ القرن الحادي عشر ، ان يوضحوا بايجاز وبشكل جوهري اسس الايمان الاسلامي . وقد اطلق على هذا النوع من الكتابات اسم العقيدة (راجع تحليلات العقيدة في مقال كارا دي فو في الموسوعة الاسلامية صفحة ١٢٤٠) .

والمؤمن الذي يقبل بخلوص نية هذه العناصر الثلاثة الـتي تكوّن الايمان يصبح في عداد المختارين . اما الذي يختار العنصرين الاولين ويموت في حالة الخطيئة المميتة (الكبيرة) دون ان يتوب فيحكم عليـه بالهلاك الأبدي . ومع ذلك فن المحتمل استطاعة الفاسق دخول الجنة بحسب رأي المسلمين الحقيقيين الذين يعتبرون ان النار تمثل المطهر ولا تمثل الجحيم . وهذا تلطيف ناقشته عدة مدارس بشكل عنيف . واما ذلك الذي يعتنق ويمارس الاسلام ظاهرياً دون ان يؤمن في قلبه فهو منافق وكافر .

وبعد ، فهل يمكن للايمان ان يزيد او ينقص ..؟ ان القرآن يتحدث احياناً عن تزايده (مثلا في ٣ ، ١٦٧ ؛ ٨ ، ٢ ؛ ٩ ، ١٢٥) . ولكن المسألة بقيت معلقة ، فالبعض يعتبرون ان الايمان يتـألف اساسياً من التصديق ، الامر الذي يلغي كل تبديل ، والآخرون يرون ان الايمان المرتكز على هـذا التصديق وعلى الاعمال الصالحة يمكن ان يكون كثير الثبات او قليله .

الايمان بالله . ـ ان المـادة الاولى للايمان والعقيدة الاساسية

في الاسلام في الوقت نفسه هي الايمان بإله واحد وتختصر بصيغة « لا إله الا الله » . والتوحيد (اي الايمان بإله واحد) يتعارض مباشرة مع الشرك (تعدد الآلهة) الذي هوجم انصاره (المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر) في أجزاء القرآن الراهنة التي تضعهم مع الكافرين على مخطط واحد تقريباً ؛ ونجد في كتب الفقه ان كلمة الشرك مستعملة اكثر من كلمة كافر للدلالة على غير المؤمن ؛ ومع ذلك فان علماء الدين قرروا في موضوع الكافر درجات مختلفة للكفر .

وقد رأينا ما يمثله الله في الجاهلية العربية . فما هو بالضبط إله محمد ..؟ ان الله ليس مساوياً ليهوه العبراني فقط (ولا لألوهيم ، لانه إله واحد) بل يشبهه ايضاً بصفة الغيرة ومحبة الانتقام . ويستخرج من اماكن متفرقة من القرآن سلسلة من النعوت (مثلا: الاول والآخر والظاهر والباطن الخ ..) يحرص المسلمون الاتقياء على تعدادها : انها « اسماء الله الحسنى » التي يبلغ عددها المائة (بما في ذلك كلمة « الله ») .

ويستنتج من جميع هذه النعوت معرفة « كائن يكتفي بنفسه، عظيم القدرة ، عالم بكل شيء ، ابدي ، وهو الحقيقة الوحيدة » (ماكدونالد) . ومن الطبيعي ان يحتدم بين علماء الدين نقاش لا نهاية له حول شخص الله ، (راجع الموسوعة الاسلامية صفحة ١٣٠٨) .

وفحص اسماء الله هذه قاد بعد ذلك علماء الدين المسلمين الى البحث عن الصفات المغطاة بهذه الاسماء، (ويمكن ان يكون ذلك

بتأثير العلماء المسيحيين) . وقـد أعلن اصحاب الدين الحقيقي اخيراً ان صفات الله هذه هي ابدية، « لا هو ولا غيره » وسنرى رأي المعتزلة حول هذه الصفات .

وهذا الكائن السامي المكتفي بنفسه قد خلق خلقاً : ومن هنا جاء اسمه في القرآن : الخالق . فكيف حدث اذن هذا الخلق ..؟ ان خلق الانسان في القرآن يسيطر على ما عداه : فكل شيء على الارض قد خلق لأجل الانسان . والدنيـا خلقت في ستة ايام . ولكن الله حين اخرج العالم من العدم المطلق ، اخرج الانسان من المادة (القرآن ٢٢ ، ٥ على الخصوص) وكوّنه على صورتـه ونفخ فيه من روحه . وهـذا الخلق هو الدليل على قدرة الله ، وعلى طيبته ايضاً ، ولم يخلقـه الا لوقت محدد (القرآن ٤٦ ، ٢) ويبقى اختيارياً غير كامل : فالناس غير مستقرين (القرآن ٢١ ، ٣٨ و ٢٢ ، ١١) وجشعون (٧٠ ، ١٩) وضعفاء (٤ ، ٣٢) وقليلو التبصر (١٧ ، ١٢) وجاحدون بشكل خاص (١٧،٦٩) ؛ وايضاً حين لم يكن هناك سوى شعب واحـد ، فانهم تنازعوا وانقسموا بعامل الحسد (٢ ، ٢٠٩ ؛ ١٠ ، ٢٠) .

كيف تنظم العـالم الطبيعي اذن ..؟ حسب المفهوم التقليدي هناك جبل دائري ، جبل قاف (ذو اصل ايراني على الارجح) يحيط بالارض ؛ وهناك فسحة لا يمكن اجتيازها تفصل الواحد عن الآخر ؛ وهناك تقاليد اخرى تمثل الارض مرتكزة على كتفي ملاك (مماثل للعملاق اطلس) وهذا بدوره مستنـد الى صخرة يحملهـا ثور واقف على سمكة تسبح ؛ وما من شك في انهـا

استعارات من نظريات هندية وعبرانية حول تكوين العالم . وحين خلق الله الارض استقر في السماء التي لم تكن يومذاك سوى دخان وقسمها بمدة يومين الى سبع سموات اسند الى كل منها وظيفة (القرآن ٤١ ، ٨ ـ ١١) .

الملائكة والشياطين . ـ ان الملائكة المصنوعين من النور لا جنس لهم وهم يطيعون الله على العمياء . وقد انتقل رؤساء الملائكة العبرانيون الاربعة الى الاسلام واصبحوا « المقربين » الى الله ، الضخام الاجسام كالكروبيم ، وهم جبرائيل حامل اوامر العزة الالهية ، وميكائيل الذي يراقب العالم ، واسرافيل المستعد للنفخ في الصور ليوم الدينونة ، وعزرائيل رئيس ملائكة الموت. ولكل انسان ملاكان حارسان يسجلان اعماله الحسنة والسيئة (الا اذا شغل هذه الوظيفة ملاكان آخران : الكاتبان) ، وهذان الملاكان حارسان يتصلان بالغسقين اللذين هما لحظات خصبة بالنزعات .

ونكير ومنكر هما ملاكا القبر ؛ والملاك رضوان يحرس الجنة ، والملاك مالك يحرس النار . وهناك كثير من الملائكة الآخرين كأولئك الذين يحملون عرش الله مثلا .

وخلق الملائكة سبق خلق آدم . وعند ظهور هذا امر الله الملائكة بالسجود له فسجدوا الا ابليس الشيطان (مستعار من اليهودية) فقد رفض ، وهو المخلوق من نار ، ان يعبد ذلك الذي خرج من الطين . ولعنه الله ولكنه حصل على مهلة تدوم حتى يوم الحساب الاخير ، واستغلها ليضل البشر مبتدئاً بآدم وحواء.

وفي نهـاية الزمن سيطرح في جهنم مع الشياطين الذين اطاعوه . وهؤلاء يحملون اسماء متنوعة والمعروف منهـا اكثر من غيره هو « الجن » (وربما جاءت من الكلمة اللاتينيـة Genius). والجن (الذين يذكروننا بالديف div الايرانيين) هم كائنات مكونة من بخار او من لهب دون دخان تستطيع اتخـاذ مظاهر متنوعـة . وحقيقة القول ان علاقاتهـا بابليس قـد حددت تحديداً خاطئاً، وليس من المؤكد ان الجميع مرذولون . وقد لعبوا في بادية العرب قبـل الاسلام دور الحوريات او دور الانسان ذي رجلي التيس Satyres . لكنهم في حياة محمد نفسه اصبحوا لاشعورياً آلهة تقدم اليهم القرابين ، واعترف بهـم الاسلام بوضوح الى درجة ان قضايا الزواج والملكية النـاشئة عن زواج واحد منهم بكائن انساني قد نوقشت بشكل جدي ؛ وكان من الطبيعـي ان يستغل الفولكلور وعلم تراجم القديسين هذه الفكرة .

والايمان الشعبي ينسب للشياطين ، في الشرق كـما في الغرب المسلم، عدداً من المساوىء. وكذلك كان الامر في القرون الوسطى المسيحية حيث كانت العزائم تتـلى على المجنون ، وهناك صيغ وتعاويذ وتمائم تستعمل لإبعاد او لتهدئة قوى الظلام هذه التي يخشى منها بشكل خاص على الحوامل والمواليد ، وتسأل في بلاد البربر على الخصوص عن حوادث المستقبل . واحيـاناً تتجسد روح شيطان في حيوان مؤذٍ : ومن هنا جاء نفور صغار الناس من قتل الحشرات التي تعيش على حسابهم .

ولا تقتصر الشياطين على الارض والسموات السفلى . فهـي

تخاطر بنفسها وتصعد الى حدود السماء السابعة حيث يبعدهـا الملائكة رجماً بالحجارة (وهي النجوم الزالقة) .

وفضلاً عن الشياطين فان القرآن (٢،٩٦) ذكر اسم ملاكين ساقطين هما هاروت وماروت اللذانسيتزوجان من بنات البشر ، وهما شبيهان بملائكة سفر التكوين ، ومشتقان منهم بصورة غير مباشرة .

الانبياء . ـ ان مادتي الايمان (الايمـان بالكتب المنزلة ، والايمان بالانبياء) يمكن عملياً تحويلهما الى مادة واحدة . فالانبياء اسمى من الملائكة الذين لا يستطيعون مثلهم الكفاح ضد طبيعتهم. انهم رسل الله ، المكلفون باطلاع الناس على الدين او بتذكيرهم به . وعددهم موضع جدل : فقد ذكر منهم الوف (القرآن ١٦، ٣٨) « ولقد بعثنا في كل امة رسولاً .. »[1] ولكن الكتبالمنزلة نقلت الى الناس بواسطة مئـات منهم . والستة الرئيسيون هم : آدم ، نوح ، ابراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد « خاتم الانبياء » . اما ذوو الاهمية الثانوية فهم : داود ، يعقوب ، يوسف ، ايوب.

وللانبياء موهبة صنع المعجزات. ومحمد لم يرض لنفسهبسوى معجزة واحـدة : تنزيل القرآن ؛ ولكن التقليد ينسب اليـه معجزات اخرى . ولن نذكر سوى معجزة القمر الذي انشق الى نصفين (القرآن ٥٤ ، ١) ؛ والامر هنا يتعلق بعلامـة دالة على انتهاء الزمن وقد أراد المفسرون ان يروا فيها تدخل محمد .

ووفقاً للدين الصحيح فان الانبياء وحدهم يجب ان ينظراليهم

---

١ ـ اثبت المؤلف كلمة (رسول) بصيغة الجمع (رسل) . المترجم

كقديسين. وسنرى فيا بعد كيف تطور مفهوم القداسة في الاسلام اللاحق .

يوم الحساب .ـ ان القرآن، في اجزائه القديمة على الخصوص، مليء بالتلميحات للساعة الاخيرة، وبالاوصاف الشائقة للحوادث التي تعقبها ؛ ولهذا كان على الناس ان يتوبوا دون تأخير . ومن الحق القول ان هذه القيامة تبدو مطلقة اقل مما تظهر لاول وهلة : وكان العرب الوثنيون يعتقدون ان الاموات يواصلون في القبر نوعاً من الحياة الناقصة ، وقد تبنى الاسلام هذا الاعتقاد : ومن هنا جاءت المحاكمة التي يقوم بها الملاكان بعد الموت ، وهي محاكمة تجعل من القبر « جحيماً او جنة تمهيديـــة » (ماكدونالد) . وفي القرآن تطبق المحاكمة الاخيرة على افراد وليس على جماعات (وهو تأثير مسيحي حسب رأي ولهوسن) .

ولم يشر القرآن الا الى عدد قليل من العلامات المنبئة ؛ ولكن هذه المقاطع درست وأنميت بشكل واسع : واذا كان علماء الدين قد بدوا انهم كثيرو القناعة فان علمـــاء الحديث والمؤلفين القدوة كدسوا التفاصيل (راجع المقدسي ، كتاب الخليقة ترجمة هيوار الجزء الثاني صفة ١٤٦ ؛ وابن خلدون ، المقدمـــة ترجمة سلان ، الجزء الثاني صفحة ١٥٨) .

وقبل تعداد هذه العلامات يجب الملاحظـــة ان يوم الحساب الاخير ليس عاماً : فقد جاء مثلا في بعض الاحاديث ان بضعة آلاف من المؤمنين سوف يدخلون الجنة دون حساب : وارواح المحاربين المقتولين في الحرب المقدسة (والمعتبرين شهداء) يبدو

انها تكون فيها قبلا .

واول علامة دالة على نهاية العالم هي ازدياد الكفر بين الناس: فسجد مكة سيختفي ، والقرآن سينسى ، وسيظهر حينذاك ملهم من الله ، هو المهدي مسيح المسلمين الذي سيوطد العدالة والايمان في العالم لفترة من الزمن : وحقيقـــة القول ان فكرة المهدي هذه التي ستصبح رئيسية في المذهب الشيعي لم تدخل حالا في الاسلام الحقيقي كما يبدو . وما من شك في ان الاحاديث تتحدث عن قــاضٍ اخير سامٍ ولكن بدون ان تطلق عليه اسم المهدي ، وبدون ان تعده بين علامات الساعة الاخيرة. وبكلمة ، فان فكرة المهدي قد تكونت متأخرة ، والسنيون يرفضونها بالاجماع .

وهنا يساورنا الشعور بشيء من الشك في مفاهيم الاسلام ، لأن هذه الفكرة عن المهدي المصلح تستقر فوقها فكرة المسيح ، عاكسة النصوص المسيحية المزيفة . وفي نهاية الزمـــان يجب ان يظهر نوع من المسيح المزيف (الدجال) الذي يقدم المؤلفون حول موضوعه تفصيلات من الطبيعي ان تكون متناقضة . انـــه سيأتي من جزيرة بعيدة في اللحظة التي يقدم فيها يأجوج ومأجوج، هذه الشعوب الأسيوية المتوحشة التي ورد ذكرها في القرآن (١٨ ، ٩٣) ، على تحطيم الاسوار التي سجنوا وراءها . والدجال ذو قامة عظيمة ، ويمتطي حماراً ضخماً . وسيدوم ملكه اربعين يوماً يتلف أثناءها الارض. وحينئذ يهبط المسيح من السماء الى الارض المقدسة ويقتل الدجال بطعنة حربة ويـــأتي ليصلي في اورشليم ؛ وستعم الغبطة والمحبة العالم طوال اربعين سنة، حتى موته : وسترى

الخراف مع الذئاب ، وسيلعب الاطفال مع الافاعي » .

وهناك علامات اخرى تسبق فناء الكون وقد اخترعت لاحقاً (راجع مثلا كتاب الخليقة الجزء الثاني ، صفحة ١٤٥) . فعند اول نفخة في بوق (صور) الملاك اسرافيل تدخل الطبيعة في حالة تشنج ويهرب البشر هائمين على وجوههم ؛ وعند النفخة الثانية يموت جميع البشر . وسيتبع هذا الموت العمومي دور مدته اربعون سنة « المدة الفاصلة » ، وفي نهايته يسبق الطوفان نداء البوق الثالث داعياً المخلوقات الى البعث العام والتجمع في اورشليم لأجل الحساب الاخير : وهو يوم يعادل الوف السنوات ؛ وستقف المخلوقات عرايا امام الله تحرقهم شمس حادة ، ويسبحون بالعرق ، ويحمل كل منهم كتاب اعماله ؛ وسيستجوبهم الله الواحد بعد الآخر ، ويزن اعمالهم ؛ ثم يجتازون جسراً (الصراط) ملقى فوق جهنم وموصلا الى الجنة ، وهو رفيق كالشعرة وقاطع . وعندئذ يأتي دور شفاعة محمد بالمذنبين ؛ وسوف يبقى في جهنم بفضلها ، ووفقاً لما جاء في القرآن ، اولئك الذين يجب ان يخلدوا فيها : « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك با لله فقد ضل ضلالا بعيدا » (٤ ، ١١٦) .

وقد قسم المفسرون جهنم المسلمة الى سبع دوائر (على نسق الجحيم عند الاغريق والاشوريين وفي العصور الوسطى المسيحية) . ويشار الى جهنم في القرآن تارة بكلمة نار (وهو اسم بالنسبة الجنس) وطوراً بكلمة جهنم . وجهنم هذه تبدو كأنها متحركة . ويتخيلها بعض المفسرين (الغزالي) كنوع من المسخ على نسق

الجحيم التي تصور في مشهــد الغوامض في القرون الوسطى في الغرب . وتوجد في الطــابق الاخير شجرة الزقوم (ازهارهــا رؤوس شياطين) ، وحلة من القطران في حالة الغليــان ، وبئر دون قعر . ولا يكاد القرآن يتكــلم عن العذاب الجهنمي الذي سيصفه المؤلفون اللاحقون . والخلاصة ، فان كل هذا مشتق من الاساطير اليهودية .

وتوجد بين الجحيم والجنة فسحة غير محدودة أعطت اسمهــا للسورة السابعة من القرآن «الاعراف». ويرى فيها البعض مطهراً والآخرون حافّات : « وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجــال يعرفون كلاً بسيماهم ونادوا اصحاب الجنة ان سلام عليــكم لم يدخلوها وهم يطمعون . وإذا صرفت ابصارهم تلقاء اصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين » . (٧ ، ٤٤ ــ ٤٥).

اما الجنة فقد قسمها التقليد ايضــاً الى عدة اقسام (يحمــل احدهــا اسم الفردوس وهو مستعار من الفارسية ويمــاثل « باراديسوس » الاغريقية) ، ويكاد يكون مما لا فــائدة منه الالحاح على صفتهــا الشهوانية والدنيويــة كما ذكرت في آيات القرآن نفسها (وعلى الخصوص في ٣٧، ٣٨) . وقد رأى علماء الدين المسلمون في ملذاتها رموزاً لا تتحد في الجوهر مع الاشياء الارضية التي تحمل الاسم نفسه : فالحور، أولئك العذارى ذوات العيون السود اللواتي يبقين تحت تصرف المختارين ويبقين مع ذلك عذارى ، سوف يكنّ من جوهر آخر غير جوهر بنات البشر ؛ والقرآن يمثلهن بريئات من الدنس الجسدي وعدم الكمال الاخلاقي

ون ان يتوسع بأوصافهن التي اسهب فيها المؤلفون بعد ذلك .
ورأى بعضهم في هذه الحوريات استعارة من المزدكية . ويعتقد كارا دي فو انها مشتقة من الصور المسيحية للملائكة (راجع الجنة لتي وصفها افرام تور اندريا صفحة ٨٧) .

ويضاف الى هذه المخلوقـات ارائك مريحة وجميع ملذات المائدة . ويوجد عدا ذلك مياه جارية وانهار من لبن وعسل وخمر (سلسبيل ، زنجبيل ، كوثر) ، وهي تذكارات لأنهـار الجنة اليهودية او المسيحية المصنوعة لادخال الانشراح الى نفوس سكان البلاد التي ينقصها الماء ، وقد بُشر بها المؤمنون .

وقسمة الجنة الى ثمانية طوابق (اكثر من الجحيم بواحد) هي عمل لاحق ؛ وفي القمة تنمو زهرة لوتس فتحددها وتظللها ؛ وتتضمن الجنة ، عدا النسخة الاصلية القرآن ، الكتب التي سجلت فيها اعمال الناس وبعض الاشياء التي تستعمـل يوم الحساب . وتلك الطوابق الثمانية ترتكز على بحار تمتد فوق السموات ؛ وفي اعلى الجنة يوجد عرش الله .

« ان نقطة المركز في ايمـان محمد هي مذهب البعث ويوم الدينونة حيث تظهر الانسانية كلها امام الله ، مع الجنة والجحيم كأسـاس . وبهذا المذهب على الخصوص وجد نفسه على طرفي نقيض مع المفهوم الذي كونه العرب ، الذين سينقل اليهم رسالة الله ، عن العالم ، لان هذا المذهب يهتم بالحيـاة الارضية فقط ، جاهلا الهلاك الابدي والسعادة الابدية بعد القبر » (سنوك هور خرونيج) .

القدر (انه القدر في الحديث ، والتقدير عند علماء الدين).— تضاف هذه المادة من الايمان الى ما سبقها : ما من شيء في هذا العالم يوجد او وجد الا بارادة الله . وقد جاء ذكره في عدة آيات من القرآن ، منها : « وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ... » (٣ ، ١٣٩ والصحيح الآية ١٤٥) . او ايضاً : « الذي خلق فسوّى والذي قدر فهدى » (٨٧ ، ٣) وايضاً : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ... » (٩ ، ٥١) . وبالفعل فان اعمال الناس مكتوبة على « اللوح المحفوظ » قبل خلق العالم (القرآن، ٣٥، ٢٥ و ٣٦، ١١). ومع ذلك فهناك آيات قرآنية اخرى تسمح بمناقشة عقيدة القدر ؛ ولم يعدم علماء الدين ذلك .

وقد اختصر المؤلف الفارسي ابو المعالي أسس هذه العقيدة بما يلي :

« ان العزة الالهية العظيمة القدرة ، مع جميع صفاتها ، هي خالدة ؛ والقرآن غير مخلوق ؛ والجنة والنار مخلوقان ؛ ووجود الله وانعام النظر به بعيني الجد من قبل المختارين ، هما ايضاً حقيقتان؛ والامر كذلك فيما يتعلق بعذاب القبر واستجوابات منكر ونكير ؛ والمسلمون المثقلون بذنوب رئيسية ليسوا بكافرين ، واذا ماتوا ولم يتوبوا فسيقاسون العقاب الجهنمي بالنسبة لذنوبهم ثم يعودون الى الجنة بشفاعة محمد .... ويعتبر السنيون ان الخير والشر خاضعان لارادة القدر ، وهذا لا يمنع الحكم على اعمال البشر بانها جديرة بالثواب او بالعقاب. ويقول السنيون فعلا ان الخير والشر صادران عن العزة الالهية ، ولكن الخليقة تملك حرية اعمالها وان

الله يخلق الفعل متفقاً مع حرية الارادة لكـــل واحد وهو يعرف ذلك من العلم الابدي .... ويعلنون ان الله يعضد المخلوقات او يتخلى عنها منذ الازل وفقاً لرغبته ، وان ليس للمخلوقات سبيل آخر سوى الطاعة وبذل الجهد » .

٢ ـ القانون

رأينا ان القرآن يتضمن سلسلة من الاوامر والنواهي . وهذه العناصر التي بسطها وأتمها آخرون تشكل القانون القرآني للاسلام (الشريعة « الطريق الواجب اتباعه » ' مثلا القرآن ٤٥ ، ١٧)، وهو قانون يهتم بالمظاهر الخارجية للفعالية الانسانية . وقد رأينا من ناحية اخرى ان هذا القانون المستند أولياً الى القرآن والحديث قد أكمل شيئاً فشيئاً بفضل اساليب الفقه ونوّع حسب المذاهب ؛ وحالياً، فان كتب الفقه هذه التي لها وحدها قوة القانون قد حولت القرآن ومجموعات الحديث الى مستوى القراءات التي تتخذ قدوة. وبالفعل فان ميل الشريعة الاساسي كان تقديراً لمختلف ظروف الحياة من الناحية الدينية، اما الناحية القضائية البحتة فقد اضيفت اليها فيما بعد .

وقد جرت محـــاولات لتحديد العنـــاصر المكونة للشريعة . فالمسلمون الحقيقيون يميزون فيهـــا الواجبـــات المتعلقة بالعبادة ، والاعمال القضائية (المعاملات) ، والعقوبات ؛ اما الشيعيون فقد تبنوا تصنيفاً اكثر تفصيلا .

اما فيما يتعلق بالاعمال البشرية فقد وزعت الى خمس فئات (احكام) سواء كان من وجهة النظر الدينية او من وجهة النظر المدنية

أ ـ وقد ميز من وجهة النظر الدينية : ١ ـ الفرض او الواجب ، وهي فئة تتضمن الاعمال التي يثاب على فعلها ويعاقب على تركها ، والفرض يقسم الى فرض عين (كالصلاة مثلا) ، وفرض كفاية (كالحج مثلا) ؛ ٢ ـ فرض مندوب يثاب على القيام به ولا يعاقب على تركه ؛ ٣ ـ عمل مباح او لا فرق فيه ؛ ٤ ـ عمل مكروه ولكنه لا يعاقب عليه ؛ ٥ ـ عمل حرام ويعاقب عليه .

وتصنيف الاعمال في هذه الفئات الخمس سبب اختلافات بين المذاهب السنية .

ب ـ وقسمت الاعمال من وجهة النظر المدنية الى صحيح ، وباطل ، وجائز ، ونافع ، ولازم .

وبالاختصار ، يمكن ان نميز في الشريعة القواعد المتعلقة بالعبادة من ناحية ، والاوامر القضائية من ناحية اخرى . ويجب بحث هاتين الجماعتين من العناصر .

أ ـ العبادة

العبادة مؤسسة على خمسة واجبات اساسية (اركان الدين) : شهادة أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله، والصلاة، والصوم، والزكاة ، والحج . وهناك بعض المؤلفين يضيفون اليها الجهاد .

« ان العبادة ، المظهر الخارجي للتفكير الديني ، هي فردية في الاسلام . والصلاة هي كذلك حتى لو اقيمت صلاة جامعة .... امـــا الحج فتتـــأكد اذا تأملناه عن قرب ان المؤمن عند قيامه بالطقوس يتبع طريقه بشكل فردي » (غود فروا ديموميين) .

وهناك امر هام : هو ان مظاهر العبـــادة هذه لا تكون ذات قيمة اذا لم تسبقها النية المعبر عنها بوضوح . وهذا لأن الاعمال بالنيات كما جاء في حديث معروف ؛ وهناك حديث آخر اقرب عهداً يعزو الى الله هذا الكلام: «جابهوني بنواياكم لا باعمالكم » .

التشهد . ـ ويتألف من تلاوة صيغة الشهادة : « لا إله الا الله ، محمد رسول الله » . وهي صيغة اعتناق الاسلام بالذات ، بشرط ان تلفظ بكاملها . وعلى المؤمن ان يعود اليها في جميع الظروف الاحتفـــالية ، وخصوصاً عند اقتراب الاجل ، سواء تلاها المحتضر بنفسه او تليت عليه (التلقين) .

ومع التوسع فان كلمة « الشهادة » تدل على الشهادة التي يقوم بها مسلم يحارب لأجل ايمانه ويموت في سبيله مجاهداً، فيصبح عند ذلـــك « شهيداً » . وكلمة شهيد تدل على من يشهد امـــام قضاء مختص) . وحقيقة القول ان كلمة « شهيد » ليست قرآنية ، فقد استخرجت لاحقاً من آية منعزلة ؛ والقرآن عـــادة يتحدث عن أولئـــك الذين قتلوا « في سبيـــل الله » . وقد اثبت ونسنك ان ان تبسيط هذا المعنى (« شهيد ، من الاستشهاد ») المعزو لكلمة « شهيد » قد جرى بتأثير المسيحية ، وان هذه الفكرة موجودة في الشرق منذ اقدم الازمنة . و« الشهيد » غالبـــاً ما يظهر في

الاحاديث ، وقد رأينا قبلا انه يدخل الجنة مباشرة دون ان يتعرض لاستجواب ملائكة القبر ، ويتخذ مكانه فيها بقرب عرش الله ؛ والاحاديث المتأخرة تنسب اليه قوة الشفاعة بالمذنبين. وقد خلقت هذه الفكرة في الاسلام قابلية التضحية التي اضطر الدين الحقيقي الى محاربتها لأنه رأى فيها توقاً الى الانتحار المحرم تحريماً قاطعاً في الاسلام . وهكذا جر ذلك اصحاب الدين الحقيقي الى اعتبار الفروض السلبية (كالصوم والصلاة وتلاوة القرآن وغير ذلك) انها تقام « في سبيل الله » كتضحية الحياة نفسها .

انه مفهوم جرى التوسع فيه بشكل غريب حيث توصلوا الى ان يطلقوا اسم الشهداء على أولئك الذين ماتوا بالطاعون وامراض اخرى مماثلة ، او بموت قسري ، او اثناء القيام بعمل ديني ، واضافوا الى ذلك المرأة التي تموت اثناء الولادة : وقد انتشرت عبادة هؤلاء الشهداء في بعض المناطق (كالهند مثلا) انتشاراً عظيما .

الصلاة . ـ ان صيغة الشهادة تردد عدة مرات اثناء الصلاة التي لعبت بالتأكيد دوراً رئيسياً ليس فقط في نمو الاسلام الاولي بل في انتشاره اللاحق ايضاً .

وقد جعل لها محمد اهمية بالغة في اعتناق الدين وأشير اليها في الوحي القرآني الاول ، الامر الذي يبرهن على قدمها ، ويلح القرآن على ضرورتها ويوجه اللوم بكل وضوح الى كل اهمال في هذه النقطة ؛ ومن هنا جاءت القيود المتعلقة بشرب الخمر (والتي

انتهت بالتحريم ، راجع القرآن ٢٤ ، ٤٦ : « لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى ») .

ولكن يجب ان يفهم ان الصلاة بشكلها الحالي لم تنظم الا بعد الهجرة بتأثير من الطقوس العبرانية ؛ وفي اول الامر كان مما يستحق الثواب معرفة عدد كبير من الآيات القرآنية غيباً والسهر بالتهجد : (إن ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ... » (القرآن ٧٣ ، ٢٠) ولكن هذا مثل اعلى . وبالفعل « فاذا كان يقتصر اثناء الدور المكي على النص القرآني وحده فان المسلم الصالح يبدو انه استطاع الاكتفاء بالايمان بالله والتنكر لعبادة الاصنام ... ولا يبدو انه كان ملزماً بمراعاة طقوس معينة » (كايتاني) .

وعلى المسلم ان يصلي يومياً خمس صلوات: صلاة الفجر، والظهر، والعصر ، والمغرب ، والعشاء . وهناك تفسيرات اسطورية بشأن هذا العدد . فعندما قام محمد بالاسراء تلقى من الله الامر بفرض خمسين صلاة يومية على المؤمنين . ولكن محمداً عند عودته التقى بموسى ، وهذا وجد العدد مفرطاً ، فأعاد محمداً عدة مرات الى عند الله الذي رضي بتخفيف عدد الصلوات (ان ونسنك يقرب هذا المشهد من تدخل ابراهيم لمصلحة سدوم وعامورة ، سفر التكوين ١٨ ، ٣٨) . وهناك تقليد آخر يروي ان الملاك جبرائيل هبط خمس مرات في يوم واحد ليقوم بالصلاة امام محمد الذي فعل مثله . ويفترض هوتسما ، وفقاً لبعض الآيات القرآنية ، انه كان هناك اولا ثلاث صلوات تضاعف اثنتان منها . ويرى

غولد زيهر ان هناك تأثيراً فارسياً . والخلاصة فيما لا شك فيه ان هذا العدد لم يحدد في حياة محمد ولا يستطاع القول في اي عصر تم بصورة اكيدة .

وهذه الصلوات الخمس اليومية هي اجبارية على مسلم بالغ طاهر النفس : والمرضى معفون منها على ان يصلوها فيما بعد . وكل من يهمل الصلاة بارادته يعد كافراً . ولكن هذه الصلوات تفترض بعض الشروط مسبقاً : فعلى المؤمن ان يتطهر قبل الاقتراب من ربه. ومن الراجح ان هذا الطقس مستعار من يهود المدينة . وتنسب التقاليد الى محمد هذا الكلام : « النظافة من الايمان » . وقد ميز القانون الاسلامي حالتين من النجاسة : الحدث الاصغر الناتج عن لمس شيء غير نظيف وعن ارضاء الحاجات الطبيعية ، الخ ... والحدث الاكبر (الجنابة) المسبب عن العلاقات الجنسية ، والاحتلام الليلي ، والاستمناء والولادة .

ويقابل هاتين الحالتين نوعان من الطهارة: الوضوء الذي يجب القيام به قبل الصلاة دائماً : بماء طاهر شرعاً ، فيغسل المؤمن الوجه واليدين والذراعين الى المرفقين ، ويمر بيده اليمنى المبللة بالماء على الرأس ثم يغسل رجليه (القرآن ٥ ، ٨) . وعند عدم وجود الماء يمكن الاستعاضة عنه بالرمل (التيمم، القرآن ، ٥ ، ٩ ـ والصحيح الآية ٦) . اما الحدث الاكبر فيتطلب غسلا كاملا ودقيقاً للجسم (بما فيه الشعر) وذلك بالماء دون غيره . ويجب الاضافة ان كل دنس يحدث اثناء الصلاة يبطلها. وعدا ذلك فان

الملابسَ يجب ان تغطي المؤمن وفقاً للقانون (والنســاء يكشفن الوجه واليدين) .

وليس من الضروري ان تقام الصــلاة في مسجد . بل يمكن القيام بها في البيت او في العراء ايضاً ما عدا القبور والاماكن القذرة (كالمسالخ الخ . .) وفي هذه الحــالة فان المصلي يتوجه اولا نحو مكة (القبلة) ، ثم يتأكد من ان الارض ليست مدنسة ، ثم يحدد فيها فسحة (سترة) تعزله عن العــالم الخارجي اثنــاء الصلاة : ويجري وضع هــذا الحد عادة بشكل آلي وبواسطــة سجادة . ثم يذكر بصوت منخفض او مرتفع نيته في اقامة اية صلاة (صلاة الفجر الخ .

والصلاة الطقسية تتألف من العناصر التالية :

١ ــ الوقوف ، واليدان مفتوحتان على علو الكتفين . وتلفظ كلمة « الله اكبر » التي تؤلف تكبيرة الاحرام .

٢ ــ يبقى واقفــاً واليد اليسرى موضوعة في اليد اليمنى ، ويتلو الفاتحة ، اول سورة من القرآن .

٣ ــ ينحني بشكل تمس فيه كفّا يديه الركبتين .

٤ ــ ينتصب (الاعتدال) ويرفع يديه قائلا : « سمع الله لمن حمده » .

٥ ــ يضع ركبتيه على الارض ، ثم يديه ويسجد بشكل ان انفه يمس الارض (السجود) : وهو اوج الصلاة .

٦ ــ يبقى على ركبتيه ويجلس (الجلوس او القعود) .

٧ ــ يسجد من جديد (السجدة الثانية) .

ان تنوع المواقف هذا ، ابتداء من تلاوة الفاتحة يشكل ركعة . وصلاة الظهر ، والعصر ، والعشاء تتضمن اربع ركعات. وصلاة الفجر والمغرب (فترات اقصر) تتضمن بالترتيب ركعتين وثلاث ركعات .

وبعد السجدة الثانية يعود المصلي الى الجلوس ، وساقاه مطويتان ، ويتلو بالتتابع الشهادة التي يجب ان تردد بعد كل ركعتين ، ثم صلاة خاصة للنبي ، واخيراً ، صيغة « السلام عليكم ورحمة الله » تلفظ مرتين ، ملتفتاً الى اليمين ثم الى الشمال : وهو سلام مرسل اما الى المؤمنين واما الى الملاكين الحارسين . انها صيغة تسليمة التحليل التي تنهي الحالة التي خلقتها الصيغة الاولية « الله اكبر » .

وتنتهي الصلاة . ولا يخلو من فائدة ان نلاحظ انها لا تتضمن اي طلب . اما تفاصيلها فقد كانت موضع جدل بين ممثلي مختلف المذاهب . مثلا ، هل يجب تلاوتها بصوت منخفض او مرتفع ؟ ما هي الوضعية الصحيحة للذراعين واليدين ؟ . وينفصل الشيعيون حول هذه النقطة عن السنيين . اما المسافرون فيسمح لهم بايجاز الصلوات الخمس .

وهناك عدا هذه الصلوات الدينية صلوات اخرى اختيارية والمعروف منها صلاة الليل (وفي القرآن التهجد » ؛ ويجب ألا نخلط بينها وبين الصلاة الاخيرة من الصلوات اليومية الخمس . وصلاة الليل هذه تجعلنا بالضرورة نفكر بالايام التي تسبق الاعياد الدينية المسيحية (بشكلها القديم). ومن الراجح جداً ان هذا

التمرين الديني كان يمارس دائماً في ايام الاسلام الاولى (ولنتذكر سهر محمد) وقد اختفت صفته الاجباريـــة بعد تنظيم الصلوات الخمس الدينية . ومع ذلك فقد بقي مستعملا ، وخصوصاً اثنـــاء شهر رمضان . وهناك صلاة اختيارية اخرى هي صلاة الوتر ، وتتألف من اضافة ركعة واحدة الى العدد الزوجي من ركعـــات صلاة الليل. ومن المناسب ايضاً الاشارة الى صلاة النفل والتطوع، والصلاة التي يقام بهـــا في بعض المناسبات : صلاة الكسوف ، والخسوف ، والاستسقاء ، والصلاة الخاصة بالعيدين الدينيين في السنة ، والصلاة المقامة لتحقيق حاجة (صلاة الحاجة)، والصلاة التي تسبق القيام بعمل خطير (صلاة الاستخارة) .

والصلاة على الموتى (صلاة الميت او صلاة الجنـــازة) هي صلاة واجبة حيال كل مسلم ميت . ومع ذلك فقد نوقش هـــذا الفرض فيما يتعلق بالمفلس والمنتحر . يقف الامام على رأس النعش اذا كان الميت رجلاً وفي ناحية القدمين اذا كانت امرأة، وبعد ان يذكر فعل النية يتلو اربع تكبيرات وهو رافع يديه ؛ ولكنه يدمج الفاتحة ، اول سورة من القرآن، بعد التكبيرة الاولى ، وصلاة على النبي بعد التكبيرة الثانية ، ودعاء للميت بعد الثالثـــة ؛ ودعاء للحاضرين بعد الرابعة، وينهي بالتسليمتين والاتفاق ليس اجماعياً حول مكان هذه الصلاة : فقد يقام بها اما في بيت الميت واما في المسجد ، واما في المقبرة . وفي افريقية الشمالية يحملون الميت الى القبر وهم يرتلون « البردة » : « ليس ما يدعو لدهشة المستعرب كسماعه الابيات العشرين الاولى من هذه القصيدة ؛ انها مخصصة

لمدح النبي ولكن اولها ، كما هو الامر في معظم القصائد العربية ، قد استعمله الشاعر ليفجع على رحيل حبيبته » (دوتيه) . ويدرج الميت في كفن ويوضع في حفرة .

والصلاة الدينية تتلى على انفراد ولكن من الافضل ان تتلى في جمع من الناس . ومن الافضـــل ان تكون في مسجد ، دون تحديـــد عدد المشتركين ، اذ يقف المؤمنون في صفوف منتظمة (النساء وراء) . وهذه الصلاة تدعى جامعة ويقودها إمام حيث تقلد الاوضاع الطقسية بدقة . والصلاة الجامعة هذه تصبح فرضاً نهار الجمعة (صلاة الجمعة) . ويقام بها عند الظهر ويستعاض بها عن صـــلاة الظهر ، ويرى الشافعيون ان من الواجب ان يكون هناك اربعون مصلياً لتكون ذات قيمة (والنساء لا يشتركن بها)، وتتألف من خطبة وركعتين . ويصلى عادة ركعتان قبل الخطبة . وهذهالخطبة كان يلقيها الخليفة او ممثله في باديءالامر ثم استعيض عنهما شيئاً فشيئاً بواعظين محترفين (خطباء) .

وليس من الضروري ان يكون نهار الجمعة يوم راحـــة عند المسلمين .

وقد جرى وصف المسجد كثيراً ولذلك لن نسهب في وصفه: قاعة صلاة قائمة على اعمدة ، وفي صدر هذه القاعة ، في منتصف الجدار ، مخدع كثير الزخرف او قليله ، هو المحراب ، ويعـــين اتجاه مكة (القبلة) الذي لا بد منه لصحة الصلاة : يقف الامام متجهـــاً الى المحراب : والى جانب المحراب يوجـــد منبر الواعظ ،وهنـــاك دكة مخصصة لقراء القرآن الرسميين اثنـــاء

الاحتفالات العامة ؛ وفي الجهة المعاكسة للمحراب يوجد صحن المسجدالذي يكون سوره عادةً محاطاً من الداخل بأروقة مسقوفة، مع ملحقات لأجل الوضوء . وللمسجد مثال اصلي هو « ساحة في بيت النبي ؛ وفي احد الاطراف نوع من المأوى لإيواء المؤمنين . ولا يمكن الشك في ان الكنائس الملكية المسيحية التي اختير منهـا اكثر من واحدة لممارسة العرب المنتصرين عبادتهم ، قد اوحت بعض التجهيزات » (ج.مرسيه) . وفي احدى زوايا المسجد تنتصب المأذنة ويقف المؤذن في اعلاها (ومن الافضل ان يكون اعمى لئلا يطلع على اسرار الدور والسطوح) ويرتل بصوت حاد أذان الصلوات اليومية الخمس . والاذان السني يتألف من الادعية التالية: «الله اكبر! اشهد ان لا اله إلا الله ! اشهد ان محمداًرسول الله ! حي على الصلاة ! حي على الفلاح ! الله اكبر ! لا إله إلا الله ! » وهي ادعية تكرر عدداً من المرات يختلف وفقاً لمدارس الفقه. والاذان الشيعي يدرج الدعاء التالي بين الخامس والسادس: « حي على خير العمل ! » وهو ادراج يدل على اعتناق المذهب الشيعي في منطقة ما .

الصوم . ــ لم يثبت ابداً ان ممارسة الصوم كانت مجهولة في مكة قبل الاسلام. وقد يمكن التساؤل اذا كان الحنفاء، أولئك الزهاد الذين سبقوا محمداً، لم يأخذوا الصوم عن اليهود والمسيحيين الذين اتيحت لمحمد فرصة ملاحظتهم. والقرآن في اجزائه المكية لم يتكلم بصراحة عن الصوم (راجع ١٩، ٢٧)؛ ولكن محمداً بعد الهجرة، وبعامل من تقليد يهود المدينة، سن صوم عاشوراء(«اليوم العاشر»،

راجـــع سفر اللاويين ١٦، ٢٩) : وكان هذا الصوم يستمر ليس طول النهار فقط بل من مغيب الشمس حتى مغيبها في اليـــوم الثاني ، وذلك وفقاً للطقس اليهودي . وفي السنة الثانية للهجرة (الاحاديث متفقة حول هذه السنة) ، وعلى اثر توتر العلاقات بين محمد واليهود ، جعل شهر رمضـــان شهراً للصوم ، واصبح يوم عاشوراء اختيارياً . ويرى المسلمون ان محمداً في طهارتـــه الاولى أقر من جديـــد ذلك الصوم الذي أمر الله به اليهود والمسيحيين ، وكانوا قد افسدوه . ولكن الجاهليـــة العربية وفقاً لرأي ونسنك كانت تعتبر شهر رمضان شهراً مقدساً ، وربما كان هذا هو الذي اثر على اختيار محمد .

وقاعدة الصوم الاساسيـــة شرعت في القرآن (٢، ١٧٩ ـــ ١٨١) : الصوم اجباري في رمضان إلا على المرضى والمسافرين الذين يستطيعون اسقاطه عنهم مقابل بدل . وهناك آيات قرآنية اخرى تأمر بصوم تكفيري او وفائي (راجع الموسوعة الاسلامية، الجزء الثالث ، صفحة ٢٠١) .

اما الشروط التي لا بد منها لصحة الصوم فهي : تعقد النية على الصوم قبـــل فجر كل يوم : ويجب ألا تكون المرأة في حالة دنس مشروع . ويمنع منعاً باتاً ادخال اشيـــاء مادية (اطعمة ، دخان، مخاط، تقطيرات) ، وإمساك محتويات الامعاء ، والفصد، والحجامـــة ، والتعرض لهيجان جنسي . ومع ذلك فالصائم اذا اكل سهواً لا يفسد صيامه .

ويجب ان يراعى الصوم بكل دقـــة من شروق الشمس الى

غروبها . وبعد الغروب يتناول الصائم الفطور، وهي وجبة خفيفة لإنهاء الصوم ، ثم يتناول وجبة ثانية ، هي السحور ، وذلك قبل بدء الصوم ، وفي نهاية نهـــار الصيام يشكر المؤمن الله ، ومن الافضل قراءة القرآن .

وكل من يتنكر لواجب الصيام يعد كافراً ، ومن يعفي نفسه منه دون عذر مقبول يجب ان يسجن. ويبتدىء الصيام عند ظهور الهلال الجديد في شهر رمضان ، وفقاً لرؤيته من قبــل شاهدين عدلين ، او بناء على امر من القاضي او من سلطة موازية .ويعلن عن بدء الصوم بطريقة تختلف حسب البلدان (طلقة مدفع ، بيرق مرفوع على المآذن الخ .) .

وعدا ذلك فان الصوم اجباري في بعض الحالات : تعويضاً عن الايام التي لم تصم في رمضـــان ؛ وعلى اثر نذر ، وعلى اثر احتفالات امر الامام بها في حالة الجفــاف (الاستسقاء) ، وفي حالة الكفارة الكبرى (شهران متتابعان من الصوم) حين يتقطع صيام رمضان بسبب التجارة الجنسية؛ وفي حالة الكفارة الصغرى (الفدية : فترة من الصيام او الصدقة) عند الاستفادة من اعفاء شرعي مقبول . امـــا المعفون من الصيـــام فهم : صغار السن ، والمرضى (مقـــابل صدقة ككفارة) ، والنساء الحوامـــل ، والمرضعات (مقابل صدقة او بدل حسب الحالة) ، واولئـــك الذين يقومون باعمال مرهقة (في حالة الحاجة) .

ومن ناحية اخرى فان الصيام الارادي او النافل (زيادة عن الواجب) موصى به خصوصاً في يوم عاشوراء ويوم عرفة (راجع

الحج) ، وستة ايام من شهر شوال . وبعكس ذلك يمنع الصوم في العيدين الكبيرين ، وعند الخطر . ومما يستحق اللوم صوم نهار الجمعة ، ونهـــار السبت (يوم اليهود) ، ونهـــار الاحد (يوم النصارى) .

ووفقاً للرأي السائد فان الصوم ، وخصوصاً صوم رمضان ، يشكل افضل تكفير عن الذنوب المرتكبة اثناء السنة ؛ وقد رأى فيه الغزالي ، العالم الديني الكبير ، وسيلة مؤكدة لقهر الرغبات .

ويضيف المؤمنون طوال شهر رمضان الى الصلوات اليومية الخمس صلاة مؤلفة من عشرين ركعة يقام بها مساءً بقيادة امام . واخيراً فان قطع الصوم الذي يكون في اول يوم من شهر شوال يحتفل به بـــأحد العيدين السنويين الكبيرين : عيد الفطر او العيد الصغير او (كوتشك ــ بيرم في تركيا) مقـــابلا للعيد الكبير ، وذلك لأنه ينهي الصوم ؛ وهذا العيد يشتمل على صلاة تقام في العراء (راجع التفاصيل في الموسوعة الاسلامية مادة « عيد » ، وهي صلاة توزع صدقة الفطر على الفقراء قبل القيام بها ،وتكون اربع كيلات من الاغذية عن كل فرد من افراد العائلة ، ويجب الا نخلط بين هذه الصدقه والصدقة الشرعية (الزكاة) التي تشكـــل الركن الرابع من اركان الدين .

الزكاة . ــ الزكاة مؤسسة عـــلى فكرة مشتركة بين العرب واليهود : ان اموال هذا العالم هي دنسة ، ولكن من المسموح به ان تكتسب ويجري التمتع بها بشرط ان تطهر وذلك باعادتهـــا جزئياً الى الله. وبالاختصار فان كلمة « زكاة » الدالة على الصدقة

الشرعية لها معنى بدائي هو « التطهير » .

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ... » (القرآن ٣ ،٨٦ والصحيح الآية ٩٢) ، او ايضاً : « ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله احسن مما كانوا يعملون » . (القرآن ٩ ، ١٢٢) .

ومن المعلوم ان الصدقة يجب ألا تعطى لأجل المباهاة (٤ ، ٤٢) .

وكلمة اخرى : ان الصدقة (وبالضبط صدقة التطوع) تدل على الصدقة الإرادية ، وما من شك في انها مشتقة من العبرية « صدقة » (« عدالة » ثم « صدقة ») . والتمييز الواضح بين هاتين الكلمتين لم يتقرر إلا مع الزمن . وقد استعملت الواحدة منهما مكان الاخرى في القرآن وفي مجموعات الحديث وحتى عند الكتاب اللاحقين. وفي كل حال فان الفئات نفسها من الاشخاص مدعوة شرعاً للاستفادة من الزكاة والصدقة : أولئك الذين يوزعونها ، والفقراء والاسرى المسلمون عند المشركين ،والمخبرون والمشتركون في الجهاد ، والمسافرون . اما أعضاء عائلة النبي فليس لهم فيها اي حق عند السنيين ولكن الشيعيين اجازوا لهم ان يأخذوا نصيبهم منها .

والصدقة التي ورد الأمر بها في القرآن بوضوح (٥٨ ، ١٤) واجبة على كل مسلم سليم الجسم والروح ، سواء كان يملك قطعانا او دخلا سنوياً محدوداً، ام انه يحصل على ارباح زراعية وصناعية وتجارية . ولا يتوجب شيء على المالك الا ابتداء من دخل ادنى

عدد (نصـــاب): وهذا الدخل الادنى قد قدّر للصنـــاعي او التاجر بخمسة مثاقيل من الفضة ، وللزارع بخمسة احمال من التمر او الحبوب ، ولمربي المواشي بخمسة جمال او ثلاثين رأســـاً من الماشية الكبيرة او اربعين رأساً من الماشية الصغيرة .

وبالاجمال فان الامر يتعلق بمكس ، وبالاحرى بعشر يقتطع من مداخيل الاغنياء ويوزع على الفقراء . والمعدل ، وهو عموماً عشر ، يمكن ان ينخفض الى جزء من عشرين اذا كانت المداخيل قد جاءت بنتيجة اعمال كثيرة التكاليف .

ومبدئياً فان الزكاة تدفع عيناً. فهناك جاب يعاونه مساعدون ويقوم بالجباية . فيجبي مباشرة ما يتعلق بانتاج الارض . اما في القيم الاخرى فيعود فيهـــا الى تصريح المكلفين الذي يكون في الغالب خاضعاً للضمانة . وبما ان الزكاة لا تطال القيم التي تبقى في يدي مـــالك واحدُ اقل من سنة ، فاننـــا ندرك ان هناك غشاً يرتكب .

اذن فالزكاة فقدت بالتدريج صفتها الخيرية لتصبح ضريبة تدفع نقداً ؛ وقد تبدل حتى اسمها (فهي في الجزائر « عشور » مثلا) . اما الصدقة الاختيارية فان المسلمين يمارسونها دائماً عـــلى نطاق واسع . وأحد اشكالهـــا الاكثر اهمية والاكثر قدماً هو التخصيص النهـــائي (الوقف) لمداخيـــل عقار لأجل ضمان مؤسسات دينية او لتشييد ابنية عـــامة (« حبوس » في الغرب و « وقف » في الشرق) . وهـــذه المؤسسات ترتبط بالزكـــاة الشرعية لان هناك دائماً تخصيص في عملية نقل الحق من شخص

الى آخر كما هو الامر في حالة عدم وجود اصحاب هذا الحق ، ومداخيل الماء الذي يشكل الهبة تخصص للفقراء . وقد ادت هذه الهبات خدمات عظيمة للاسلام وذلك بمساعدتها على تشييد ابنية ذات منفعة عامة (جامعات ، مستشفيات الخ .) ولكن مع الزمن ، وعند عدم كفاية هذه المداخيل ، فان كثيراً من هذه المؤسسات الدينية تصبح غير مثمرة ، وازدياد عددها يجعل الشر اكثر تفاقما ، وقد توصلوا في بعض البلدان الى انتهاك مبدأ عدم النقل او البيع او الهبة وذلك بتأجير الاموال المجمدة بشكل ابدي وليس هذا سوى بيع مقنّع .

الحج . ـ اذا كانت الشهادة ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة هي اجبارية بشكل مطلق فان الحج هو فرض اقل إطلاقاً لان الصعوبات المادية تحول دون القيام به في الغالب . وعلى كل مسلم بالغ ، رجلاً كان او امرأة ، ان يحج مرة واحدة على الاقل في حياته بشرط ان يكون في حالة الاستطاعة (القرآن ٣ ، ٩١) . ومن المسموح به الاستعاضة بوكيل (يحج بالنيابة عن المكلف) . وعدا ذلك فيعفى من الحج المجانين والارقاء ، والنساء اللواتي لا قريب لهن ليرافقهن ، وهناك اسباب اخرى للاعفاء هي نقص الموارد وانعدام الامن على الطرقات : فقد كان الحجاج في كل زمن يشكون من اللصوصية ، وقد اضطرت سلطات مكة الى عقد اتفاقات مع رؤساء قبائل البدو لتكفل الامن للحجاج مقابل مبلغ يدفع (صرة) . وهؤلاء الحجاج يشكلون قسما من القوافل السورية (وهي الاكثر اهمية) والمصرية ، والعراقية ، والمغربية ،

والقارسية الآتية عادة بطريق البحر ، وتتمثل فيها جميع الطبقات الاجتماعية . وبالتأكيد فان عدد الحجاج اخـــذ بالارتفاع منذ تأسيس لجنة صحية في جدة وبلغ ٧٠٠٠٠ كمعدل وسط ، وهو رقم وضيع بالنسبة لعدد المسلمين الاجمالي . ويحتفظ الحج باهميـــة رئيسية ، سواء كان بسبب نتائجه السياسية والاقتصادية او بسبب قدمه . وبالفعل فهو يبدو مزيجاً من البقايا الوثنيـــة والطقوس الجديدة ، والمزارات التي يزورها الحاج في مكة هي اماكن عبادة قبل الاسلام .

وقد رأينا الموقف الذي اتخذه محمد حيال الحج . ويمكن انه اراد بعد الهجرة ان يؤسس في المدينة مزاراً منافساً لمزار مكـــة ولكنه ادرك ان من مصلحته ان يتفق مع الحزب القرشي (وهو قوة سياسية واقتصادية) وانه لن يستطيع القضاء على الطقوس المكية التي تحفظها اقدميتهـــا بشكل متين . وهذا ما جعله يعقد العزم ، بعد الهجرة بستة عشر شهراً او بسبعة عشر ، على ان يترك التوجه في الصلاة نحو مدينة اليهود المقدسة ليتوجـــه الى مكة : واصبح الحج طقساً اسلامياً (القرآن ، ٥ ، ١٣٦) .

وسنجد في كتاب غودفروا ديمومبين (الحج الى مكة) دراسة دقيقة عن طقوس الحج . وهذه الطقوس تقسم فعلا الى سلسلتين: فمن ناحية اولى ، الحج البدائي الباقي تحت شكل طقوس (العمرة) والتي يمكن للمرء ان يقوم بها بمفرده وفي اي وقت كان من السنة ما عدا شهري الحج (ذو القعدة وذو الحجة) . اما الحج فيشمل طقوس العمرة بدقة مع طقوس المزارات المجاورة ، وهـــذا

بالاجمال ، ونعيد قول ذلك ، مزيج من الاعمال المنفصلة في اول الامر .

وليس هناك من فائدة في العودة الى مظهر منطقـة مكة . ولكن من الموافق ان نصف المزار الرئيسي فيها باختصار : ان اسم « الكعبة » قد اتى من شكل البنـاء الذي يشبه قمعاً (كشتبان) ، ولكنه في الحقيقة مستطيل – ١٠ امتار في ١٢ متراً تقريباً بعلو ١٥ متراً . والكعبة المبنية بحجارة رمادية من الجبال المجـاورة تستند الى مدماك من الرخام علوه ٢٥ سنتيمتراً ، وزواياها الاربع (اركانها) مسماة بالتتابع : العراقية ، والسورية، واليمنية (وفقاً لاتجاهها) ، والسوداء (بسبب الحجر الاسود) . وهي مغطاة من الخارج بغطاء من البروكار الاسود (الكسوة) يصنع كل سنة في مصر وتنقله القافلة الآتية من تلك البلاد (راجع الستار المقدم الى اثينا من حجاج باناتينيس) . وقبـل وصول الحجاج بقليل ، (في ٢٥ أو ٢٨ من ذي القعـدة) تستبدل الكسوة السوداء بغطاء ابيض : فالكعبة ترتدي ملابس الاحرام كالحجاج . وفي نهايـة الحج يلبسونها الكسوة السوداء الجديدة (الكسوة القديمة تقطع قطعاً وتباع كذخائر) . وباب الكعبة على علو مترين فوق الارض . وفي ايام فتحه يوضع عليه درج خشبي. وفي الداخل ثلاثة اعمدة خشبية ترفع السقف ، وليس هناك اي قطعة اثاث ، اما المصابيح والكتابات فكثيرة ، والارض مبلطة بالرخام . وفي الخارج مطاف يستعمل لدورات الحجاج الطقسية (الطواف). وامام باب الكعبة انخفاض في هذا المطاف. ويعتقد

انه الجرن الذي كان ابراهيم واسماعيل يصنعان طينهما فيه وهما يبنيان الكعبة (القرآن ٢ ، ١١٩) ؛ وهناك من ناحيـــة اخرى حجر صعد اليه ابراهيم وهو موجود داخل بنـــاء صغير (مقام ابراهيم) مبني في الساحة ؛ وغير بعيد عن هذا المقام ينتصب منبر من الرخام الابيض . وهنالك قبـــة صغيرة تفيء على بئر زمزم ، نواة هذا المزار (دون ان نتكلم عن النصب الاخرى: راجع نظرة اجمالية عند غودفروا ديمومبين، وعند مايرهوف «العالم الاسلامي» . وهناك نوع من المربض واقع بين جدار الكعبة وجدار رخامي على شكل نصف دائرة ويعتـــبر مكان قبر هاجر واسماعيل . والمعتقد ان عدة مئات من الانبياء قد دفنوا حول الكعبة .

وتعرضت الكعبـــة في عدة مناسبات لأذى الزمن والناس : حصار وحريق وكسر الحجر الاسود عام ٦٨٣ (حصار قام به عبد الله بن الزبير الذي هدم المعبد ثم اعاد بناءه على الاثر) ؛ وفي عام ٩٢٩ ، غارة القرامطة الذين اخذوا الحجر الاسود ولم يعيدوه الا بعد عشرين سنة ؛ وفي عام ١٦٣٠ ترميم كامل كان ضرورياً بسبب مفعول تغير الطقس مع الزمن وبسبب الفيضانات الدورية.

وارض مكة مقدسة (حرام) ويمنع اخذ اي قطعة من ارضها منعاً باتاً : وهذه الصفة المقدسة سبقت الاسلام . وقبل ان يدخلها الحـــاج يجب ان يضع نفسه في حالة الاحرام ، فيغطي جسده بملابس تدعى ملابس الاحرام ، ويقوم قبل ذلك بالاغتسال ، ويخضب اظافره ، ويتعطر (تلاوة العزائم في البدء) ويحلق شعر رأسه احياناً . وملابس الاحرام التي ليس فيها اي خياطة تشتمل

من ناحية لحل قطعة قماش تلتف حول الجسم والبطن الى الركبتين (لزار) ، ومن ناحية اخرى نوع من الشال يغطي قسما من الكتف الشمال والظهر والصدر وينعقد في ناحية اليمين . وهذا اللباس ، السابق للاسلام، لا يعدم الشبه بلباس العبرانيين القدماء! والرأس يجب ان يبقى عارياً، والحذاء وحده مسموح به، اما النساء فيلتففن عادة بلباس من الرأس الى القدمين ، وحالة الاحرام هذه تحرم العلاقات الجنسية ، والاعتناء بالزينة ، والصيد ، واقتلاع النباتات واراقة الدم .

وحينئذ يتلو المؤمن صلاة ويعقد نيته على القيام بالحج والعمرة معاً ، او واحد منهما فقط . ثم يعين الذبيحة التي سيضحيها وبعد ذلك يبدأ بالهتاف : « لبيك ! » وهو هتاف يلفظ باستمرار حتى موعد رمي الجمار . وعند وصوله الى مكة يطوف سبع مرات حول الكعبة (الطواف) ويدخل الى ساحة المزار ، ويقبل الحجر الاسود (او يلمسه لمساً اذا كان الحشد كثيفاً) ! ثم يخرج من المزار ويعقد النية على القيام بالسعي ، وهو زيارة التلّتين : الصفا والمروة . وقسم من المسافة يقطع هرولة ، وهو طقس وثني يفسره الاسلام باساطير متنوعة ومنها بشكل خاص : ان هاجر ركضت سبع مرات بين هاتين التلتين باحثة عن الماء لاسماعيل .

اذن فالقسم القديم من طقس العمرة هو زيارة ثلاثة مزارات. فاذا اكتفى المؤمن بذلك فانه يحلق شعر رأسه وبذلك يتحلل من جميع الموانع الطقسية . ولكنه اذا عقد النية على اضافة الحج الى العمرة فانه يظل في حالة الاحرام . والحج ، بعكس العمرة ،

يجب ان يتم بحشد عام ولا يبدأ الا في تاريخ معين . وهـــذه هي قواعده :

١ ــ في السابع من ذي الحجة : وعظ في مسجد الكعبة ، وفي المساء او في صباح الغد يترك الحجاج مكة .

٢ ــ في الثامن منه : يذهب طواف الحجيج الى منى ، ثم الى المزدلفة ، ويقف على جبل عرفات ، والسهل المقفر عادة يتغطى بخيام واكواخ تذكرنا باسواق الجاهلية العربية ، وكثير من الحجاج يصعدون التلة منادين : « لبيك ! » . اما الليل فيقطع بالصـــلاة او بالسمر .

٣ ــ واليوم التاسع هو ذروة الحج : يوم العبـــادة . ويقارن هورنسيا، هذا الوقوف بوقوف العبرانيين في سيناء (سفر الخروج ١٩ ، ١٠ ــ ١٥) . وبعد ان تجتاز الشمس خط الهاجرة يصل احد الأئمة على جواده الى قمة جبل عرفات فيعظ ويتلو ادعيـــة دينية وسط التأثر العـــام . وما ان تختفي الشمس في المغيب وراء الجبال حتى تكون (الافاضـــة) ، وهي ركض عنيف مشوش ، بين الموسيقى ، واطلاق الرصاص والاسهم النارية ، نحو المزدلفة حيث يقضون الليل .

٤ ــ وفي العاشر منه : منذ ساعة مبكرة ، وبعد تعبد ووعظ، يرحلون الى منى . وهنالك ثلاثة طقوس تشغل هذا النهار : يقذف الحاج على احدى اكوام الحجارة الثلاث في منى (الجمرة) سبع حصى صغيرة تلتقط في المساء من المزدلفة ، ويذبح ، او تذبح له الضحية (نعجة ، معزاة ، او جمل حسب امكاناته) التي يكون

قد عينها عند دخوله الاراضي المقدسة . ولحم هذه الضحية يعطى في الغالب للفقراء (صدقة : ومعظمها يبقى في مكانه) . وهي تضحية لها مكانها في جميع العالم الاسلامي في العيد الكبير وذلك في العاشر من ذي الحجة والايام الثلاثة التي تليه (ايام التشريق) : واخيراً يحلق الحاج شعر رأسه ويقلم اظافره (ويدفن الشعر والاظافر باعتناء) . وحينئذ يجد نفسه في نصف التحلل . ولن يتحلل نهائياً الا بعد ان يزور الاماكن المقدسة في مكة ومنى والصفا والمروة من جديد .

وكثير من الحجاج يضيفون الى حج مكة زيارة قبر النبي في المدينة ، واحياناً ايضاً يسافرون الى القدس ، مدينة الانبياء ومسجد عمر .

وهذا الحج الى قبر محمد يجعلنا نشير الى الزيارة التي يقوم بها الشيعيون لقبور أئمتهم . والمدن المقدسة عند الشيعة هي : كربلاء (قبر الحسين) ، والنجف (قبر علي حيث يوصى الشيعيون بان يدفنوا حوله) ، والكاظمين قرب بغداد (قبر الامامين السابع والتاسع) ، وسامراء (قبرا الامامين العاشر والحادي عشر ودهليز الامام الثاني عشر) . وهذه المدن المقدسة وصفها أ. أوبان وصفاً جيداً في كتابه (بلاد فارس اليوم ، الفصل السادس عشر) . وفضلا عن هذه المدن في بلاد ما بين النهرين فهناك مزاران في بلاد فارس : مشهد (قبر الامام الرضا) ، وقم (قبر فاطمة اخت الامام الرضا) . وسنرى ان العبادة التي يقوم بها الشيعيون للأئمة المتحدرين من علي تقود الى عبادة القديسين

والشهداء .

ولكي ننتهي من الحــج الى مكة نستطيع تميز ثلاثة عناصر اساسية فيه . اولا عنصر ديني : فالمسلمون يرون فيه وسيلة اكيدة للحصول على المراحم الإلهية. وبعد ذلك، عنصر سياسي تقليدي: فالحج يلعب ، من ناحية المبدأ على الاقل ، دور جمعيــة كاملة للمؤمنين. واخيراً عنصر إتنوغرافي ـ علم خصوصيات الشعوب ـ: طقوس تضحية الشعر ، طقوس المرور وطقوس فصلية ، طقوس المشي تظهر بوضوح يكثر او يقل في اعمال الحج المتتابعة : ولن نفيض هنا في ذلك رغم اهمية القضية وفائدتها العمومية (راجع حول هذه النقطة الموسوعة الاسلامية ، المجلد الثاني ، صفحــة ٢١٢ ـ ٢١٤ ، وكتاب غودفروا ديمومبين) .

ب ـ الاوامر

رأينا ان القرآن يتضمن عدداً من الاوامر ، وخصوصاً في السور الثالثة والرابعة والخامسة . وهذه المبادىء قد طورت فيما بعد بواسطة الفقه . والعادات المحلية لم تكن دون تأثير على هذا التطور . وقد عالج غودفروا ديمومبين القضيــة في كتابــه « المؤسسات الاسلامية » ولا مجال للعودة اليها . ولكن ليس من العبث تعداد عناصر التنظيم الاجتماعي التي ظهرت في القرآن .

ان القرآن قليل الرأفة بالنساء « او من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين » (٤٣ ، ١٧) ، والنساء والاولاد يصرفون

الرجل احياناً عن واجباته حيال الله (٦٤ ، ١٤) . ومع ذلك فان القرآن اسبغ موهبة الكمال على امرأتين (٦٦ ، ١١) هي آسيا زوجة فرعون ومريم ام عيسى ، وسيضيف محمد اليهما زوجته خديجة وابنته فاطمة . ومن ناحيـة اخرى فان القرآن يهاجم الإستياء الناجم عن ولادة الابنة (١٦ ، ٦٠) ويذم الجاهلية التي تئد البنات (٨١ ، ٨) .

ونعلم ان القرآن يسمح باربع زوجات شرعيات كحد اعلى (٤ ، ٣) ، « والمحصنات من المؤمنات والمحصنـات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ... » (٥ ، ٧ ـ والصحيح الآية ٥)[1] (دون ان نذكر الإمـاء) بشرط ان يكون الرجـل في حالة القدرة على القيام بحاجاتهن . واذا كان غير قادر فمسموح له بالزواج من أمـة (٤ ، ٢٩) ، ولا يستطيع الزواج من احدى نساء اهله في اية حالة (٤ ، ٢٧) ولكن من حقـه الزواج من امرأة مطلقة من ولده بالتبني (٣٣ ، ٣٧) ؛ (اشارة الى زينب التي طلقها زيد ابن محمد بالتبني والتي تزوجها محمد بعده) . أمـا الزوجة فلن تحمل أية بائنة؛ ونجد في القرآن عادة الجاهلية العربية: منح العروس هدية (مهراً) ؛ ولكن هذه الهدية ليس لها صفتها الاولية كثمن للشراء : انها تعويض يبقى خاصاً بالمرأة ؛ حتى في حالة الانفصال (٤ ، ٢٣ ـ ٢٥) .

وقد الغى القرآن العادة الجاهلية في زواج الأخ من زوجـة

---

١ ـ اخطأ المؤلف كثيراً في ترجمة هذه الآية . ـ المترجم ـ

اخيــه المتوفي لحفظ نسله . فالأرملة تستطيع التصرف بأمرها وتتزوج من جديد بعد مهلة اربعة اشهر وعشرة أيام (٢،٢٣٤) ، وكذلك فان على المرأة المطلقة ان تنتظر مرور وقت ثــلاث حيضات قبل زواجها من جديد (٢ ، ٢٢٨) ، وهي مهلة يحتفظ الزوج فيها بحق إرجاع مطلقته .

وحق فسخ الزواج عند عرب الجاهلية يخص الرجل وحده ؛ وقد رأينا ان القرآن يترك للمطلقة صداقها ؛ ونجد فيه ايضاً أوامر اخرى تتعلق بانفصال الزوجين سواء جاء هــذا الانفصال من الرجل أو من المرأة . فقد يحدث مثــلاً ان يستعمل الزوج حق اعادة زوجته المطلقة قبل نهاية المدة المأمور بهــا ، وبطلاقها مرة ثانية يجبرها على انتظار انتهاء مهلة جديدة . وهــذا على أمل ان تترك صداقها ؛ ولكن سوء الاستعمال هذا قد عالجــه القرآن في آيتين (٢ ، ٢٢٩ وما بعدها) : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح باحسان ... فان طلقها (مرة ثالثة) فلا تحــل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فان طلقها فلا جنــاح عليهما ان يتراجعا ... » .

أما الاولاد فمصيرهم مستدرك في حالة الطلاق : « واولات الاحمال اجلهن ان يضعن حملهن (٦٥، ٥) « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد ان يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ... وان أردتم ان تسترضعوا اولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا ان الله بما تعملون بصير » (٢ ، ٢٣٣) . وكذلك فان القرآن حل

على وأد البنات وحرّم قتل الاولاد « خشية املاق » (١٧، ٣٣) .
اما اليتامى فان القرآن قد ألح على الالتفات الخاص الواجب نحوهم وعلى حسن ادارة أموالهم الى ان يبلغوا أشدهم (٤، ٢ـ٦). ومن ناحية اخرى فانه يذكر في عدة مناسبات بواجبات الاولاد حيال آبائهم (خصوصاً ٤٦ ، ١٤ وما بعدها) .

والأرقاء يرتبطون بالعائلة. وقد أمر القرآن بمعاملتهم بالحسنى (٤ ، ٤٠) واحتفظ لاعتاقهم بقسم من الصدقات (٩ ، ٦٠)؛ وهم يعتقون بناء على طلبهم اذا رؤي انهم اهل لذلك (٢٤ ، ٣٣) ؛ وهناك ايضاً إعتاق للرقيق حين يطلق رجل امرأته علناً بلفظه هذه الصيغة : « ليكن ظهرك عليّ كظهر امي » ثم يريد الرجوع عن عزمه (٥٨ ، ١ و ٤) .

ومبدأ الوراثة موجود في السورة الرابعة ولا فائدة من ذكر التحليل أو النص لهذه الآيات الواضحة جداً .

وكل وصية ، او تعهد بدفع دين يجب ان يتم بحضور شاهدين يؤكدان حسن نيتهما بحلف اليمين في حالة الشك (القرآن ٥ ، ١٠٥ وما بعدها و ٢ ، ٢٨٢) . ويسمح بالتحلل من القسم (٦٦ ، ٢) ؛ ولكن نكث القسم يتطلب كفّارة : إطعام أو كساء عشرة فقراء ، او إعتاق رقيق ، او صوم ثلاثة ايام (٥ ، ٩١) . والشهادة الكاذبة التي هي جريمة (٢ ، ٢٧٧) يجب ان يعاقب عليها (٢٤ ، ٤) . والشهادة يجب ألا تكتم مطلقاً (٢ ، ٢٨٣) حتى لو كانت شهادة المرء على نفسه (٤ ، ١٣٤) .

وهناك عبارة هي : « حدود الله » تظهر في القرآن في عدة

مناسبات وتدل على الاوامر وعلى النواهي ايضاً (وخصوصاً في ٢ ، ١٨٣ ـ والصحيح الآية ١٨٧ : « ... تلك حدود الله فلا تقربوها .. » او ايضاً في ٦٥ ، ١) . وقانون العقوبات بجزأ في القرآن . ومن العقوبات الاربع التي يأمر بها القانون الاسلامي المنظم (الشريعة) : القصاص ، ودية القتيل ، والعقوبة المحددة شرعاً (الحد) ، والقصاص الذي يفرضه القاضي ، فان الاثنتين الاوليين فقط موجودتان في القرآن . والعقوبة حسب القانون إما ان تكون من حق الانسان الخاص وإما ان تكون من حق الله : ففي الحالة الاولى تنفذ العقوبة بناء على طلب المشتكي ؛ والقرآن يأمر دائماً بمقابلة الشر بالخير (٢٣ ، ٩٨ ؛ ٤١ ، ٣٤) ، ويعد بالجنة من يعفو (٣ ، ١٢٨) ، ولم يكن اقل احتفاظاً بالدية والقصاص اللذين يعود تاريخهما الى الجاهلية . وبالاجمال فان العقوبة تمثل تطهيراً من الذنب في الاسلام كما كانت في الجاهلية .

أما القصاص فان القرآن يحصر الثأر بشخص المجرم : « يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى ... » (٢ ، ١٧٣ ـ والصحيح الآية ١٧٨) ؛ وهو أمر موجز يترك المجال حراً لتأويل الحالات الاخرى ؛ والمقطع نفسه ، بعكس الجاهلية ، يرضى باسقاط العقوبة ودفع تعويض ، ولكن هذا يكون في حالة القتل لاول مرة وليس في حالة تكرار الجرم . والقرآن يذكرنا (٥ ، ٤٩) بتدابير أسفار موسى الخمسة المتعلقة بالقصاص ويميز بين القتل المتعمد والقتل بسبب عدم الحيطة . وهذا الاخير يلغي القصاص ويستعيض عنه

بالدية. وفي الحالة الاولى « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ... » (٤ ، ٩٥ ـ والصحيح الآية ٩٣) . والحالة الثانية سويت بآية سابقة . فالقتل غير المتعمد لمسلم او لممثل شعب حليف جزاؤه إعتاق رقيق ودفع ثمن الدم للعائلة (إلا اذا تخلت عنه) ؛ وقتل مسلم من امة عدوة يقتصر على اعتاق رقيق . وقد اصبحت الدية واجبة الاداء فيا بعد في حالة اتلاف بعض اعضاء الجسم .

ومختصر القول فان القرآن استنكر القتل بوضوح إلا في حالة الحرب المقدسة (٥ ، ٣٧) . اما القصاص فان الاوامر القرآنية تلطف العادة الوثنية .

وتحريم الانتحار لم يدرج بوضوح في القرآن (٤ ، ٣٣) ولم يوضح إلا في الحديث ؛ وكذلك قتل الزاني رجماً بالحجارة فانه ظهر في القرآن متأخراً ، وهو اقل قساوة منه في سفر اللاويين ، ويحدد بمئة ضربة سوط للمذنبين، وبالعزلة الدائمة للمرأة(٤،١٩).

والامر على العكس فيا يتعلق بالسرقة لان القرآن يبدو اكثر قساوة من الجاهلية : فقد كانت السرقة تعتبر حينذاك شائنة إذا ما أضرت بضيف او بعضو من القبيلة ، ولكنها كانت تستفيد من العفو ؛ والقرآن يأمر بقطع يد السارق او السارقة (٥ ، ٤٢) : وهي بدعة يبدو انها ذات اصل فارسي . اما الربى فممنوع منعاً باتاً في عدة آيات (مثلاً ٢ ، ٢٧٦) .

والمحرمات من الاطعمة تظهر في سلسلة من المقاطع : فتحريم الخمر لم يكن مباشراً . وقد اظهر الاب لامنس ان ارض بـــلاد

العرب ، باستثناء بعض الاماكن ، تبـــدو قليلة الصلاح لزراعة الكروم ؛ ومن الراجح ان الخمر كان يحمـــل من سوريا والعراق بواسطة المسيحيين واليهود الذين يبيعونه بين القبائل . وفي حياة محمد فان المكيين والمدينيين كانوا ينصرفون للسكر (والقمار) اللذين كانا يعيقان احياناً ممارسة الاعمـــال الدينية ، ولذلك فان القرآن بعد ان اعتبر الخمر في بادىء الامر نعمة إلهية (١٦ ، ٦٩) عـــاد وحذّر المؤمنين من خطر الخمر والميسر (٢ ، ١٦ و ٤ ، ٩٦) ؛ وفي النهـــاية فان الخمر والميسر قد حُرّما (٥ ، ٩٢) ولم تكن اليهودية والمسيحية دون تأثير على هذا التحريم للخمر . وتظهر القصائد الخمرية في الادب الاسلامي ان هذا التحريم لم يكن يطبق بشدة .

والمحرمات الاخرى من الاطعمة مجموعة في آية واحدة (٥ ، ٤ : الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، والحيوانات المخنوقة ، والميتة من الانهاك او المقتولة عرضاً ، أو الفريسة التي اكل جزء منها) ؛ ويبدو ان العرب منذ الجاهلية كانوا يتجنبون اكل دم الحيوانات بدافع خوف ديني ؛ ولا مجال هنا للاستعانة بالتأثير اليهودي .

وتنتهي هذه الآية نفسها بتحريم اقتسام الحيوانات المضحّاة « بواسطة استشارة الازلام » . وقد اشير قبلاً الى الازلام (٥ ، ٩٢) مع الميسر والانصاب . والميسر حسب رأي المفسرين يدل على ألعاب الصدف بوجه عام ، بينما الازلام لعبة صدف ترجع الى أيام الجاهلية بحيث يقسم جمل الى عـــدة اقسام توزع وفقاً لازلام اللاعبين المسحوبة من كيس؛ وكان عرب الجاهلية يصلون

في هذه اللعبة الى خسارة جميع ممتلكاتهم احيانـاً ، والى رهن اعضاء عائلاتهم ايضاً . اما الانصاب فهي الاصنام الـتي كان عرب الجاهلية يدورون حولها دوراناً طقسياً بعد ان يرشوهـا بالخمر ، والطواف حول الكعبة والحجر الاسود إحياء لذلك .

وهذه الاصنام التي حرّم القرآن عبادتها (مثلاً ٦ ، ٧٤ ؛ ١٤ ، ٣٨) أوصلت الى قضية منع الصور التي كانت موضع كثير من الجدل ـ وهو منع لم يكن خاصاً بالاسلام؛ فالكنيسة المسيحية الشرقية تعرّضت له من قِبل الاباطرة مانعي الصور والايقونات وخصوصاً الشيع البولسية . وبعكس الرأي السائد فهي لا توجد موضحة بشكل قطعي في القرآن؛ ومع ذلك فبالمستطاع ايجاد اصل لها في بعض الآيات (مثلاً ٣ ، ٤ ؛ ٧ ، ١٠ ؛ ٤٠ ، ٦٦) التي تقدم الله كمصور ـ مرادف لكلمة « بارىء » أي الخالق ـ وفي الادب العبراني القديم كان يهوه يدعى «الخزّاف» (الكلمة العبرية هي « يوسر Yocer » وهي قريبة من « مصوّر » العربية) .

واستخرج الحديث من هذا الاستثناء النتيجـة التالية : ان صانعي الصور هم مقلدو الله ويستحقون العقاب . وبالفعل فان القانون الذي أعدته السُّنَّة والحديث يمنع تصوير المخلوقات الحية وليس تصوير الاشجار والاشياء (فسيفساء جامع دمشق مثلاً). وميز بعض الفقهاء بين صور الحيوانات المصنوعة على اشياء تداس (طنافس ، وسائد) والصور المصنوعة على جـدار أو ثوب ، فقبلوا الاولى ورفضوا الثانية . ومنع آخرون الدمى . ولكن هذا التحريم لم يكن ينظر اليه فعليـاً كتحريم الخمر : فالفن الاسلامي

ضاعف صور الرجال والحيوانات (صور حمامات عمرة في شرقي الاردن مثلاً ، وخشبيات مارستان قلاوون في القاهرة ، وحوض الاسود في قصر الحمراء في غرناطة ، وتزويق المخطوطات وصناعة الصور الشعبية التي تمثل النبي وافراد عائلته) ؛ أما اليوم فان النفور من التصوير الفوتوغرافي اصبح نادراً بين المسلمين .

وعدا ذلك فقد عزي الى القرآن إنشاء عادة لم يشر اليها بكلمة : عادة الختان . وقد كتب سنوك هورغرونج بحق : « لقد اصبح الامتناع عن اكل لحم الخنزير ، والختان ، عند سواد الشعب الجاهل من المسلمين وعند اكبر عدد من غير المسلمين هو اساس الرأي في الاسلام الى حد ما » وفعلاً ، فان الختان ، الذي ينظر اليه كطقس مذهبي عابر ، كان معروفاً في بلاد العرب البدائية اذا القينا بالاً للشعر القديم وللتقاليد . والطقوس المتنوعة لا تتفق تماماً على طريقة اجرائه ؛ وقد اضيف اليه احتفالات تختلف بين اليوم السابع والسنة الخامسة عشرة ؛ وهذه الوسائط تجري احياناً مع طقوس اخرى عابرة ، كقص الشعر لأول مرة ، وبرد الاسنان ، وختمة القرآن ـ وهي طقوس تمزج بالاسلام اعمالاً قديمة جداً .

الفصل الخامس

التطور الديني والفلسفي

ان الاسـلام ، كما هي الاديان الاخرى ، لم يستطع ان يبقى مستقراً . وقد تأكد لنـا قبلاً انه اذا كان الاسلام الصحيح لم يتعرض للاذى في حياة محمد فان بذور الانشقاق ظهرت بعد وفاته مباشرة. ويمكن ان نجد ثلاثة اسباب رئيسية لهذا الانشقاق :

١ ـ الميل الخاص بالساميين الى التنبؤ (انبيـاء العبرانيين ، الحنفاء ، الممهدون لمحمد ، والانبياء الكذبة الذين جاؤا بعده) .

٢ ـ الجدل الديني المتعلق بمبدأ الخلافة (الخوارج والشيعة).

٣ ـ الجدل المتعلق بالألوهية (العقليون والمتصوفة) .

وقد ولدت المذاهب الاسلامية من هذه الحركات. ومن المهم ان نعيد الى الاذهان حول هذا الموضوع ضرورة عدم الخلط بين المذاهب والفرق . والمعروف ان المسلمين السنيين يتبعون احـد المذاهب الاربعة : (المالكي ، الشافعي . الخ .) اما الفرقة فهي

جماعة يعارض اعضاؤها مبدأ الاجمـــاع حول القضايا الاساسية ، ويبتعدون عن السنة ، ويشكلون « كنيسة » منشقة .

وقد اثبت غولدزيهر انه « يعزى عادة الى الاســلام تنوع وكثرة في الفرق اكثر بكثير مما يسمح به تقدير سليم للحقائق » ؛ وهناك حديث يقول ان في اليهودية ٧١ فضيلة ، وفي المسيحية ٧٢ وفي الاسلام ٧٣ ؛ وهذه الفضائل الثلاث والسبعون حوّلهــا اللاهوت الأسلامي الى ٧٣ فرعاً . ثم اصبحت هذه الفروع، على اثر سوء تفاهم ، ٧٣ فرقة بينها واحدة فقط تنجو من النار هي فرقة السنيين الحقيقيين . وهناك تأويل متساهل عارض هــذا التأويل الظالم : ان فئة واحدة من هــذه الفئات الثلاث والسبعين ستلقى في النار ، هي فئة الزنادقة .

ومن ناحية اخرى فان العدد سبعين (حاصل عدد مضروب في سبعة) و٧٣ كان له دائماً صفة مقدسة في آسيا يبدو انها ذات اصل فلكي : ان ٧٠ هو خمس السنــة القمرية ؛ و٧٣ هو خمس السنة الشمسية . وهـــذا المفهوم يمكن ان يكون متأتياً من بلاد فارس القديمة ، منتقلاً الى اليهود (مثلاً ٧٠ اسبوعاً من كتاب دانيال) والمسيحيين ، والمسلمين . وكان من نتيجة تطبيقه عنـــد مختلف الاديان انه انشأ تقليداً يكون افضل دين بموجبه هو الذي يعـــد اكبر عدد من الفرق .

الميل نحو التنبؤ . ــ رأينا ان انبياء كذبة ظهروا في البـــلاد العربية منذ ايام الخليفة ابي بكر : وهناك فائدة في ذكر ميولهم في الحدود التي عرفهم بها المؤرخون . وبين ايدينا عن الاول منهم ،

طليحة ، بعض الشذرات التي تبدو تقليداً للقرآن ان لم تكن تحريفاً له. وقد تخلى انصاره عنه ، فدحره المسلمون ، وهرب الى سوريا.

ثم ظهرت نبية ، سجاح ، فأثارت قبيلتها وكانت تعظ بنـــثر مقفّى على نسق كهان الجاهلية ؛ وقد تفرق اتباعها وهربت الى اليمامة حيث التقت بشخص اكثر خطراً هو : مسيلمة .

ومسيلمة هذا ينتمي الى قبيلة بني حنيفة ، وهي قبيلة مسيحية في قسم منها ومنقطعة بشكل رئيسي الى الزراعة. ويبدو انه صمم على خلق دين مرتكز على افكار مسيحية ، ودعا الهه : الرحمن . وهي عبارة يمكن ان تكون ذات اصل مسيحي ، وقد ظهرت بين آن وآخر في القرآن واستمر دفاع انصاره اليائس حتى بعد ان قتل في معركة .

وهنـــاك نبي آخر ، هو الاسود (العنسي) ، نشأ في اليمن وتغلب على العاصمة صنعاء حيث كان يسيطر الهجناء المتحدرون من الفاتحين الفرس القدماء الذين تزوجوا نساءً من سكان البلاد الاصليين وقد خانته ارملة حاكم فارسي كان قد تزوجها، فقتل. ويبدو الاسود ، زيادة عن كونه نبياً كاذباً ، آلة للتغلغل العربي في بلاد كانت تحت النفوذ الفارسي : وهذا العمل نفسه يجعلنا نتأكد من امتزاج السياسة بالدين للمرة الاولى .

وتأثير هذه السياسة سيظهر بكثير من الوضوح بمناسبة التتابع الخليفي . وتتسارع الى الذهن تلك الفوضى والصعوبات التيهزت الوحدة بعد وفاة محمد مباشرة : بسبب حميـــة عمر في بادىء الامر حين فرض ابا بكر ، ثم حكم هو نفسه فنجا الاسلام الصحيح ؛

وبعد ذلك بدأ الصراع في ايام عثمان بين فرعي العائلة القرشية ، وبلغ هذا الصراع ذروته في ايام علي . وعند ذلك ظهرت حركات الشيع ذات الاصل السياسي الصرف .

الخوارج . ـ واقدم هذه الحركات هي حركة الخوارج التي نشأت من عرض التحكيم بين علي ومعاوية ، ذلك العرض الذي اوقف معركة صفين ؛ ونذكر ان جماعة من المحاربين رفضوا حكم البشر ونادوا ان « لا حكم إلا لله » وانسحبوا الى قرية حروراء في ضواحي الكوفة (ومن هنا جاء اسمهم الاول : الحروريون). ونتيجة التحكيم معروفة . وخرج عدد من انصار علي لينضموا الى المخالفين (ومن هنا جاء اسمهم الاكثر شهرة : الخوارج ، المشتق من « خرج ») . وقد وجد غير العرب الفرصة مناسبة للمطالبة بحقوقهم فجاؤا ينضمون الى صفوف اولئك . ولا فائدة من ذكر الجهد الذي بذله علي لاخضاعهم قبل ان يقتل. وفي ايام الامويين ، بالرغم من إدارة معاوية الاسلوبية الخارقة ، أثاروا حركات عصيان أغرقت بالدم ، وخصوصاً في الكوفة والبصرة . وشهداء الخوارج سوف يصبحون ، كشهداء الشيعة ، موضوع عبادة حقيقية ؛ ولكن الخوارج يضيفون الى هذه العبادة وجوب الاخذ بالثأر (ويمكن ان يكون ذلك من بقايا الجاهلية) . وانقضت سنوات عدة من المعارك : فالخوارج وكلهم تقريباً فرسان ممتازون (كالبارتيين) كانوا يخربون بلاد ما بين النهرين السفلى ويلجأون عند الضرورة الى جبال فارس. وقد حاربوا ابن الزبير كما حاربوا الحكام الامويين. وبعد موت الخليفة يزيد بدأوا

ينقسمون الى فرق ثانوية (وخصوصاً الأزارقـة والصفرية والاباضية) .

والازارقة قتلة غلاة لجميع غير المسلمين الذين يرفضون اعتناق دينهم ، وقد هددوا وحدة الخلافة بشدة عنـد تأسيسهم دولة حقيقية في جنوبي بلاد الفرس؛ وبعد سلسلة من المعارك استؤصلت شأفتهم في نهاية القرن السابع . وفي العصر نفسه اجتاح الخوارج جنوبي بلاد العرب .

اما الصفرية فيبـدو انهم كانوا الاول بين الخوارج الذين حاولوا عرض مبـادئهم الدينية عرضاً نظامياً ؛ وبوقوفهم موقفاً وسطاً بين الازارقة والاباضية فقد قبـلوا بالامتناع الموقت عن الحرب ضد المسلمينالآخرين ، واعتنقوا التقية ، اي اخفاء الايمان بداعي الحيطة ، وعدم قتل اولاد الكفار؛ وكذلك فان اخلاقيتهم كانتاقل عنفاً مناخلاقية الازارقة وفيأيام آخر الخلفاءالامويين كان الصفرية منتشرين في جميع بلاد الاسلام بما في ذلك المغرب ، حيث آزروا الاباضية في ثورة البربر العامة .

« لقد استأنف الخوارج ضد دمشق كفـاح افريقية القديم ضد رومـا وبيزنطية ... وبفضلهم وحدهم اعتنق ثلثا سكان افريقية الشماليـة الاسلام وتسلحوا ضد الاسـلام السني » (ماسكراي) .

وذاب الصفرية في الاباضيين . وهؤلاء يمثلون العنصر المعتدل في الخوارج: ففي ايام الخليفة الامويالاخير ثاروا في بلاد العرب وساهموا لاارادياً في نجاح العباسيين؛ وتحولوا عن المدن المقدسة ،

وحفظوا انفسهم في عمان . وانتشروا في بلاد زنجبار من ناحية ، ومن ناحية اخرى في افريقية الشمالية حيث قادوا البربر الى ترك الاسلام الحقيقي ، بالاتحاد مع الصفرية . وقد رأينا قبلا كيف ان البربر المشتطين في كراهية ولاة الخلفاء قد اولعوا بمذهب يعلن المساواة المطلقة بين المسلمين ؛ وظهرت حينئذ مطامع التسلط ، وتنازع الصفرية والاباضية القيروان التي اصبح حاكماً عليها اباضي من اصل فارسي يدعى ابن رستم . وبعد ذلك بقليل استولى الخوارج على افريقية الشمالية كلها ، الامر الذي هدد بالانفصال عن الامبراطورية؛ولم يتوصل الولاة العباسيون الى اقرار النظام الا في عام ٧٧٢ ،بعد سلسلة من المعارك المرهقة . ومع ذلك فان الخوارج الاباضيين لم يخضعوا من المغرب : فالسلالة الرستمية استمرت في تاهرت اكثر من ١٣٠ سنة، حتى انتصار الفاطميين ومنذ عام ٩٠٩ اجبر الفاطميون الاباضيين على الالتجاء الى الصحراء ؛ وعلى اثر ذلك انقسم الاباضيون بسبب خلاف سياسي وديني ؛ ولكن وحدتهم كانت لا تزال مزدهرة في الجربا وجبل نفوسة وأوارجلا وخصوصاً في مزاب حيث اسسوا عدة مدن وعرفوا كيف يخصبون القفر؛ وعقدت وحداتهم المغربية علاقات متواصلة مع وحداتهم في عمان وزنجبار. وامام مسقط هو اباضي.

والاباضيون هم آخر بقية للخوارج الذين انكسرت شوكتهم المجوسية بواسطة الحجاج وقادة جيشه اولاً ثم تصدعت بسبب تشدد المذهب نفسه ، وانطفأت في منتصف القرن الثامن .

وبعد ذلك انحرفت فعالية الخوارج شيئاً فشيئاً نحو التجارة

وتأليف الكتب الدينية ـ الفقهية والتاريخية. وبالاجمال فان حركتهم لم تكن معادية للحركة الفكرية ، فقد انتسب عدة علماء ورجال ادب في ايام الخلفاء العباسيين الاول الى المذهب الخارجي الذي له شعراؤه وخطباؤه .

اما مذاهبهم فلم تجمع قوانينها وتعرضت لتقلبات عدة فروع من الفرق ، ولكنها لعبت دورها في نمو علم اللاهوت الاسلامي (العلاقات مع المعتزلة). واذا اردنا وضع قاعدة عامة فان الخوارج يبدون كأنهم بوريتانيو[1] الاسلام : وقد علمنا قبلاً ان بعضاً منهم ذهبوا الى رفض السورة الثانية عشرة من القرآن، كشيء تافه، وهي السورة التي تقص حكاية يوسف والمرأة المصرية ، وهو موضوع طوّره فيما بعد بكثير من التفصيل شعراء من الفرس والاتراك . ويقرب من ذلك ايضاً قولهم ان القرآن ، الكلام المنزل من الله ، يشمل كل علم ويجب ان يفسر حرفيــاً . وكانوا اقل شدة حيال الزانية من المسلمين الحقيقيين الذين يتطلبون رجمها ؛ وأكثر حزماً حيال العبادة والايمــان : فبينما المسلمون الحقيقيون يقتصرون على الطهارة الجسدية كشرط اول للصلاة ، فان الخوارج يضيفون ، بشكل اجباري ، نقاوة الضمير الكاملة الى هذه الطهارة. وكذلك فهم يعتبرون الايمان غير موجود اذا لم يؤيد بالاعمال ، ولا يقبلون بدرجات في الايمان ؛ وكل من يرتكب خطيئة رئيسية يفقد صفته

---

١ ـ البوريتان Puritain فرقة من المذهب البروتستانتي كثيرة التصلب في تطبيق مبادىء الدين الاصلية . المترجم

كؤمن ويجب ايضاً ، برأي المتطرفين ، ان ينفى نهائياً من الاسلام ويقتل مع عائلته .

ومن ناحية عملية فهم يستنكرون الفخفخة مهما كانت ، ويمنعون الموسيقى ، واللعب ، والتبغ ، والمشروبات الروحية .

ولكن الخوارج أثروا بشدة متناهية على مصائر الاسلام بنظرياتهم السياسية . فقد كانوا دائماً متفقي الرأي حول موضوع الخلافة ، وهي القضية التي نجدها في اساس جميع الانقسامات الدينية في الاسلام ، فهم يرون ان كل مؤمن ، ولو كان عبداً اسود ، يمكن انتخابه خليفة وإماماً اذا كان جديراً بذلك من الناحية الفقهية واذا كان طاهراً باخلاقه وايمانه ؛ وعلى الجماعة ان تخلعه اذا أظهر عدم اهلية او اذا ضلل : كعلي بعد معركة صفين. ووفقاً لهذا المبدأ فان الخوارج اختاروا من بينهم خلفاء ولم يعترفوا من قبل إلا بأبي بكر وعمر بشكل قطعي . وبالاختصار فهم لا يرضون بسوى خلافة انتخابية ويستنكرون مبدأ الوراثة . وبهذا فهم على تناقض تام مع الشيعة ، انصار علي ، الذين يعتبرونها دولة تيوقراطية مؤسسة على الحق الإلهي . ومن ناحية اخرى فبينما نجد تطور المذهب الشيعي قد اوصله بشكل لاشعوري الى اغناء الاسلام بعناصر طارئة نجد الخوارج على عكس ذلك يصممون على إحياء دولة مثالية تحكم فيها العدالة السماوية (الامر الذي اصبح مستحيلا بسبب اتساع الامبراطورية) : وبهذا لحقوا بفكرة المهدي .

المرجئة . ــ اتخذت المرجئة موقفاً معتدلا بين الخوارج

والشيعة ، بعكس الاحزاب المتطرفة التي تقول بعدم وجود الايمان اذا لم يؤيد بالاعمال ـ وكانوا يطبقون هـذا المبدأ على الخلفاء الامويين ـ ويجاهر المرجئـة بعقيدة تقول ان السلوك العملي هو ثانوي ، وان الايمان وحده هو المهم ، وان المؤمن الذي يسلك سلوكاً سيئاً افضل من فاضل كافر . وبالاجمال فالمرجئة يرفضون مقاضاة الانسان ويرجئون هذا الامر لله (ومن هنا جاء اسمهم) ، وبهذا يسبغون على الامويين صفة الشرعية . انها انتهازية لم تستطع ان تلائم الخوارج ولا الشيعة .

الشيعة . ـ يهمنـا ان نقوم ضد خطأ يقترف بكثرة : ان تعارض عبارتي السنة والشيعة المستمر يقود الى الظن بأن الشيعيين لا يقبلون سنّة النبي ؛ ان الامر على عكس ذلك ، فالشيعي يبني هذه السنّة على سيادة اعضاء عائـلة النبي فقط ، بينـما السنيون يقبلون ، فضلاً عن ذلك ، بشهادة صحابة محمد[1] ؛ والشيعيون هم بالفعل « شيعة » عائلة النبي ، باستثنـاء كل سيادة اخرى . ومجموعات الاحاديث السنية (الحديث) والشيعية (الاخبـار) تشتمل على اكثرية من الاحاديث المشتركة بين الحزبين والمختلفة بالاسناد فقط .

وكذلك فلو نحينـا جوهر المذهب جانباً فان المذهبين السني والشيعي لا يختلفان عملياً الا باختلافات ثانوية في الطقوس. وهناك فرق رئيسي واحد في الحق المختص بالزواج : فالمذهب الشيعي يقبل

---

١ ـ راجع تعليق العلامة محمد جواد مغنية في آخر هـذا الفصل . (ص ٢٢٧ ـ ٢٣١) .

بالزواج الموقت[٢] (الذي لم يعد مستعملاً) ؛ وهذا الزواج، الذي كان مستعملاً في الجاهلية العربية وتساهل به محمد في بدء امره ، ينحل آلياً بانتهاء المهلة المحددة باتفاق مشترك عقده الزوجان ؛ وقد امر عمر بالغاء هذا الزواج ولا يعترف الشيعيون بذلك، وليس لدى هؤلاء اي سبب للتنازل عن تساهلهم .

ويجب الا نستنتج من هذا التساهل الخاص ان التشدد الشيعي هو ادنى من التشدد السني: فالشيعيون مثلاً اتقياء ، يؤولون كلام القرآن حرفياً: « انما المشركون نجس » (٩، ٢٨) ويعتنون بتجنب كل احتكاك مع غير المسلمين ، ويذهبون الى درجة تحطيم الآنية التي يلمسها هؤلاء[٣]. وهذا التشدد يظهر بشكل خاص عند المتاولة (متوالي، « نصير ») شيعة سوريا الذين يدعون انفسهم جعفريين (من اسم الامام السادس جعفر الصادق واضع الفقه الامامي) .

وهناك ملاحظة اخرى تمهيدية : قد يكون هناك فائدة في التذكير ان المذهب الشيعي ذو اصل عربي (وليس ايرانياً) من الناحية السياسية ، بينما بعض عناصر المذهب الديني الشيعي — وخصوصاً قاعدته التيوقراطية والاعتقاد برجعة[٤] الامام المختبىء — يبدو انها يهودية — مسيحية (دون ان نتكلم عن التفاصيل التي تجعلنا نقبل بوجود تأثيرات زرادشتية وافلاطونية حديثة ومانوية) ، الامر الذي نسب احياناً الى المذهب الشيعي اصلاً ايرانياً[٥] ، وذلك لانه اصبح في القرن السادس عشر دين

---

(٢) و (٣) و (٤) و (٥) — راجع تعليق العلامة محمد جواد مغنية في آخر هذا الفصل . (ص ٢٢٧ — ٢٣١)

الدولة في بلاد الفرس . وعدا ذلك فهناك حديث انتشر في تلك البلاد ولم يكن دون تأثير على تجمع الفرس حول المذهب الشيعي ، وهو ان الحسين بن علي (شهيد كربلاء) كان قد تزوج ابنة آخر ملك ساساني فارسي ، وكانت قد اسرت اثناء الفتح . وبهذا الحديث استفاد اعقاب علي من شرعية مزدوجة. وقاعدة المذهب الشيعي في السياسة هي الشرعية: ان علي أبعد بغير حق عن الخلافة وكذلك اعقابه . وقد رأينا ان الشيعيين يتهمون السنيين بحذف الآيات القرآنية والاحاديث التي تثبت حقوق علي في الخلافة . وهناك حديث من أشهر احاديثهم يقول ان النبي اعترف بصورة قطعية ، وامام عدد من صحابته ، ان علياً هو خليفته ؛ والذكرى السنوية لهذه التولية اصبحت احد الاعياد الشيعية (عيد الغدير) ، وقد اضيفت اليه عاشوراء ، وهي الذكرى السنوية لمقتل الحسين وعائلته في كربلاء . ويرى الشيعيون ان علياً واعقابه المباشرين الاثني عشر هم الخلفاء الحقيقيون ، او بالاحرى الأئمة ؛ والامامة تتخذ في المذهب الشيعي اهمية واتساعاً خاصين: فبينما امام المذهب السني هو الرئيس الروحي والزمني المعين بالانتخاب او بالتولية البشرية فان الامام الشيعي (وارث رسالة النبي) ينصب بتعيين الهي يحصل بواسطة محمد وفقاً لما جاء في حديث شيعي . إنه امام بحسب الجوهر ، وبفضل حلول غامض انتقل منذ آدم من امام الى آخر . وبالاختصار فان الامام السني هو رئيس بينما الامام الشيعي هو حبر . والشيعيون المتطرفون (الغلاة) طوروا تطويراً غريباً معنى الامام بحيث يتعارض هذا المعنى تعارضاً مطلقاً مع

نظرية الخوارج .

« ان مذهب الشيعيين هو الآتي : الأئمة الاثنـــا عشر هم معصومون ؛ وكل منهم قام بمعجزات ؛ ... وكل منهم عين عند موته اماماً آخر يخلفه ، وهكذا حتى الحسن بن علي العسكري ، وهذا نقل الامامة الى ولده معلناً : « انه المهدي وسيد الزمان » ؛ وقد ولد هذا الاخير في سامراء عام ٢٥٥ هـ (٨٦٩) ؛ ويوجد هناك دهليز اختفى فيه كما يقال ؛ ويذهب الناس حاجّين الى هذا الدهليز[٦] » (ابو المعالي) .

وجملة القول فان المذهب الشيعي جمــع في علي واعقابه مبدأ الوراثة الملكية ومبدأ النبوة[٧] . وترتب على ذلك ان وجود الامام امر لا بد منه في كل زمان . وتتوقف سلالة علي المباشرة عنــد الامام الثاني عشر ؛ وهـــذا ليس بميت ولكنه انسحب الى مكان سري حيث ينتظر فيه ساعته .

وفضلاً عن ذلك فان الأئمة ، من ناحية الانبثاق الالهي هم منزهون ومعصومون . وهذه صفات يحتفظ بها السنيون للانبيــاء فقط . وقد صــدر عن هذه العصمة نتيجة صاغها غولدزيهر بما يلي : بينما السنّة هي كنيسة اجمــاع فان الشيعة هي كنيسة سلطة . وهذا تقريباً ما يفصل بين المذهبين اكثر من غيره . وبالفعل فان السنّة تعتــبر ان الاجتهاد (الرأي الشخصي المنبثق عن المناقشة الحرة لمبادىء القانون) منذ تنظيم المدارس السنية قد استعيض عنه

---

(٦) و (٧) راجع تعليق العلامة محمد جواد مغنية في آخر هذا الفصل.

بالتقليد (القبول الطوعي بسلطة ما) ؛ ومن ناحيــة اخرى فان المذهب الشيعي يصرح بعجز العقل البشري فيما يتعلق بالعقيدة[٨] ولذلك لا يمكن ان يقبل بمبدأ الاجماع كأساس للحكم ولكنــه يحتفظ بالتقليد لان المجتهدين الذين يطبقونه ليسوا سوى لسان حال الامام المختبىء ؛ فهو الذي يتكلم بافواهم ؛ ومن هنـــا جاءت سلطتهم التي هي اسمى من سلطة العلماء السنيين. وقد كان للمجتهد، منذ وقت قليل ، الحق حتى بمراقبة اعمـــال الشاه . والمجتهدون الكبار يقطنون المدن المقدسة عند الشيعة .

ومن الراهن ان الخلفاء لا يمكن ان ينظروا بعين الرضا الى نمو مذهب كهذا ، ولذلك قمعوا محاولات اتباعه بقساوة ، وهذا القمع اعطى المذهب الشيعي بسرعة مظهر «كنيسة معذبة» . وقد وضع العلويون انفسهم ؛ امام الامويين المهتمين بالسلطة الزمنيــة بشكل خاص ، موضع ابطال الاسلام الروحي . اما العباسيون فان العلويين لم يستطيعوا مسامحتهم بكونهم استفادوا بمكر من مساعدتهم لهم في الاطاحة بالامويين ؛ وبالرغم من التكريم الذي منحه العباسيون لبعض الأئمة فان الشيعيين ظهروا كعنصر معارضة، وكاحتجاج ضد لاشرعية الخلفاء. فالشيعة اذن هي «حياة مستترة» حقيقية اثارت عند اشياعها الميل الى ستر اعتقادهم[٩] والى عدم القيام بفروض العبادة في حالة الخطر. وحقيقة القول فان هذا الميل (التقية او الكتمان) ليس خاصاً بالمذهب الشيعي ؛ اذ يوجد قبلاً

---

(٨) و (٩) راجع تعليق العلامة محمد جواد مغنية في آخر هذا الفصل .

آثار له في القرآن (٣، ٢٧؛ ١٦، ١٠٨) ؛ والسنيون الحنفيون ، والخوارج ايضاً ، يعتبرونه جائزاً ؛ ولكن بالرغم من تحفظات التيوقراطيين فان الشيعيين مارسوا التقية الى درجة انها اصبحت احدى العلامات المميزة لاحزابهم المتطرفة؛ ومن الحق ان نضيف انها نتجت عن اضطرار فرضته الظروف وليس عن اختيار حر ؛ وكانت تتعلق قبل كل شيء بتجنب مقابلة الشر بمثله وإراقة الدماء .

والشيعة المجبرة على الاقلاع عن الفعالية السياسية نشرت مذهبها سراً وتولد منها ، كالمذهب الخارجي ، فرق عديدة ، وبعض هذه الفرق اعطت الشيعة النفوذ السياسي التي بحثت عنه على غير طائل .

ولكن ، قبل هذا النجاح ، فان الاخفاق السياسي للمذهب الشيعي نشأ عنه احد عناصر هذا المذهب التكوينية : فكرة الالم والفداء (الفكرة القائدة لمؤلفات دراماتيكية فارسية تذكرنا « بخفايانا » في القرون الوسطى بميزتها الدينية والشعبية ، وهي مؤلفات يظهر فيها السمو احياناً) ؛ ان الامام يجب بالضرورة ان ينتهي بالشهيد (وبالفعل ، فان الجميع ماتوا موتاً غير طبيعي اذا صدقنا المؤرخين) ؛ ولكن وجود الامام ضروري للعالم في كل زمان ، والاخير من الأئمة لم يمت ؛ انه غائب فقط ويجب ان يعود ذات يوم . وبانتظار نهاية غيبته فان الوحدة الشيعية تعتبر نفسها كأنها مقادة دائماً بالامام غير المنظور الذي يجب على كل فرد ان يقسم له يمين الاخلاص ؛ وهكذا ، ففي عام ١٩١٠

بدأ البرلمان الفارسي اعماله بحضور الامــام المختفي . والشيعيون بأكثريتهم متفقون حول رجعته ، ولكنهم يختلفون حول عــدد الأئمة وحول شخص الآخير منهم « الامــام المختبىء » ؛ فبينما يعتقد الامامية او الاثناعشرية بتتابع اثني عشر اماماً نجد الزيديين يتوقفون عند الامام الخامس من هؤلاء الأئمة ، والاسماعيليين او السبعية عند الامام السابع .

والزيديون بين الشيعيين هم الاقل بعداً عن السنيين ؛ وقد اسسوا في اليمن امامة مستقلة انتخابية ما زالت باقية منذ عام ٨٦٠ برغم الغزوات العثمانية . واسمهم مشتق من زيد ، احد احفــاد الحسين ، الذي طالب بحقوق العلويين فقتــله جند الامويــين (٧٤٠) . وقد رفضوا الزواج الموقت (المتعة) وانكروا الهبة الالهية في الامام ، ولا ينتظرون رجعة الامام المختبىء : والامامة منذ موت زيد يجب ان تكون انتخابية وليست وراثية .

وبعكس ذلك فان رجعة الامام المختبىء تشكل عقيدة عند الامامية الذين يشكلون اكثرية الشيعيين : فالامام الثــاني عشر ، محمد ، المولود عام ٨٧٣ ، والذي اختفى بشكل غامض، يجب ان يرجع عندما تأتي الساعة ليقوم بدور المهدي . وقــد اصبحت الامامية فيما بعد هي الدين الرسمي للفرس : وهو انتصار اتخذت له العدة منــذ زمن طويل ، اي منــذ ما اتاح التساهل الساساني للمذهب الشيعي ان يعود الى الظهور في وضح النهار (اول القرن العاشر) ؛ وقــد ربح المذهب الشيعي الجولة حــين دخل البويهيون بغداد بعد نصف قرن . وحينــذاك وضعت « الكتب

الاربعة» ، وهي مجموعات الاحاديث الشيعية التي تماثل مجموعات الحديث السني الست . والاماميون الذين يقبلون بهـذه الكتب الاربعة مضافة الى القرآن كمصادر للقـانون بدون الرجوع الى الاجتهاد يشكلون حزب الاخباريين (انصار الحديث) . ولكن الاماميين اصوليون باكثريتهم (انصار الطرق النظرية) . وقـد رأينا اي استقلال احتفظ به المجتهدون الفرس .

اذن فالامام عند الزيديين ينتفع من الادارة الالهيـة دون ان يحل فيه بالضرورة جزء الهي . اما عند الامامية فان الامام رجل فيه جوهر ساطع ؛ ولكن هذا الحلول عند الشيعيين المتطرفين هو مطلق : والامر يتعلق باتحاد جوهري من الاله الى الامـام الذي ينتهي بان يصبح إلهاً .

وقبـل القاء نظرة على الفعالية المذهبية والسياسيـة لهؤلاء المتطرفين ، نرى من الموافق التوقف لحظة عند فكرة رجعة الامام المختبىء ، المولدة لبعض الحركات المهدية.

المهدية ــ . رأينا ان فكرة المهدي ، محي العدالة التي ستسبق نهاية الزمان ، ظهرت غير واضحة ومتأخرة نسبياً عند السنيين . ويبـدو ان هذه الفكرة طبقت اولاً على شخص المسيح ثم على شخص محمد الذي قال: «لانبي بعدي» (نظرية اخذها كازانوفا)؟ والمهدي الذي يجب ان يحمل اسم النبي نفسه يجب ان يكون تجسيداً لمحمد . ونجد هنا اذن افكار التجسيد العزيزة على المذهب الشيعي المتقدم .

ونعلم ان القرآن يتضمن سلسلة من الآيات المتعلقة بالساعـة

الاخيرة وخصوصاً (٧٧،٧،٥٤،١) وهـي آيات تذكرنا برؤيا القديس يوحنـا اذا لم تكن مشتقة منها بصورة غير مبـاشرة . وقد نشأ عن هذه الآيات احاديث عديدة يعزو احدها الى محمـد الكلام التالي ، فاتحاً الباب لجميع محاولات الدجالين : « لن ينتهي العالم قبل ان يقود شعبي رجل من عائلتي ويكون اسمه مطابقـاً لاسمي » .

ويمكن القول ان الشيعة احتكرت فكرة المهدي لمصلحة علي ، عضو عائلة النبي، واعقابه . وسيتحول علي عند الشيعيين المتطرفين الى إله يأمر الصواعق ويجعلنا نفكر بالاندرا الهندوسية (راجع ابن خلدون صفحة ١٤٠٤) . وسيصبح المهدي شيئاً فشيئـاً ليس عضواً في عائلة محمد بل عضواً في عائـلة علي . وبشكل آخر ، فالامام المختبىء او حفيـد فاطمة (الفاطمي) المنتظر هو الذي عرّفه احد الكتاب (وقد ذكره ابن خلدون) بمـا يلي : « ان الفاطمي هو المسيح المنتمي الى عائلة محمد » .

وقد عرف عبيد الله ان يستفيد من هذه الاحاديث ليؤسس السلالة الفاطمية المالكة في اول القرن العاشر . وبعد قرنين ظهر مهدي ثان بشكل انتصاري في شخص ابن تومرت مؤسس سلالة الموحدين المالكة وهنـاك محاولات اخرى أخفقت في المغرب (حتى في القرن التاسع عشر) ومصر ، حيث وقف مهديان ، احدهما بوجه بونابرت (١٧٩٩) والثاني ضد الانكليز (١٨٨٣) .

وبالاجمال فان الفكرة المسيحية Messianique ظهرت في كل عصر في تاريخ الاسلام: فقد روى ابن خلدون مثلاً ان اهالي الحلة

(بلاد ما بين النهرين) كانوا يعتقدون برجعة احد العلويين الذي مات بينهم ، وكانوا يأتون كل مساء بجواد مسروج الى امام بيته وينادونه باسمه . وفي ايام الصفويين الفرس فيما بعد كان هنالك جوادان يظلان على اهبة الاستعداد ، واحد لسيد الزمان والآخر للمسيح نائبه . وبالمستطاع ذكر امثلة اخرى من هذا الاعتقاد بالمهدي . اما ما يجب استنتاجه فهو ان هذا الاعتقاد قد استعمل كوسيلة للاشتراكية تارةً وللتيوقراطية تارة اخرى : وهاتان الضالتان المنشودتان هما ضالتا الجماعتين الشيعيتين الرئيسيتين المتقدمتين : القرامطة والاسماعيلية .

القرامطة والاسماعيلية . ـ لقد اوقف هؤلاء المتطرفون ذرية الأئمة عند الامام السابع . ومن هنا جاء اسمهم : السبعيون. واليكم اصل هذا الفرع للأئمة الخمسة الاخيرين . رأى الامام السادس جعفر الصادق ، نحو عام ٧٦٠ ، ان ولده البكر اسماعيل غير اهل للامامة فخلعه لمصلحة ولده الثاني ؛ ولم يقبل الاسماعيليون ، بعكس الامامية ، هذا الحرمان لاسماعيل ؛ وسرت اشاعة موته ولكنهم ظلوا مخلصين له ؛ ونشر اعقابه المبعثرون في بلاد الفرس وسوريا مذهبه بفضل دعاة كانوا يبشرون قبل كل شيء بتأويل رمزي للقرآن .

وظلت فعالية هذه الفرقة طوال قرن دينيةً بشكل خاص . ولكن تدخل عبدالله احد هؤلاء الدعاة انحرف بتلك الفعالية نحو نهايات سياسية . وعاضده زملاء آخرون فعرف ان يثير للدعاوة الاسماعيلية تحريضاً خارقاً للعادة . وبالفعل ، فان الداعي حمدان

قرمط جمع عناصر العمال والفلاحين في بلاد ما بين النهرين التي لا تزال مضطربة من جراء حرب اثارهـــا العبيد ، وقد ضمتهم هذه الحرب الى حزب الامام المختبىء الذي يرضي ميولهم الى المساواة ويهز دعائم تلك الشركة التي تحتوي على رتب في معرفة الاسرار (ونجدها على الارجح في اصول الماسونية الغربيـــة) . وايضاح المذهب القرمطي لا نستطيع ان نفسح له مجالاً في هذه السطور ؛ وسنجده في مقالة لماسينيون (الموسوعة الاسلامية : القرامطة) . وانتقلت الحركة من بلاد ما بين النهرين الى البلاد العربية متحولة جزئياً الى شيوعية عاميـــة انتهت الى افراطات استدعت تدخل فرق اخرى هي ايضاً ذات اصل اسماعيلي : الفاطميون .

واليكم اصل الفاطميين: حين كان حمدان قرمط يعظ في بلاد ما بين النهرين كان داع آخر ، ابو عبدالله ، يثير حماسة البربر في إفريقيا باعلانه لهم قرب ظهور الامام المختبىء . ويستحيل هنا تفصيل وصول عبيد الله ، المهدي المنتظر ، الى افريقيا وسجنه في سجلماسة ، والعون الذي قدمه بربر كتامة للداعي ضد الاغالبة ، وانقاذ المهدي وتنصيبه على العرش بصفة امير للمؤمنين وحفيداً لعلي وفاطمـــة . وحين اصبح الفاطميون سادة إفريقيـــا وجهوا اطماعهم نحو الشرق الذي خرجوا منه ؛ وبعد سبعين سنة تقريباً عززوا المـــذهب الاسماعيلي في مصر ، رسميـــاً على الاقل ، لمدة قرنين .

وبالاختصار ، يبدو أن القرامطة وضعوا مذهب الامـــام المختبىء في خدمة ثورة اجتماعية ؛ بينما الفاطميون تركوا بدورهم

هذه الاشتراكيـــة واستعملوا الدعاوة القرمطية وملهب الامام المختبيء لتحقيق مقاصدهم في السيطرة السياسية .

وقد انكر المؤرخون المسلمون في الغـــالب شرعية الخلفـــاء الفاطميين ؛ فهل يتحدرون حقيقة من علي وفاطمة ؟.. اننـــا لو فحصنا اساس المذهب الاسماعيلي لتأكدنا من ان انتقال الامامة المنتظم ليس له تلك الأهمية التي يعزوها اليه الاماميون : فهؤلاء يعتبرون ان الامام يجب ان يشير اليه سلفه بصراحة وبخط مباشر ؛ ولكن الزيديين قبل ذلك اعتبروا ان كل علوي له الحق بالمطالبة بالامامة لكي يدافع عن القضية الشيعية ؛ واخيراً فالامامة بنظر الاسماعيليين (القرامطة والفاطميين) تحولت الى « انتداب حتمي يمنح للوصي الجديـــد من بين العالمين بالاسرار وبواسطـــة تألق مفاجيء لعقله » (ماسينيون) . وفي هذا الحساب ، فان قضيـــة شرعية الفاطميين انتقلت الى المؤخرة ؛ وقد سنحت لهم الفرصة ليعلنوا انفسهم أئمة وليستفيدوا من الحلول الإلهي ، بانتظار اليوم الذي ينادى فيه بأحدهم ، الحاكم ، إلهاً .

ومن ناحيـــة اخرى فهناك عمل رئيسي في تطور المذهـــب الاسماعيلي: التدخل المستمر (ويمكن ان يكون بتأثير (نيوستيكي[1] Gnostique) للعدد سبعة، وهو العدد الذي يحتوي دائماً على صفة مقدسة . وقد قرر المذهب الاسماعيـــلي بين الانسان والله (وكل منهما يشكل درجة) خمس درجات اخرى انشأتها المبادىء الاولى:

---

١ ــ المذهب النيوستيكي : Gnosticisme : مذهب ديني يدعي اتباعه انهم يعرفون الله معرفة تامة . المترجم

عقل كلي ، ونفس كلية ، ومادة اوليــه ، والفضاء ، والزمن (والكل سبع درجات) . وقد تجسد العقل الكلي بالتتابع في سبعة انبياء : آدم ، نوح ، ابرهيم ، موسى ، عيسى ، محمد . واخيراً محمد ابن الامام الاسماعيلي السابع . وهنا نجد الهوة التي تفصل الاسلام الحقيقي عن المذهب الاسماعيلي (دون ان نتكلم عن التــأويل الرمزي للقرآن والاعتقاد بالتقمص) : وبينما يعتبر الاسلام الحقيقي محمداً آخر الانبياء والمهدي يأتي فقط ليحيي عمله في آخر الزمان نجد المذهب الاسماعيلي قد ابطل رسالة محمد لمصلحة نبي جديد . وزيادة على ذلك فان كلاً من هؤلاء الانبياء السبعة يتبعــه سبعة أئمة يرافق اولهم النبي بصورة دائمة: وهكذا يرتبط بالانبياء الخمسة الاول أئمة هم شيث ، وسام ، واسماعيل ، وهارون (والامــام السابع هو القديس يوحنا المعمدان) وسمعان بطرس ؛ وبمحمد يرتبط علي ويتبعه اعقابه الستة الاول حتى الامــام اسماعيل الذي فتح ابنه محمد الدور النبوي السابع: اما أئمته فهم الداعي الاسماعيلي عبد الله ويتبعه ولداه ، والامام الرابع هو الخليفة الفاطمي الاول عبيد الله .

ويمكن فهم هذه الرمزية الحسابية حالاً حيث نجد فيها تعاليم الافلاطونية الجديدة في الانبثاق : فالخلفــاء الفاطميون اغلقوا الدورة السابعة للأئمة الذين اتبعوا آخر آت من الانبياء؛ وفي هذه الحالة فان « الاسماعيليين المنطقيين لم يستطيعوا الاكتفاء بالظهور الرمزي السامي للعقل الكلي في شخص الخليفة الفاطمي ، الحــاكم كتجسيد لله ذاتــه » (غولدزيهر) . وهكذا اشتق من المذهب

الاسماعيلي المذهب الدرزي (من اسم درزي احـــد المقربين من الخليفة الحاكم واحد دعاته) .

ومن المعلوم ان الدروز يسكنون في حوران ، وهو اقليم جبلي في سوريا ومسرح لعظات درزي ؛ وهم ينتظرون رجعـــة الحاكم كما ينتظر الاماميون رجعة الامـــام المختبىء . والمذهب الدرزي مذهب سري يتفادى كل دعاوة . والاله الحاكم هو واحد وبدون صفات؛ والعدد سبعة يتدخل تحت شكل التعاليم السبعة الاساسية. والدروز يعتقدون بالتقية اكثر من الشيعيين وكذلك بالتقمص .

وبالاجمال فان الوهيةالحاكم اصطدمت منذ ما ظهرت فيسوريا (وهذه العداوة دامت عـــدة قرون) بمذهب سري آخر كان موجوداً هناك منـــذ قليل : هو مذهب النصيرية (النصيرية أو العلويون حالياً) . وبينما يؤله الدروز الحـــاكم ، فان النصيرية ــ كمذهب احدث عهداً هو مذهب «علي – إلهي » ــ يؤلهون علياً، ويقولون ان علياً هو « خالد في طبيعته الإلهية ؛ وهو إلهنا حسب الواقع العميق ومن ناحية خارجية فهو امامنـــا » ؛ ويعتقدون بثالوث مؤلف من علي ومحمد وسلمان (ومحمد ليس سوى انبثـــاق لعلي ، وكذلك سلمان فهو ممهد لعـــلي) . وبدون ان ندخل في تفاصيل هذه المذاهب ، يجب الاشارة الى تدخل عنصر انضم فيها الى العناصر النيوستيكية والاسلامية : هو عنصر الوثنية . ويوجد فعلا المثلث الوثني لسوريا القديمة تحت ثالوث النصيريين ؛ وزيادة على ذلك فان العلويين يتلقون صفات ميثولوجية: فعلي اصبح سيد الرعد ، ودم الحسين حل محل دم ادونيس الذي قتـــله الخنزير

البـــري ، وذلك ليفسروا سبب اسرار المغيب . ومن الناحية الطقسية نجد في المذهب النصيري مزيجاً عجيباً من الاعياد الشيعية والاعياد المسيحية (الاعياد الكبرى واعياد القديسين) . وقبور قديسيهم الخصوصيين محاطة بأشجار تتوج الاماكن العاليـــة في البلاد وهي ايضاً موضوع عبادة . وبهذا يضيع المذهب النصيري في مذهب توحيد الآراء Synérétisme المشوش ، الامر الذي جعله مرفوضاً من الاسلام الحقيقي الذي ظل متساهلاً حيـــال المذهب الاسماعيلي الذي نقدم للقراء تطوره الاخير .

فبعد خمسة عشر عاماً من اختفاء الخليفة الحاكم بشكل غامض (خليفة الدروز) ، استعاد الفاطميون لقب الامام من الاسماعيليين (١٠٣٥) ؛ واستقر المذهب الاسماعيـــلي في مصر كدين رسمي وظل حتى انقلاب الفاطميين بواسطة صلاح الدين محيي الاسلام الحقيقي .

ولكن اثناء ذلك ، وفي ايام الخليفة الفاطمي المستنصر ، جاء الى مصر اسماعيلي فارسي هو الحسن بن الصباح ، وكان مرســـلا من قبل داعي العراق (١٠٧٨) . وحدث حينـــذاك امر مماثل لحرمان الامام اسماعيل (وهو الحرمـــان الذي نشأ عنه المذهب الاسماعيلي البدائي) اذ عين الخليفة المستنصر ولده الثاني وريثاً له على حساب ولده البكر نزار . وممـــا لا شك فيـــه ان الحسن بن الصباح مال الى حزب نزار بدافع طمع سياسي فطرد من مصر ، ولكنه ثابر على دعاوته في سوريا (منطقة حلب)، ثم في بلاد الفرس حيث ساعده انصاره فاستولى على قلعة الموت وجعلها مركز قيادته

(١٠٩٠) ، وفي قليـــل من الوقت استولى على القلاع الاخرى وبنى قلاعاً جديدة وجعل اتباعه يطيعونه طاعة عمياء . وضاعف نفوذه الشخصي بان جعـــل جواسيسه يشربون مزيجاً يحتوي على القنب الهندي (الحشيش، ومن هنا جاء الاسم الذي اطلق عليهم: الحشاشون) : وقد احدث الحشيش فيهم اوهاماً فردوسية استغلها الحسن ليدفعهم الى قتل الامراء والاشخاص الكبار الذين كانوا يحاربون نفوذه . وكانت تلك الاغتيـــالات الاسلوبية قد حدثت قبلاً في الاسلام اذ طبق الخناقون ، منـــذ القرن الثامن ، تأويل القرآن الرمزي وقتل معارضيهم .

واغتنم الحسن فرصة الاضطرابات التي تلت مجيء الصليبيين فتوصل بالرغم من السلاطين السلجوقيين الذين كانوا سادة آسيا الغربية يومذاك الى انشاء امارة مستقلة صانت نفسها بالارهاب تحت حكم ثمانية سادة كبار (١٠٩٠ ـ ١٢٥٦) . وكان الوهم السائد ان هناك « قضية سموم » شيطانية تثقل على ربع آسيا .

واضاف الفاطميون بشكل منطقي عنصراً آخر الى المذهب الاسماعيلي: هو الطاعة العمياء للإمام. والمذهب الاسماعيلي الجديد، مذهب الحسن ، وهو جهاز سياسي سري اكثر مما هو مذهب ، اعطى هذا المفهوم قوة القانون : فدراسة القرآن (الذي ظل هو القاعدة) وتأويله الرمزي لا فائدة منهما اذا لم يقم بهما الامام بنفسه (التعليم) . وكان في ذلك اغلاق للباب امـــام التأويل الشخصي . ومع ان الحسن اعلن نفسه انه نائب الامام الفاطمي في مصر فقد كان ايضاً السيد المطلق للاجساد والضمائر .

ولكن احد خلفائه ، سيد ألموت الرابع ،تعداه في السير قدماً محطماً استمرار المذهب بواسطة تطور فجائي يجعلنا نفكر بالتطور الذي احدثه الخليفة الحاكم : فبينما تظاهر اسلافه بانهم نواب امام القاهرة قام هو فجأة واعلن انه احد احفاد نزار (ابن الخليفة الفاطمي المستنصر الذي كان الحسن بن الصباح في السابق قد طالبه بحقوقه)؛ وهذا معناه خلع طاعة الخليفة الفاطمي ليصبح هو نفسه حبراً اعظم للاسماعيليين . وكان في يد سيد ألموت الكبير يومذاك ، بالاضافة الى قلاع الفرس ، قلاع سوريا التي استولى عليها رواده بالتدريج مستفيدين بمهارة من الاضطرابات السياسية ومعتمدين عند الحاجة على المسيحيين ؛ و « شيخ الجبل » الذي يتحدث عنه مؤرخو الحروب الصليبية الغربيون ليس سوى نائب سيد ألموت الكبير في سوريا وقد اعاد احد هؤلاء النواب،راشد الدين سنان ، في سوريا بعد نصف قرن مغامرة حسن بن الصباح في بلاد الفرس ، اذ خلع بدوره طاعة ألموت وطبق سياسة القتل الغامضة نفسها ، واجبر الصليبين وصلاح الدين ـ الذي كان قد اطاح بالفاطميين ـ على التفاوض معه .

والغزوة المغولية عام ١٢٥٦ اتلفت قوة اسماعيلي الفرس؛ اما اسماعيليو سوريا الذين اخضعهم سلاطين المماليك المصريين بعد بضع سنوات فقد عاشوا بشكل غامض. ولايزال اعقابهم يسكنون حول قلاع مهدمة. وهناك جماعات اخرى ضعيفة في بلاد الفرس، وآسيا الوسطى ، وافغانستان ، وعمان، وزنجبار. ولكنهم في الهند يحتفظون بقوتهم التي هي اقتصادية على الأقل ان لم تكن دينية ،

ويشكلون طائفة « الخوجا » . والرئيس الحالي للخوجا هو السير محمد شاه[1] ابن آغا علي المشهور باسم الآغا خان ، وهو الامـــام السابع والاربعين (من وجهة النظر الاسماعيلية) .

إذن فالمذهب الاسماعيـــلي المشتق من المذهب الشيعي قد أثر تأثيراً شديداً على مصائر الاسلام بسبب الحركات السياسيـــة التي نشأت عنه مباشرة بشكل يكثر او يقل : كالقرامطة،والفاطميين، والحشاشين (القتـــلة) . وفضلاً عن ذلك فان له من النـــاحية المذهبية نصيباً في تطور الفكر الاسلامي ، وخصوصاً حين يلتقي مع المعتزلة في انكار الصفات الالهية وفي التفوق الممنوح للعقل . وقبل البحث في المذهب المعـــتزلي يجب ان نلخص المـــذهب الاسماعيلي بإيجاز :

ان الله منزه عن الصفـــات واعلى من كل مفهوم ؛ ولكنـــه بارادته اظهر نفسه بشكل العقل الكلي ـ الاله الحقيقي للاسماعيليين ـ حيث صفته الرئيسية هي العلم . والعقل بدوره خلق النفس الكلية التي ، بصفتها الاساسية (الحياة) ، ولدت المادة الاولية ؛ وهذه تلقت عفوياً مختلف الاشكال التي احدثها العقل لها . اما النفس فانها تسعى دون انقطاع لاكتساب العلم لترتفع الى طبيعة العقل . ويضاف الى عمل هذه المبادىء الثلاثة مبـــدأ القضاء والزمان : وعملها كلها يفيض على المادة الكلية . فهنالك اذن ، من إله هذه نفسها ، سبعة مبادىء أولية. وهذه المبادىء (بإستثناء الله) تظهر في شخص انبياء وأئمة رأينا ادوارهم السبعة سابقاً .

---

١ ـ توفي منذ مدة موصياً بالامامة لحفيده كريم . المترجم

والدخول في المذهب ، المؤسس على التأويل الرمزي للقرآن ، يتضمن سبع درجات، ومعظم الاسماعيليين لا يتجاوزون الدرجة الثانية ، والداعي يصل الى السادسة ، اما السابعة فلا يبلغها احد الا في النادر . وقد أولت الجنة تأويلاً رمزياً (حالة للنفس متأتية من العلم الكامل) وكذلك النار (حالة الجهل) . والنار هي احتياطية ، وكل نفس عائدة الى الارض بالتقمص الى ان تكتسب العلم تحت ادارة الامام . واخيراً فان الشر يجب ان يزول في اليوم الذي يتمثل فيه الخلق كلهم بالعقل الكلي .

ونظام انبثاق الاسماعيليين موجود ، مع بعض التعديلات القريبة ، في الموسوعة الفلسفية التي وضعها في القرن العاشر جماعة من العلماء العرب المعروفين باسم « اخوان الصفاء » . وعدا ذلك فان مفهومهم للادوار ورمزيتهم العددية قد عادا الى الظهور مع الفرقة الشيعية (الحروفية) المؤسسة في القرن الخامس عشر والتي تبنّى تعاليمها الدراويش البكطاشيون في الامبراطورية العثمانية : كل دور يدشن بظهور آدم وينتهي بحساب اخير ؛ والانبياء يتبعهم القديسون الذين يبشرون بالتجسدات الالهية التي يحدث اولها في شخص مؤسس الفرقة ؛ والحسابات المرتكزة على قيمة حروف الالفباء تلعب في المذهب دوراً هو على الاقل كبير بقدر ما هو عند الاسماعيليين ؛ والعدد سبعة يحتفظ فيه بكل اهميته .

وليست الاسماعيلية هي الوحيدة التي لها علاقات مع المعتزلة : فقد ذكر نالينو نقاط الاتصال بين عقيدة الخوارج الاباضيين وعقيدة الاعتزال ، والثانية تعرّضت في الارجح لتأثير الاولى .

اذن فهناك مجال لبحث مذهب الاعتزال الذي تبلورت فيه الميول العقلانية المولودة مبكراً في سوريا . واخيراً فهناك مذهب صوفي نما في العراق اولاً على موازاة هذه الميول وكانت بلدرته هي اوهام نهايات الانسان الاخيرة في القرآن. ومن المذهب العقلاني ستخرج سلسلة من المؤلفات القدوة والقصائد الكبيرة .

مشكلة حرية الارادة . ـ نجـد مشكلة حرية الارادة في اساس المذهب العقلاني . وهي مشكلة غامضة جداً ومتناقضة في القرآن . فهل الانسان حر تمام الحرية في اعمـاله ام انه خاضع لله خضوعاً مطلقاً ؟ انهـا قضية مخيفة لانها توصل الى قضية العدالة الالهية . ومفسرو القرآن يجدون انفسهم مقادين حتماً الى إلقـاء هذا السؤال بدافع الرغبة المشروعة في فهم دينهم بصورة افضل، وذلك اقل مما هو بدافع التفكير الحر .

وقد اعترف غولدزيهر ، بعد ان فحص محتويات القرآن حول هذا الموضوع، بان ما من قضية مثلها عولجت بمثل هذا التناقض . فقدرة الله مطلقة ، ولا يمكن سؤاله عما فعل (٢١ ، ٢٣) ؛ ومما لا شك فيـه انهم « لا يُظلمون فتيلا » (٤ ، ٥٢) ؛ ومع ذلك « فمن يُردِ الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ... » (٦، ١٢٥) . وبالفعل « ومـا كان لنفس ان تؤمن إلا بإذن الله ... » (١٠ ، ١٠٠) .

وهذه الآيات الحتمية تقابلها آيات اخرى تتكـلم عن حرية الارادة « .. ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله .. » (٣٨ ، ٢٥) ؛ « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى .. »

(٤١ ، ١٦) ؛ « قل كلٌ يعمل على شاكلته . . » (١٧ ، ٨٦– والصحيح الآية ٨٤) ؛ « ... فمن شـــاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ... » (١٨ ، ٢٨) .

ومع ذلك فقد اظهر غولدزيهر ان الله ، في الآيات التي توجد فيها قضية ضلال المذنب ، لم يضله بحصر المعنى ولكنه يكتفي بان يتركه يضل . والانسان يظل في المغامرة كمسافر ضالٍ في القفر : فاذا بذل جهداً نحو الخير فان الله يمد له يد المعونة ويدلّه ؛ اما اذا فعل الشر فان الله يتركه في ضلاله، ولكن بدون ان يكون قد وضعه اولاً على طريق الضلال ؛ وهذا المفهوم يستخلص بوضوح من الكلام التالي : « ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرّة ونذرهم في طغيانهم يعمهون » (٦ ، ١١٠) . وفضلا عن ذلك فان الله ينسى نهائياً الكفار الذين لا يهتمون به (٧ ، ٤٩ ؛ ٩ ، ٦٨ ؛ ٤٥ ، ٣٣) .

ولكن ليس بالمستطاع ان نطلب من علماء الدين في الازمنـــة الاولى دقة كهذه في التفسير . والخلاصة ان جريم Grimme اكد ان محمداً نفسه قد تطور : فمن حرية الارادة في الدور المكي انتهى بعد الهجرة الى جبرية مطلقة أكثر فأكثر .

ومنذ وقت مبكر جداً ، اي منذ نهاية القرن الاول الهجري ، فان هذه الجبرية الخشنة التي تضع العيوب والفضائل والعقـــاب والثواب تحت سلطـــة الله المطلقة قـــد اقلقت العاطفة التي كان المسلمون يشعرون بها نحو العدالة . وكان في سوريا اولاً ان ناقش علمـــاء الدين ، المحتكون بالمسيحيين ، قضية الجبريـــة المطلقة .

والجبرية تحمل في العربية اسم « القدر » ، وهو تعبير فني يُضم احياناً الى تعبير « القضاء » ويفسرونه عادةً هكذا : ان القضاء هو قرار الله الكلي الابدي ، والقدر هو تطبيق هـــذا القرار في الزمن ؛ والخير يأتي بواسطة القضاء ، بينما الشرور تأتي عرضياً بواسطة القـــدر (لاجل التأويلات الثانوية ، راجع الموسوعـــة الاسلامية ، مادة « القضاء ») .

وهنـــاك مناقشات متعلقة بهـــذا « القدر » انتجت مذهبين متعاكسين: مذهب القدريين (اولئك الذين يحصرون القدر وليسوا بانصار القدر) القائلين ان الانسان يخلق اعماله بنفسه، اي سلامته وهلاكه، ومذهب الجبريين القائلين ان اعمال الانسان هي، كالطبيعة الميتة ، خاضعة لاجبار الله (الجبر) .

فمذهب القدرية اذن هو اقدم محاولة لتخليص الاسلام مـــن المفاهيم التقليدية ، وليس ذلك بدافع حرية الارادة بل بوعي ديني صرف . وكان من الطبيعي ان يزيفهم الامويـــون الذين كانوا يستخدمون الجبرية ليمسكوا بزمام الشعب ، والذين اعلنوا بلسان شعرائهم الرسميين ان « هلاكهم مقرر سلفاً في احكام الله الابدية» . وكان للامويين عذر في محاربة القدرية لانها الضربة الاولى الموجهة للاسلام الصحيح واول بدعة حقيقية .

وبعد بضع سنوات من استيلاء العباسيين على السلطة ، وفي ايام الخليفتين المنصور والمأمون نشأ عنصر خارجي في الاسلام : الفلسفة اليونانية . فقد ترجم النساطرة من السريانية الى العربيـــة مؤلفات العصور القديمة . فترجموا ابحاثاً في الطب اولاً ، ثم ابحاثاً

فلسفية . واهمية دور هؤلاء المترجين لن يكون مبالغاً فيه : فقد جهزت اعمالهم العرب، ذوي العبقرية الغنائية اكثر مما هي نقدية، بنماذج من اقامة البراهين حيث سيعلمهم الفرس الاستفادة منها لأنهم اكثر دقة . وهذه الفلسفة كانت والحق يقال نتاج مزيج غريب صنع خصوصاً في الاسكندرية في العصر المليني : انه تركيب مؤلف من الارسطاطاليسية (فلسفة التعقل المنطقي المؤسس على الاختبار) ومن مثالية افلاطونية مثقلة بأوهام شرقية . ولا يمكن التفكير برسم مخطط هنا لتطور هذه الفلسفة الاسلامية. وان الفلاسفة العرب ، الامناء على علم عصرهم ، كانوا على هامش الاسلام مع انهم يدعون دائماً انهم يحترمون فيه جميع المبادىء » (غودفروا ديمومبين) .

وعند ذاك شعر علماء الدين بالخطر الذي يهدد الاسلام الحقيقي فتعلموا كيف يحاربوا الفلسفة بسلاحها ـ بالجدل : وبهذه الطريقة في اقامة البرهان والمطبقة على اللاهوت خرجت فلسفة دينية حقيقية اطلق عليها اسم « علم الكلام » (يمارسها المتكلمون) . واقدم ممثلي علم الكلام هذا هم المعتزلة .

المعتزلة . ـ والكلمة تعني «اولئك الذين يعتزلون» ، المنفردون. ويبدو بالفعل انهم متشيعون للنسك ، كالصوفيين الاول ، ليتحولوا بعد ذلك ، في افراط « بعلم الكلام » الى عقلانية تظهر اكثر فأكثر . والزاهد هو واصل بن عطاء المتوفي عام ٧٤٨ ، مؤسس المذهب وصاحبه الرئيسي .

والمزية الاولى للمعتزلة هي انهم جعلوا العقل اساس الحكم في

المعرفة الدينية . وهذا المبدأ قادهم الى إعتاق فكرة التوحيد من جميع العناصر الشعبية والتقليديــة التي تثقل عليها ، وبالاختصار فقد الزموا انفسهم تماماً بمبادىء العدالة والوحدة الالهية .

ويمكن تلخيص مذهبهــم هكذا : انهم يعتقدون اكثر من القدرية بان الانسان هو خالق اعماله دون تدخل الله . وهــذه الارادة الحرة للانسان تجر الى نتيجة تتعارض تعارضاً قاطعاً مع المفهوم السني لآله كلي القدرة ؛ فمنــذ اللحظة التي يكون فيهــا الانسان حراً فان الله يجد نفسه مضطراً الى إثابة الاخيار ومعاقبة الاشرار ، ليس بعامل من ارادته بل بعمل ضروري من فضله . وبعبارة اخرى ، فان المعتزلة استبدلوا تحكمية الله الكليــة القدرة بواجب الله حيــال مخلوقاته : فالانسان حر بينما الله ليس حراً ابداً .

ولكن ممَّــا يتألف الخــير والشر ؟ بينما المسلمون الحقيقون يصرحون « بان الخير هو ما يأمر الله به؛ والشر هو ما ينهى عنه » فان المعتزلة يعتبرون أنه يوجد خير وشر مطلقان يدل عليهما العقل وليس الله .

هذا هو رأيهم في اداراك العدالة الالهية. اما فيما يتعلق بالوحدة الالهيــة فان المعتزلة عملوا بحزم ضد مذهب التشبيه المفرط الذي يقول به بعض علماء السنّة : انهم بعكس اولئك الذين يجعلون لله جسداً ، فهم يعتبرونه روحاً خالصاً وينكرون الصفات التي تقلل، كما يقولون ، من الوحــدة الالهية وتقود الى الشرك ؛ ويعترض السنيون عبثاً في ان هــذا الانكار للصفات يماثل تجريد معرفة الله

وانه لا يمكن انكار صفات الله التي تحدث عنها القرآن نفسه .

وقضية صفات الله جرّت قضية خلق القرآن . فهل يمكن ان ينظر الى الله كمالك لصفة الكلام ؟.. ان الكلام عند المسلمين الحقيقيين هو صفة ازلية لله ؛ اذن فهو غير مخلوق ؛ وتبع ذلك ان القرآن ، هو اظهار الكلام الالهي ، هو ازلي وغير مخلوق ايضاً . ويجيب المعتزلة على ذلك بان محمداً لم يسمع الله نفسه ، بل سمع صوتاً ، وهذا عضو خلقه الله ويتميز به ، اذن فهو تابع له . وبالنتيجة فان القرآن من عمل هذا العضو ، وهو ايضاً مخلوق ؛ والا فسيكون أزلياً كالله نفسه الذي يجب ان يكون هو وحده ازلياً . وذهب بعض المعتزلة الى درجة الزعم ان العبقرية الانسانية يمكن ان تتجاوز اتقان القرآن .

وبالاجمال فان مذهبهم يتضمن ثلاث فكرات اساسية : ١ ـ الانسان هو حر ؛ ٢ ـ هناك مجال للتمييز في الله بين صفات الجوهر وصفات العمل ؛ ٣ ـ القرآن ليس أزلياً .

وفكرة خلق القرآن هذه تبناها بحماسة الخليفة العباسي المأمون الذي فرضها عام ٨٣٣ كمادة من الايمان ؛ وكان المخالفون ، وبينهم ابن حنبل ، عرضة لتحقيق تعصبي في الغالب استمرت محنته نصف قرن وانتجت تشويشاً كاملاً في المعتقدات . ان مذهب المعتزلة الذي بدأ بالتحررية انتهى بالتصلب ، ولكن الخليفة المتوكل ، وهو الثالث بعد المأمون ، شعر بضرورة توطيد نفوذه السياسي والديني ، فتحول نحو المرتزقة الاتراك (الذين

اسلموا حديثاً) ونحو علماء الدين السنيين ؛ ومنذ عام ٨٤٧ اخذ يعمل ضد المعتزلة والصوفيين. وظل مذهب المعتزلة على خطورته، واستمرت المعارك بين المسلمين التقليديين والمعتزلة العقليين في تمزيق الاسلام .

الأشعرية .ـ وقد تحققت المصالحة في القرن العاشر بواسطة معتزلي ، هو الاشعري ، كان قد ارتد وهو في الاربعين من عمره الى مذهب السنة بعد ان ادخل عليه اصلاحاً . ويتألف مذهبه من تسوية اكثر منها مصالحة . فقد رفض الاشعري افراط المعتزلة في العقلانية من ناحية ، ورفض من ناحية اخرى افراط السنة في التمسك بالشكليات . فقد وقف مثلاً موقفاً وسطاً بين المعتزلة الذين يجردون الله من صفاته وبين انصار الحديث الذين لا يريدون ان يروا سوى حرفية القرآن، بان يجعلوا لله اعضاء بشرية ؛ وبينما تقول بعض الفرق (كالجهمية) ان الانسان ليس له اي سلطة على اعماله وان لا مسؤولية عليه ، فان الاشعري اكد هذه المسؤولية ؛ وبينما اعتبر المعتزلة القرآن مخلوقاً، معارضين بذلك انصار الحديث الذين يقولون بأزليته (بما في ذلك المواد التي كتب بها وكتب عليها) ، فان الاشعري رأى في القرآن كلام الله الازلي ، ولكن حروفه وحبره ومادته كلها من عمل الانسان .

اما فيما يتعلق بالاساليب العقلية فكان من الطبيعي ان يستحيل عليه الغاء العقل الذي قرره المعتزلة كمصدر اسمى للمعرفة الدينية ، بيد انه لطّفه الى « نظر » ، اي معرفة الله النظرية ؛ ومن ناحية

اخرى انكر التقليد (قبول كلام او اعمال الغير كشيء مسلم بـه دون مناقشة الاسباب) . وبالاجمال فان الاشعري دافع عن السنة بسلاح مستعار من اعدائها ؛ وهذا يعني انه نذر نفسه لتكدير جميع الناس . اما مذهبه فقد كلل بواسطة تلاميذه ، وكان من اشهرهم الباقلاني الذي اضاف الى هذا المذهب افكاراً غيبية (ميتافيزيقية). وقد احتيج الى مرور قرن كامل لينظر الى الاشعري كأنه « اكبر سلطة عقائدية في الاسلام السني » (غولدزيهر) . وذلك بفضل مساندة نظام الملك الوزير السلجوقي الشهير ، وبـدون ان توصم المعتزلة بالهرطقة .

الصوفيون . ـ في نهاية القرن نفسه (القرن الحادي عشر) اضطرت الافكار الصوفية المبعثرة في الاسلام ان تتفق هي ايضاً مع الاسلام الحقيقي بواسطة رجل كبير : هو الغزالي . وبينما يعتبر النقليون ان بالامكان بلوغ الحقيقة المطلقة بواسطة قوة العقـل وحدها يؤكد الصوفيون انها لا يمكن ان تفتتح إلا بقوة الحدس . وقد لعب الغزالي دوره كموفق على هذا الصعيد ، هـذا الدور المماثل لدور الاشعري على صعيد الفلسفة الكلامية .

والصوفيون الاولون ، كالمعتزلة الاولين كانوا نسّاكاً . وفي بداية الاسلام ظهرت ممارسة النسك الـتي تعود دون شك الى تأثيرات مسيحية : كان الواحد يربط نفسه الى عمود ، وآخر يقيد نفسه ، وآخر يذهب حاجاً على قدميه أو يحكم على نفسه بالصمت طوال هذه الرحلة .

وكانت هذه الميول مستترة في بعض آيات القرآن (مثلاً ، ٨ ،

٦٥ : « تريدون عرض الدنيـــا والله يريد الآخرة .. » ؛ انظر سلسلة من هـــذه المقاطع في ماسينيون ، تجربة ، صفحة ١١٧) .
وعززت هذه الميول بواسطة اوهام النهايات الاخيرة للانسان في القرآن. ولكنها كانت قدأبعدت آنياً في الظلام في عصر الفتوحات الاولى حيث كانوا حينذاك يفكرون بالغنائم . وزيادة على ذلك فقد نسبت الى محمد أقوال تستنكر النسك . ومع ان اعمـــال النبي وصحابته لا تشير الى اي ميل الى النسك الصرف فان محمداً كان يظهر اعتباراً عظيماً للمسلمين الذين ينقطعون للصلاة والصيام .

وكان ان توطدت هذه الميول الى النسك في العراق كرد فعل ضد الفخفخة التي ادخلت منـــذ ايام الخليفة عثمان ونمت في ايام الامويين ، حيث ظهرت عند ذاك عوامل الشقاق . وقـــد حدد غولدزيهر اثنين من هذه العوامل : الاول مختص بالطقوس وقد استعاض شيئاً فشيئاً عن الصلوات الخمس بترديد صوفي (الذكر) ؛ والآخر لاهوتي اخلاقي ابدل الاعتماد على الله (التوكل) بمذهب التجرد المستسلم استسلاماً مطلقاً والمفضي الى لامبالاة شبه كاملة بالعالم الخارجي .

واختار هؤلاء الناس فيما بعد الثوب الصوفي الابيض الذي منحهم اسمهم الجنسي (الصوفي) . ويرى ماسينيون (الموسوعه الاسلامية : مادة « التصوف ») ان الجماعات الاولى من هـــذا النوع ــ نساك وتائبون ــ تأسست في الكوفـــة (القرن السابع ــ الثامن) والبصرة (القرن الثامن) ؛ وقد اصبحت بغداد مركزاً للحركة في النصف الثاني من القرن التاسع .

وهؤلاء الصوفيون المسلمون يبحثون في الانفراد ، كجميع الآخرين ، عن النشوة الحلولية . ولكي يتوصلوا اليها رسموا لأنفسهم مراحل او حالات متتابعة عليهم ان يجتازوها : وفي النهاية تلتقي النفس بالكائن الاسمى التي تتوق اليه .

وفي نهاية القرن التاسع فان انتشار تعاليم الافلاطونية الحديثة جهز التصوف بالقاعدة المذهبية التي كانت تنقصه . وقد كتب الغزالي في القرن الحادي عشر : « يتألف التصوف من عواطف اكثر مما يتألف من تعريفات » . والذي يثبت ذلك هو ان المسلمين وضعوا للتصوف تعريفات متنوعة .

وليس هناك أي مجال للظن بان التصوف الاسلامي ذو اصل اجنبي : إذ يبدو انه ولد اختيارياً على ارض الاسلام مع اننا نشعر فيه بوجود تأثيرات مسيحية وايرانية وهندوسية ايضاً (الفيدانتا). ولكن بالامكان اعتبار التأثير الهليني بين هذه التأثيرات ، انه الاكثر بروزاً في التصوف اللاحق بحيث اغنى مفرداته التقنية . وعدا ذلك فان التعاليم الافلوطينية في الانبثاق قادت متصوفة المسلمين الى وضع تعريف واضح لما يشعرون به : العالم ، وهو المرآة التي ينعكس عليها الكائن الالهي ، ليس سوى مظهر ، فيجب اذن التخلص من هذا المظهر لبلوغ الواقع : ويجب ان يتخلص المرء من وجوده الشخصي ليصل الى فناء شخصيته في الوجود الالهي الذي هو وحده حقيقي . انه تطور منطقي لشطحات بعض الصوفيين السابقين .

وبالاختصار ـ وفقاً لتعريف قوي الدلالة وضعه فيلسوف

عربي ذو ميول صوفية ، هو ابن سبعين من مرسية (القرن الثالث عشر) ـ فبينما كان الفلاسفة القدماء يريدون التشبه بالله ، فان الصوفيين يريدون الفناء في الله . وهكذا انتهت الصوفية ـ وهي جزء من النسك ، الى الوحدانية في منتصف القرن الثالث عشر .
وهذه الوحدانية سيضع لها ابن عربي صيغة : وهو احد كبار علماء الصوفية ؛ وهناك عالم لاحق ، هو ابن تيمية ، اختصر تعاليمها بهذه العبارات : « ان وجود الاشياء المخلوقة ليس سوى وجود الخالق نفسه ؛ كل شيء ينبثق من الجوهر الالهي ليعود اليه في النهاية » . وهذه الفكرة الرئيسية انتجت عدة قصائد كبيرة يعد بعضها من الطرف (ونذكر منها « المثنوي » لجلال الدين الرومي) .

يبدو اذن ان هؤلاء الصوفيين ليس فيهم شيء من الاسلام . ومع ان الشيعيين الاكثر تقدماً ظلوا على اتصال مع الاسلام بواسطة التفسير الرمزي للقرآن ، فان الصوفيين ايضاً يفسرون آيات الكتاب المقدس كما يلائمهم . وعندهم نقطة اتصال اخرى بالمذهب الشيعي (الذي يرفضهم) : هي اجلالهم لعلي الذي ينظرون اليه كرئيس للتقليد الصوفي .

ومن ناحية عملية فقد تجمع هؤلاء الصوفيون منذ القرن الثامن في اديرة (خانكة او تكية في الشرق ، وزاوية في الغرب)؛وكان هناك ايضاً اديرة للنساء في مصر وسوريا (القرن الثالث عشر ـ الرابع عشر).وهذه الاديرة التي كانت قبلاً مأوى لجماعة صغيرة تحولت شيئاً فشيئاً الى مدرسة للقداسة يتبع فيها المبتدئون تعليم

مدير روحي يدلهم على الطريق الواجب اتباعه ـ طريق يتنوع في التفصيل ولكنه يظل هو نفسه في الاساس . وفي هذه الاديرة ، وابتداء من القرن الثاني عشر على الخصوص ، تنظمت الطرق الدينية التي كثرت ، واظهرت منذ القرن الخامس عشر فعالية سياسية ودينية معاً ، وخصوصاً في افريقية الشمالية . وفي القرن الثاني عشر تأسست اول طريقة جديرة بهذا الاسم ، الطريقة القادرية ، برعاية عبد القادر الجيلاني . وتلتها طرق اخرى : الرفاعية، والمولوية (الدراويش الدائرون)؛والشاذلية (افريقية)، والبدوية (مصرية) . وهناك طرق اخرى في وقت اكثر تأخراً. (راجع اللائحة التي وضعها ماسينيون في الموسوعة الاسلامية ، مادة « طريقة ») .

وقاعدة هذه الطرق تتنوع بحكم الطبيعة ، ولكن هناك طقساً مشتركاً بينها : الذكر . وهو ترديد اسم الله مكرراً بشكل مضجر اما بصوت مرتفع ، واما بالفكر ، مع حركات معينة احياناً . وممارسة الذكر مرتكزة على آية قرآنية (٣٣، ٤١)؛ ومن الممكن انها ساعدت على نشر استعمال السبحة التي يبدو انها منقولة عن الهند ، وهي مؤلفة من مائة حبة بعدد اسماء الله . والارجح ان استعمالها تعمم في القرن الخامس عشر . وتتنوع صيغ الذكر وفقاً للطريقة ؛ ولكي تحدث الرعدة الذهولية يضيف البعضُ اليها الموسيقى والرقص (المولوية) ، او اعمالاً بربرية ايضاً تناقض الاسلام الحقيقي كل المناقضة وتتعلق بالمذهب القائل بوجود الروح في كل الاجسام الحية (العيسوية) .

ولا شك في ان هذه الطرق تسير من الجمعيات الدينية الواسعة الى جمعية صغيرة محليـــة ، وكذلك فهي تعرض صفـــات كثيرة التنوع ، والعنصر الديني في بعض الطرق يصبح ثانويـــاً (طرق مطلقي النار والمشعوذين في مراكش) .

وفي جميع الاحوال فان كل طريقة دينية يقودها شيخ كبير. وهذا بدوره يوكل بسلطاته الى ممثلين لفروع الطريقة التي تعيش من الهبات بالنوع وبالطبيعة . ويتمتع الشيخ الكبير بسلطة مطلقة على الطرق؛ فهي بين يديه « كالجثة بين يدي المغسلين » : وذلك لانه يحمل قوة روحيـــة خفية (بركة) تنتقل من شيخ كبير الى آخر وتنبثق من مؤسس الطريقة ، وهذا يحاط دوماً بالاجلال كأنه قديس .

وهكذا وصلنا الى احدى البدع الكبرى في الاسلام : عبادة القديسين والقديسات (يطلق عليه في الشرق اسم « ولي » وفي المغرب مربوط ؛ وهذه الكلمة الاخيرة لا تطبق فقط على القديس بل على قبره ايضاً سواء كان هـــذا القبر كومة من الحجارة او مزاراً حقيقياً) . ومهما كانت هذه العبادة معارضة للتوحيد فانها انتشرت بسرعة في العالم الاسلامي بفضل الصوفية ، وخصوصاً في بلاد البربر .

« ان عبادة القديسين لم تبلغ شأواً أبعـــد من ذلك في اي بلد اسلامي آخر ؛ ويمكن القول دون تردد انها تشكل تقريباً الدين الوحيد للريفيين وخصوصاً للنساء وترافقها طقوس من مذهب القائلين بوجود الروح في جميـــع الاجسام الحيـــة ومن مذهب الطبيعيين » (بل Bel) .

وهذه العبادة ، شأنها في الأديان الاخرى ، حلت احياناً محل عبادة الله . وفعلاً فان القديسين بنظر عامة الشعب المهيئين دائماً للايمان بالمعجزات يبدون ليني الجانب اكثر من إله الاسلام العظيم البعيد . وحياة القديسين المسلمين تعج بالعجائب التي ليست دائماً جديرة باسم « الاسطورة المذهبة » ، وهذا لأن عبادة الأولياء المحليين التي تلغي احياناً واجب الحج الى مكة تغطي في الغالب ، في الاسلام كما في غيره ، عبادة سابقة . (مثلاً الشيخ معشوق في سوريا الذي يطابق ادونيس) . ونجد في كل مكان تقريباً بقايا عبادات تقدم للحجارة والاشجار والحيوانات (مثلاً في مصر ، الحمار المرسوم في عيد طنطا ، وافعى جبل الشيخ حريدي) . وبعض هؤلاء الاولياء يكرمون كأنهم احياء ، واحياناً في حياتهم رغم احتقارهم الكامل للاصطلاحات واللياقات الاجتماعية ــ احتقار يظهره بعض الدراويش ايضاً وخصوصاً « الملامتية » الذين يشبهون الفلاسفة الاغريق المعروفين باسم « الكلاب[1] Cyniques » في العصور القديمة .

وهذا الاحتقار ، وبشكل اقل وضوحاً ، تلك اللامبالاة بتطبيق الاعمال الدينية هي التي ادت بالاسلام الصحيح الى الارتياب بالصوفية وذلك قبل مذهب الوحدانية الخاص بمتصوفة القرن الثالث عشر . واذا ظن الاسلام الصحيح ان من واجبه معاقبة

---

١ ــ فرقة من الفلاسفة الاغريق ألفها انتيستين تلميذ سقراط . وقد اتى اسمهم من احتقارهم لجميع اللياقات الاجتماعية ، ومن حياتهم التائهة وعاداتهم في ارهاق المارة بالمراقبة والسخرية التي تجعل بينهم وبين الكلاب شبهاً. المترجم

بعض الصوفيين المتقدمين(واشهرهم الحلاج الذي اعدم في بغداد عام ٩٢٢) فانه بدا دائماً اكثر رحمة بالصوفية المعتدلة . ومع ذلك فان المتشددين ينعون على الصوفية تقديمها التأمل على الموعظة واهمال ممارسة الاعمال الدينية السنّية . وبالفعل فان الصوفية اعادت للافق الديني اتساعه الذي ضيقه علم الكلام ، ولكنها الغت لاشعورياً العلم الديني لتستعيض عنه بالحدس . واشياعها لا يحتفظون حقيقة بسوى دين القلب .

وحدثت محاولات للتوفيق من بينها محاولة الغزالي . وهذا (توفي عام ١١١١) وهو احد أكبر العقول في الاسلام شرع باقرار وسط عادل بين علماء الدين والصوفيين ، وبين اولئك الذين يعتبرونّ انفسهم اتباع العقل والعلم النظري وأولئك الذين يعتبرون انفسهم مختارين من الله ، ومالكي الحدس ومعرفة الحقيقة (بواسطة الانخطاف الروحي) . فمن ناحية كان الكلاميون الجاعلون لله صفات مختلفة عن الصفات البشرية يعزلونه عن خليقته الى درجة يمكن التساؤل فيها كيف يتصرف مع هذه الخليقة؛ ومن ناحية اخرى الصوفيون المعتقدون بالذوبان التدريجي في الله قد انتهوا منطقياً الى التأكيد بانّ الله هو كل شيء .

والنقاط الرئيسية في تعاليم الغزالي هي : رفض العلم الذي يعالج مشاكل الضمير وتطرفاته سواء كان يتعلق بعلم الكلام ، او بالفلسفة او بالفقه :

« هنـاك صنف من الناس يحدد اطماعه بعلم الاستشارات القضائية ... وهو يطلق على المعارف التي تقود الى هذا الهدف

اسم علم الفقه وعلم المذهب ويتخيل ان هذا هو العلم الديني نفسه . انهم يهملون دراسة كتاب الله وسنة النبي... وحين يسأل فقيه عن اشياء يوصل عدم مراعاة القانون فيها الى الهلاك الابدي فانه لا يعرف كيف يجيب ؛ ومقابل ذلك ينفق مجلدات حول دقة العلم الذي يعالج حالات الضمير .. ويجب ان نعتبر مجنوناً كل من يدرس اشياء كهذه بقصد الاقتراب من الله بهذا الشكل » .

وبعكس ذلك، فان العلم الحقيقي هو «العبادة الحقيقية بالقلب، الصلاة الداخلية ، اي الوسيلة التي يملكها الضمير الانساني ليقترب من الله » . والمناقشات الدقيقة حول الدقة اللاهوتية والقضائية يجب استبدالها بمحبة الله الذي خلق الحياة الحدسية في النفس .

اذن فالغزالي ادخل الحب الصوفي الى الاسلام الحقيقي، ولكنه نفى العنصرين المتطرفين في مذهب التصوف : اللامبالاة بممارسة الاعمال الدينية ، والمثل الاعلى لالوهية الكون الذي وضع له حداً ان لم يكن قد هدمه . وبالاجمال فانه عقّل الصوفية واحيا الدين الحقيقي . « لقد استخدم العقل لهدم العقل باثباته انه غير اهل لقيادتنا الى المعرفة المطلقة ؛ واستخدم التقليد ليهذب ، ويدل ، ويكبح مخيلة الصوفيين . » (مكدونالد) .

ان الغزالي احيا الاسلام فعلاً ، وحقق بمؤلفاته جمع العناصر التقليدية والعقلية والصوفية . وبالاجمال فان البرهان على تأثيره السريع العميق المشابه لتأثير توما الاكويني هو زوال الحظوة التي اوجدتها الارسطاطاليسية في الشرق. وقد هاجرت الفلسفة العربية الى اسبانية حينذاك حيث كان لها دوي عظيم في القرن الثاني عشر.

ونعرف كيف ان مؤلفات العـــلوم اليونانية التي شرحها العرب وترجمت الى العبرية بواسطة يهود اسبانية وفرنسا الجنوبية ، ثم الى اللاتينية ، دخلت اوروبا : وهكذا احتل الاسلام مكاناً في السلسلة التي تربط الفكر القـديم بالفكر الحديث ، ولعب دوره العظيم في تاريخ المدنية .

اذن ففي القرن الثالث عشر استنفـــدت الحركات المذهبية الكبرى طاقتها المجومية ؛ وخمدت اصطدامات الاسلام الحقيقي بالتحررية والفلسفة والصوفية . وستصبح خصومة السنة والشيعة من الآن فصاعداً خصومة سياسية اكثر منها دينية . ولكننا سنرى فيا بعد حركتين لا تزالان ظاهرتين : احداهمـــا الحركة الوهابية (في القرن الثامن عشر) ، والاخرى (البابية) في القرن التاسع عشر ، وهما حركتان تمتـــازان بميلين ملحيين اساسيين : اعادة الاسلام الى بساطته الاولى ، واضافة عناصر جديدة الى الاسلام.

تعليق العلامة محمد جواد مغنية

(راجع صفحة ١٩١)

١ ـ تقبل الشيعة حديث الصحابي وغيره من المسلمين من اي طائفــة كان ، على شريطة ان يكون الراوي معروفاً بالتثبت والصدق ، وقسموا الحديث الى متواتر ، وآحاد ، والمتواتر ان ينقله جماعة بلغوا من الكثرة حداً يمتنع اتفاقهم على الكذب عادة . وهذا النوع حجة يجب العمل به، ولا يشترط في رواية ان يكونوا ثقاة . اما حديث الآحاد فهو ما لا ينتهي الى حد التواتر ، سواء أكان الراوي واحداً او اكثر ، وقسموا حديث الآحاد الى اربعة اقسام : (١) صحيح ، وهو ما كان الراوي امامياً ثبتت عدالته ـ (٢) الحسن ، وهو ما كان الراوي امامياً ممدوحــاً في سيرته ، ولكن لم ينص احد على عدالته او ذمه ـ (٣) الموثق ، وهو ما اذا كان الراوي مسلماً غير شيعي ، ولكنــه صادق امين في النقل ـ (٤) الضعيف ، وهو ما عدا الانواع الثلاثة ، وقد اوجبوا العمل بالصحيح والحسن والموثق ، واعرضوا عن الضعيف وان كــان راويه امامياً ، وبهذا يتبين ان المعول على صدق الراوي سنياً كان أم شيعياً .

(راجع صفحة ١٩٢)

٢ ـ اتفق السنة والشيعة على ان الاسلام احل المتعة ، لنص الآية ٢٣ من سورة النساء : « فمــا استمتعتم به منهن فآتوهن

اجورهن فريضة » . ولكن السنة قالوا: ان المتعة نسخت بعد ان احلها الله ، وقال الشيعة لم يثبت عندنا النسخ . اذن لو ثبت النسخ عند الشيعة لقالوا بقول السنة ، ولو لم يثبت النسخ عند السنة لقالوا بقول الشيعة ، على ان الحقيقة كما قالها المؤلف من انها لم تعد مستعملة الآن .

(راجع صفحة ١٩٢)

٣ ـ لا اثر لهذا القول ولا مصدر في فقه الامامية ولا في أي كتاب من كتبهم ، ولا هو من عادة واحد منهم ، وانما المذكور في فقههم ان غير المسلم بما انه يباشر الخمر ، ولا يتجنب الكلب والخنزير والدماء ، وما الى ذلك من النجاسات فقد حكم جماعة من فقهائهم بان غير المسلم اذا باشر الآنية برطوبة يجب غسلها بالماء ، تماماً كما تغسل من الخمر ونحوه ، اما تحطيم الآنية فلم نسمع به إلا من المؤلف .

(راجع صفحة ١٩٢)

٤ ـ معنى الرجعة الرجوع الى هذه الحياة الدنيا بعد الموت ، والامامية لا يعتبرونها من اصول الدين ، ولا اصلاً للمذهب ، فاصول الدين عندهم ثلاثة : الايمان بالله والرسول واليوم الآخر. واصل مذهب التشيع ان يضاف الى هذه الثلاثة الاعتقاد بصدور النص عن الرسول على امامة علي وخلافته من بعده، فمن لم يعترف بالنص على الامامة ، واعترف بالله ومحمد والبعث فهو مسلم عندهم له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ولكنه ليس شيعياً ، ومن اعترف بالاصول الاربعة فهو مسلم شيعي ، وان انكر الرجعة كلية . اما

مسألة الامام الغائب فلا صلة لها بالرجعة من قريب او بعيد ، لان الشيعة لا يعتقدون بموته ثم برجوعه الي الحياة بعد الموت .

(راجع صفحة ١٩٢)

٥ ـ يرجع التشيع الى اصل صميم في العروبة فقد انتشر في العراق والجزيرة العربية قبل ان يتصل العرب بالفرس وغيرهم من الاجانب ، وقبل ان يعرفوا الترجمات والمذاهب الفلسفية . ويرتكز مذهب التشيع على مودة اهل البيت وموالاتهم ، وقد نص القرآن الكريم على مودتهم بقوله : «قل لا اسألكم عليه اجراً إلا المودة في القربى » كما نص النبي على موالاة علي بقوله : «من كنت مولاه فعلي مولاه » الى احاديث في هذا الباب لا يبلغها الاحصاء . اذن اصل التشيع يرجع الى القرآن والسنة لا الى الايرانيين وغيرهم .

(راجع صفحة ١٩٤)

٦ ـ تتلخص عقيدة الامامية بالمهدي بالكلمات التالية دون زيادة أو نقصان ، وهي « انه حي موجود في مكان ما لا يعلمه به إلا الله ، ولا يمكن الاتصال » به وانه سيخرج في وقت من الاوقات، فيملأ الارض قسطاً وعدلاً كما امتلأت ظلماً وجوراً» . ودليلهم على ذلك نقل امام عن امام عن النبي، ومن انكر وجوده واعترف لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة فهو مسلم في عقيدتهم ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم . أما الدهليز والسرداب ، وما اليه من الحكايات والخيالات التي تحاك حول شخصيته ، وينقلونها عن الشيعة ، فليست من عقيدة الامامية لا اصلاً ولا فرعاً .

(راجع صفحة ١٩٤)

٧ ــ تعتقد الشيعة من ان نسب النبوة الى علي او غيره بعد محمد فهو كافر خارج عن الاسلام لقوله تعالى : « رسول الله وخاتم النبيين » والحديث « لا نبي بعدي » . وقد رووا في كتبهم ان علياً قال مفتخراً أنا خاصف النعل ، اي مصلح نعل الرسول الاعظم، وانه قال : دخلت على رسول الله ، وكانت له هيبة وجلال ، ولما قعدت بين يديه افحمت ، فوالله ما استطعت ان اكلمه .

(راجع صفحة ١٩٤)

٨ ــ الشيعة يقدسون العقل ، ويعترفون بقدرته فيما يتعلق بالعقيدة وغيرها ، وقد قرروا في كتب اصول الفقه ، وكتب العقائد ان الوحي شرع من الخارج ، والعقل شرع من الداخل ، وان كل ما حكم به العقل يحكم به الشرع .

(راجع صفحة ١٩٥)

٩ ــ فرقة الشيعة ليست من الفرق الباطنية المتسترة ، فهذه كتبهم في العقائد تباع في كل مكان، وجامعاتهم الدينية في العراق وايران تفتح ابوابها لكل طالب ، وتلقى دروسها على المنابر . اما مسألة التقية فالباعث الاول عليها السياسة لا الدين ، اي ان اخفاء المذهب ليس من عقيدة التشيع في شيء ، ولكن السلطة الجائرة حين رأت في الشيعة الحزب المعارض الذي لا يهادن ، ولا يساوم تتبعتهم تحت كل حجر ومدر ، فاضطروا ، والحال هذه ، ان ينفوا عنهم اسم التشيع ، وان يخفوا كل ما يدل على تشيعهم ، كي يسلموا من القتل والتنكيل . ويشهد على هذه الحقيقة

ما قاله ابن ابي الحديد في اول الجزء الثالث من شرح نهج البلاغة، وهو ان معاوية بن ابي سفيان كتب الى عماله برئت الذمة ممن يروي شيئاً من فضائل علي واهل بيته ، وان يمحوا اسم كل شيعي من دواوين العطاء ، وينكلوا به ، ويهدموا داره ، وامتثل العمال امر سيدهم ، فقتـلوا الشيعة تحت كل حجر ومدر ، وطردوهم وشردوهم، وقطعوا الايدي والارجل ، وسملوا الاعين، وصلبوهم على جذع النخل . وزاد الضغط بعد معاوية اضعافاً ، حتى قتل الشيعة كل قتلة ، واخذوا بكل ظنة وتهمة ، حتى ان الرجل ليقال له زنديق او كافر احب اليه من ان يقال له شيعي .

محمد جواد مغنية

الفصل السادس

السيطرة التركية والفارسية

يحتفظ تاريخ الاسلام ، كتاريخ المسيحية ، بذكرى غزوات وحشية (« برباروا » : الاجانب) . ولكن برابرة القرن الخامس كانت قد لفظتهم الكنيسة ، وهي القوة الوحيدة التي ثبتت ضدهم ، على انقاض الامبراطورية الرومانية . وبعكس ذلك ، فالبرابرة الذين اجتاحوا الامبراطورية العربية ابتداء من القرن الحادي عشر صمموا على إقرار الوحدة السياسية والدينية فيها . فبعضهم ، المرابطون والموحدون، الخارجون من المغرب الاقصى يجسدون رد فعل البربر السنيين ضد الغزوة الهلالية التي اثارها الخليفة الشيعي في القاهرة ، وضد التقدم المسيحي في اسبانية . اما الآخرون ، السلجوقيون ، الآتون من آسيا الوسطى . فيجسدون رد الفعل السني التركي ضد المذهب الشيعي الايراني . ويستطيع هؤلاء واولئك اذن تعليل فتوحاتهم بمبدأ الحرب المقدسة .

المرابطون . ـ تجند المرابطون على الخصوص من بين ابناء قبيلة لمتونة ، وهي فرع من القبيلة البربرية الكبرى في صنهاجة والتي نعرف دورها في بلاد البربر . وهؤلاء اللمتونيون ، وهم اقرباء الطوارق وملثمون مثلهم ، ينزلون في الاراضي الواقعة جنوبي مراكش بقرب نهر النيجر ، ويجوبون القفر الى قرب طرابلس الغرب ويحاربون السودانيين .

وكانت الممالك السودانية تعقد علاقات مع افريقية الشمالية في كل زمن. وكانت المسيحية قد دخلت الى بعض المناطق : في بلاد النوبة ، وفي سنغوي (منطقة النيجر) تقريباً . اما خارج هذه المناطق فكانت عبادة الارواح الوثنية لا تزال شائعة . وفي القرن الحادي عشر ازدهرت في السودان الغربي امبراطورية غانا الواقعة على حدود السودان والصحراء الكبرى . ومدّ امراؤها (السود) سيادتهم على معظم قبائل الصحراء البربرية ، بما في ذلك قبيلة لمتونة . وفي ذلك الوقت أراد احد رؤساء اللمتونيين ان يأتي لقبيلته بعالم ديني قادر على تزويدهم بتعاليم الاسلام بشكل واضح؛ وبعد ان بحث عنه في القيروان على غير جدوى ، عاد ووجده في مراكش بشخص ابن ياسين . وجمع هذا بعض اللمتونيين وسكن في بلاد السنغال في دير حربي « رباط » ، ومن هناء جاء اسم المرابط . (وكلمة « رباط » موجودة في اسم مدينة « الرباط » وفي كلمة « مرابوط » ؛ وتشير هذه « الرباطات » الى اديرة

فرسان الهيكل المتولدة من الحروب الصليبية). وطلب ابن ياسين، رئيس الدير ، من اتباعــه طاعة عمياء واجرى بينهم المساواة المطلقة . وكان هدفه بسيطاً : إحيــاء الدين الحقيقي تحت شكل المذهب المالكي بين مسلمي المغرب . وبدأ عــام ١٠٤٢ يبشر بالاسلام بربر الصحراء وزنوج التكرور: وكان هؤلاء راغبين في الانعتاق من نير امراء غانا الوثنيين فاعتنقوا الاسلام باختيارهم ؛ وبدأ جيش الاسلام الذي تأسس بالهجوم. فمن ناحية اولى سقطت غانا نحو عام ١٠٦٧ فاتحة الباب الى اسلام السودان ، وهو إسلام بلغ ذروته في القرنين الثـــامن عشر والتاسع عشر بعد قليل مـــن التوقف. ومن ناحية اخرى فان الصنهاجيين واللمتونيين بصعودهم نحو مراكش اصطدموا بخصومهم السابقين : بربر زناتة. وكانت سجلماسة قد احتلت اثناء الزحف . وكان لابن ياسين الذي توفي في الحرب المقدسة خليفة جديراً بالمهمة ، هو ابن تاشفين . وقد اسس هذا مدينة مراكش ونقل عاصمتــه اليها . وافتتحت بلاد مراكش من البربر المراطقة ، وسار ابن تاشفين نحو الشرق . وفي عام ١٠٨٢ احتل البلاد من مراكش الى الجزائر ، وهي نهايــة فتوحاته . وبنى المساجد في كل مكان ــ علامة ملموسة للافكار الوحيدة التي كانت تسير المرابطين : وهي حركة حماسيــة ستثير الحروب الصليبيةوقد بدأت منذ ذلك الوقت بين مسلمي افريقية. وبالفعل فان الفكرة الدينيــة (دفاع الاسلام ضــد المسيحيين) جعلت ابن تاشفين يصمم على تلبية نداء الامراء المسلمين في اسبانية الذين يطلبون مساندته : فالبربر والعرب والسلاف الذين تستند

اليهم خلافة قرطبة قد هدموها باختلافهم وتقاسموا اسلابها؛ولكن هذه التجزئة لاسبانية سهلت اعادة افتتاحها بواسطة الملوك المسيحيين الذين لم ينفكوا عن التقدم . وقد شل ابن تاشفين حركة المسيحيين (وكان بينهم السيد Le Cid) في اربع معارك كانت نهايتها الحاسمة هي انتصار الزلاقة؛ولكنه اخضع في الضربة نفسها الملوك الصغار الذين استنجدوا به . وعند موته ترك امبراطورية تضم اسبانية المسلمة والقسم الاكبر من افريقية الشمالية . ولكن المدنية الاندلسية التي بدأت عظمتها بالانحطاط ستضعف بسرعة همة اولئك الرهبان المحاربين المنعتقين حديثاً من قسوتهم الطبيعية : فولد ابن تاشفين ، وهو مولود من مسيحية ، شب في اسبانية ، وحل محل المتزمت الصلب غلام رطب العود متعلم ما لبث في بضع سنوات ان وضع افريقيا الشمالية تحت تأثير المدنية الاسبانية المباشر .

الموحدون . ــ بعد بضع سنوات فقط اخذ نجم المرابطين ، الذين استمر ملكهم اقل من قرن، بالافول منذ موت ابن تاشفين. ففي ايام ولده نشأ سلفي ، (بوريتاني) آخر ليس بين البدو هذه المرة بل من قبيلة حضرية في جبال الاطلس العليا المراكشية : هي قبيلة مصمودة . فابن تومرت (تصغير بربري للاسم العربي : عمر) كان اكثر رقياً من ابن تاشفين لأن هذا لم يكن سوى عالم ديني بينما استأنف ذاك مغامرة الفاطمي عبدالله وادعى انه المهدي. وقد عارض ابن تومرت افكار ابن تاشفين ــ التصلب في مماشاة المذهب المالكي ودراسة فروع الشريعة في ابحاث العلماء فقط ــ

وخصوصاً ما يتعلق منها بفهم الايمان المؤسس مباشرة على القرآن والحديث واصول القانون . وبكلمة ، فانه انتجع المصادر الدينية ذاتها . وفضلاً عن ذلك فقد استنكر التأويل الحرفي للقرآن ، تأويل المرابطين الذين عاب عليهم عدم ايمانهم بالتوحيد الإلهي الصرف ؛ واساس تعاليم ابن تومرت هو بالحقيقة الايمان المطلق بهذا التوحيد (ومن هنا جاء اسم « الموحد » الدال على « من يعترف بوحدانية الله ») ؛ والمرابطون الذين ينسبون الى الله صفات بشرية معتبرين القرآن مخلوقاً منذ الازل هم من القائلين بالتشبيه ، وهم مشركون لانهم يجمعون كيانات اخرى الى الكيان الالهي : ولهذا وجب محاربتهم كالمسيحيين . وسنرى الوهابيين فيا بعد يتفوقون في التوحيد فقط .

ولم يكتف ابن تومرت ، في كتاباته ومواعظه ، بالعربية لغة علماء الدين ؛ بل كان كلوثر الذي سيترك اللاتينية الى الالمانية ، اي انه استعمل اللهجة البربرية التي يتكلمها ابناء الجبال المحيطين به وذلك ليجعلهم يفهمون بشكل افضل ؛ وهذا العمل وحده سيكسبه اصالة . وعند عودته من الشرق حمل الى الغرب المعقم بمذهب التمسك بالشكليات الضيق مذهب المالكيين مع ثقافة دينية احياها الغزالي ؛ وكان ان آذت حميته الاصلاحية جميع الناس : فطرد على التوالي من بوجي وتلمسان ومراكش والتجأ الى قبيلته في الاطلس الاعلى (حيث يمكن التأمل بعاصمة المرابطين من هناك) ، واخذ يبشر قبيلة مصمودة ؛ وكان ان لقي تجاوباً عند رؤساء البربر في المنطقة، فادعى انه المهدي واخذ يحث على الجهاد:

وهكذا ولدت امبراطورية الموحدين (١١٢١) .

انه امرٌ خطير : فابن تومرت باعلان نفسه مهدياً لم يقف ضد المرابطين المالكيين فحسب بل ضد الاسلام الحقيقي الصرف ايضاً ، لانه نزع كل سلطة من « المجتهدين » ، اولئك العلماء الذين يعترف الدين الحقيقي بحقهم في تفسير القرآن شخصياً . وهذه السلطة التي انتزعها ابن تومرت منهم احتفظ بها للامام فقط . وقد رأينا مبلغ اقتراب هذه النظرية من المذهب الشيعي ؛ وهذا الامام المعصوم ، ورئيس الجماعة ، هو المهدي بحكم الطبيعة ، اي ابن تومرت نفسه .

وابن تومرت الذي يبدو ان فكرة الاقتداء بمحمد مسيطرة عليه كان ملهماً اكثر مما هو رجل عمل . وكان ان وجد من يحقق له افكاره بشخص عبد المؤمن ، وهو بربري اصيل من منطقة تلمسان ، كان بالنسبة اليه كما كان عمر بالنسبة الى محمد . ورفضت قبائل الاطلس اولاً دفع الضرائب للمرابطين وهاجمت الجيوش المكلفة بمعاقبتها . وكانت المعارك الاولى قليلة النفع للموحدين ؛ ولكن ابن تومرت مات ، وخرج عبد المؤمن من الجبال بعد بضع سنوات من الدفاع ، فاحتل على التوالي تلمسان وفاس ومراكش (١١٤٧) . واثناء ذلك قام مسلمو اسبانية ضد المرابطين فاغتنم عبد المؤمن الفرصة ليركز فيها سلطته ؛ وكذلك فان الحرب الاهلية بين الحاديين في بوجي والزيريين في القيروان ، وهجمات نورمنديي صقلية الحاسمة ضد الزيريين ، سهلت على عبد المؤمن افتتاح افريقية الشمالية من الاتلانتيك الى طرابلس الغرب ،

فاصبحت لاول مرة تحت سيطرة سيد واحد قسمها الى حكومات واقر فيها مسح الاراضي الذي لم تكن تعرفه ابداً . وقبل موته بقليل (١١٦٣) اعلن عبد المؤمن نفسه خليفة (فاصبح هناك ثلاثة خلفاء اذا عددنا خليفتي القاهرة وبغداد) ، وحمل صحابة المهدي على القبول بمبدأ الوراثة في السلالة المالكة : اما اعقابه الذين تتابعوا حتى عام ١٢٦٩ (تاريخ احتلال بني مرين لمدينة مراكش) فقد حكموا حتى عام ١٢٣٦ على كل الامبراطورية التي اسسها عبدالمؤمن، وبنوا فيها الآثار التذكارية، واكرموا فلاسفة اسبانية العرب ، ولكنهم كانوا دائماً يحسبون حساباً لتأثير صحابة المهدي ؛ وكان هذا احد اسباب ضعفهم . وهناك سبب آخر هو القتال الشديد الذي اضطروا الى القيام به ضد اثنين من اعقاب المرابطين . ومن ناحية اخرى ، في اسبانية ، فان انتصارهم الباهر على المسيحيين في الاركوس اصبح دون فائدة بعد بضع سنوات بسبب كارثة لاس نافاس . وهذه السلالة التي هوجمت في افريقية واسبانية بليت بسرعة ، وانفصلت مقاطعات هذه الامبراطورية الكبيرة عنها ، وتكاثرت ثورات القصر ، واضطر الموحدون اخيراً الى التخلي عن السلطة الكاملة لحكام اعلنوا انفسهم مستقلين.

التجزئة. ــ وهكذا خرج من بقايا امبراطورية الموحدين ثلاث سلالات حاكمة جديدة : الحفصيون في تونس ، وبنو عبد الواحد في تلمسان ، والمرينيون في فاس . وهكذا جدد التاريخ نفسه ؛ وهذه الممالك الثلاث كانت أنداداً للممالك الافريقية الثلاث في القرن التاسع : الاغالبة ، والرستميون ، والادريسيون . اما في

اسبانية المسلمة فان تقدم الفتح المسيحي جعلهـا تقتصر على مملكة غرناطـة الصغيرة حيث ثبت الناصريون ـ مشيدو قصر الحمراء الذي « يبدو كأنه بَلْوَر كل اناقة وكل اذواق الفن الاسلامي في اسبانية» (ج. مرسيه) ـ ضد المسيحيين والمرينيين بواسطة سياسة التوازن حتى عام ١٤٩٢ ؛ وفي هذه السنة نفسهـا طرد فرديناند وايزابيل من اسبانية آخر امير عربي ، بانتظار قيام كريستوف كولومب بعد بضعة اشهر برفع علمهما على ارض العالم الجديد .

وكانت دولة المرينيين هي الاكثر قوة بين هـذه الممالك الافريقية الثلاث (اول تصميم لتونس والجزائر ومراكش) : وهم يذكروننا بالمرابطين بصفاتهم الشريفة، وسياستهم هي سياسة من سبقهم : الدفاع عن اسبانية والتوسع نحو الشرق الافريقي . ولكنهم انهكوا قواهم في هـذا الصراع المزدوج . وقد ملأت منافسات الممالك الثلاث نهاية القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر . وفي منتصف القرن الرابع عشر فان المرينيين وصلوا الى حدودهم الاولية : مراكش ، حيث كان البرتغاليون قد وضعوا رجلهم فيهـا . ودار دولاب الحظ فاذا بالمسيحيين هم الذين يجوبون البحر ويهددون افريقية التي اصبحت شواطئها منذ ذلك الحين نهباً للقراصنة المغاربة. وفي القرن السادس عشر فيما بعد ، فان الاسلام سيعمل ضد الهجمات المسيحية حربياً ودينياً. ويمكن التأكد ان الدين يسيطر تماماً على هذا التاريخ: فالمرابطون والموحدون هم ابطال الايمان ؛ اما المرينيون فأقل حمية . ولم يكونوا اقل اهتماماً بعبادة القديسين وبالتصوف ، وهما عنصرا اليقظة الدينية الـتي ستساهم بقوة في تحطيم الهجوم المسيحي اثناء القرن السادس عشر.

رد الفعل التركي في آسيا

كانت شعوب آسيا الوسطى تترجح دون انقطاع بين ايران والصين حسب ما كانت هذه تخضع لها او تدفعها عنها . ومنذ القرن الثامن حتى العاشر لم تكن الصين الخربة المجزأة بسبب الخلافات الداخلية تقوم بأية مقاومة ، ولكن تسم عائلة سونغ السلطة في النصف الثاني من القرن العاشر كان علامة النهوض : فبدو آسيا الوسطى ـ الباحثون دائماً عن المراعي في بلاد الاراضي البور والقفار تلك ، والمضطرون بالنتيجة الى الهجرة نحو أراض اقل عقوقاً ـ اضطروا منذ ذلك الوقت الى توجيه غزواتهم نحو المغرب ، مستفيدين من ضعف خلافة بغداد .

وقد رأينا كيف ان الاراضي الخاضعة للخليفة العباسي كانت تضيق في الشرق كما في الغرب لأن الانفصالات عملت عملها في كل مكان . فارمينيا والبلاد العربية انفصلتا عن الامبراطورية واقتصرت اراضي الخليفة على العراق حيث يسيطر البويهيون الشيعيون سيطرة فعلية. وقد وضع هذا الخليفة تحت الوصاية. وهذا الملك الخامل الخاضع لقيمي القصر كان لا يزال ، بنظر اصحاب النظريات على الاقل، مصدر كل سلطة. وهناك خلافة اخرى استقرت في اسبانية ، واخرى ايضاً (وهي هرطوقية) احتفظت بنفسها في مصر ؛ ومع كل هذا فان عدداً من الامراء الكبار كانوا يطلبون توليتهم من قبل خليفة بغداد . فمحمود الغزنوي طلب من الخليفة الاعتراف به رسمياً كملك في نهاية القرن العاشر واجيب الى طلبه ؛

وفي منتصف القرن الحادي عشر تلقى مؤسس سلالة المرابطين من الخليفــة لقب « امير المسلمين » الذي وضعه تحت سلطة « امير المؤمنين » ؛ وبعد قرن ، اي في عام ١١٧٥ ، فان صلاح الدين سيد مصر وسوريا غير المنازع سيطلب توليته من قبل خليفة بغداد؛ وهنــاك آخرون ايضاً سيطلبونها من تلك الدمى التي هي آخر الخلفاء العباسيين .

اذن، فمنذ القرن الحادي عشر جاءت من آسيا الوسطى ثلاث غزوات انتشرت في آسيا المسلمة: السلجوقيون، والمغول،وجيوش تيمور . فهل هناك تأثير متبادل بين الاسلام وهؤلاء المجتاحين؟..

السلجوقيون . ـ في القرن العاشر انقسم اتراك آسيا الوسطى الى ثلاث جماعات رئيسية : الأويغور Ouigours القاطنون في منطقة جبــال تيان ـ شان ؛ والكرلوك في تركستان الشرقيــة (كشغر)؛ والغز على حدود ترانسوكسيان. وفي نهاية القرن العاشر اعتنق الكرلوك الاسلام وانتشروا في سيرداريا (يكسارت) وردوا الغز نحو الغرب والجنوب. وتفرق الغز فاندفع بعضهم نحو روسيا وانتهوا بأن أبيدوا في بلاد اليونان . اما الآخرون (وهم الاكثر عدداً) فقد تولى الامراء السلاجقة قيادتهم ، واعتنقوا الاسلام واجتاحوا ترانسوكسيان . ومنذ عام ١٠٣٥ دخل احفاد سلجوق (جد السلالة المالكة) الى خراسان التي كانت تنتمي الى الغزنويين وافتتحوها في مدى خمس سنوات . وهذه حوادث كان لها نتائج عظيمة: فقد فتحت ايران، وبعدها بلاد الاسلام، أبوابها لشعوب آسيا الوسطى نهائياً. وبعد عشر سنوات فان السلاجقة الذين اخضعوا

بلاد فارس نقلوا الحرب المقدسة الى بلاد المسيحيين ، فاجتازوا الاناضول ودحروا ارمينيا ـ انتقام الاسلام من هجمات الاباطرة البيزنطيين المنتصرة في القرن العاشر. وفي عام ١٠٥٥ احتل طغرل بغداد وقضى على السيطرة الفارسية المرطوقية للبويهيين الشيعيين واعترف به الخليفة كملك وتزوج ابنته . وكان هذا بشيراً بعيداً بالخلافة العثمانية .

واغتنم السلاجقة آنذاك فرصة الفوضى الداخلية في الامبراطورية البيزنطية فضاعفوا هجماتهم عليها مدة عشر سنوات. واندحار الامبراطور الروماني ديوجين عام ١٠٧١ وضع يدهم على آسيا الصغرى . وفي الوقت نفسه اجتاحوا سوريا وفلسطين حيث اصطدموا بالفاطميين : انها مبارزة جديدة بين السنة والشيعة . وكان الفاطميون في حالة انحطاط ؛ فخليفة القاهرة ، كخليفة بغداد ، لم يكن سوى لعبة في ايدي جنوده المرتزقة (زنوج ، بربر ، اتراك) حيث انهكت المنافسات الامبراطورية : ثورات ، قحط ، اتلاف المكتبة الثمينة التي جمعها الفاطميون . هذه هي الشرور التي اصابت مصر بينما كان السلاجقة يستولون على القدس (١٠٧٠) . وقد ظهر رجل (قائد ذو اصل ارمني) ركز سلطة الفاطميين في مصر ولكنه جاذب السلاجقة فلسطين وسوريا على غير طائل . وكان من المنطق ان يفكر السلاجقة بمهاجمة مصر لان الفاطميين كانوا آخر عضد للمذهب الشيعي . وعند ذاك عزمت فرنسا ، الخائفة من هذا التوسع الذي يهدد بيزنطية والاماكن المقدسة معاً ، على اشعال الحروب الصليبية .

وهكذا اصبح السلاجقة لفترة من الزمن ابطال الاسلام السني ضد المسيحيــة . وكانوا حتى ذلك الوقت قد ركزوا الوحدة السياسية في آسيا ، وكذلك الوحدة الدينية بقضائهم على النفوذ الشيعي وبتجميدهم القوة السرية لطائفة الحشاشين . وهم مدينون بهذا الانتصار السريع الى تنظيم عسكري واداري يتنــاقض مع فوضى خصومهم : تنظيم يعود الفضل فيــه لثلاثة ملوك ووزير عبقري ، نظام الملك ، وهو فارسي (ومن انصار الغزالي) تجعلنا مقدرته نفكر بمقدرة الوزراء البرامكة في بغداد ، والذي يكشف كتابه (بحث في الحكومة) عن اساليبــه . وملك شاه ، اعظم ملوك السلاجقة ، يبــدو على الاقل انــه فارسي كما هو تركي . وبالفعل ، فقد كان هناك مجتمعان تركيان دخلا الاسلام : اولهما يقطن تركستان ، وهو محافظ جداً ويتأثر بالنفوذ الصيني؛ والآخر في آسيا الغربية وقد غيرته المدنيات البيزنطية والعربية والفارسية كثيراً ، وخصوصاً هذه الاخيرة . ولكن هذا التغير العميق لم ينقص ابداً من سنّية السلاجقة القاسية: « الملك ملزم بالبحث عن كل ما له علاقة بالدين وبالواجبات التي يفرضها ، وبالحديث... ومما لا بد منه ان يجتمع بعلماء الشريعة مرة او مرتين بالاسبوع». (نظام الملك) .

وعند موت السلطان ملك شاه (١٠٩٢) تقاسم اخوتــه واولاده الامبراطورية التي كانت كثيرة الاتساع على سيد واحد . فأخذ احدهم بلاد الفرس، وآخر سوريا،وآخر الاناضول. ولكن عدم وحدة هؤلاء الامراء كان ميداناً لعمل الصليبيين الذين اوقعوا

بسلاجقة آسيا الصغرى ثم بسلاجقة سوريا هزائم لا يرتق فتقها في معركتي دوريله عام ١٠٩٧ بينما كان ابناء ملك شاه يتنازعون على بلاد فارس . انها الضربة الكبرى التي نزلت بسيادة السلاجقة . ومنذ القرن الثاني عشر تجزأت امبراطوريتهم الى أمارات . وهو عمل يشبه تجزئة خلافة اسبانية قبل ذلك بقرن . والدولة السلجوقية التي هي عسكرية في الاساس وممتدة بشكل مفرط اصبحت تستند الى حكام مقاطعات كانت سلطتهم النامية سبباً في ضعف السلطة المركزية. وهو نفس السبب الذي نشأت عنه في الماضي السلالات الصفرية والسامانية في بلاد فارس الشرقية . وهؤلاء الحكام السلجوقيون الذين صاروا امراء مستقلين حملوا في التاريخ اسم أتابك (أتا : اب ؛ بك : سيد . ومبدئياً فهو اسم اوصياء ومربي الامراء الصغار) . وهكذا تشكلت سلالات مالكة محلية في سوريا وميزوبوتاميا وارمينيا وبلاد فارس . وفتحت الامبراطورية المتفصلة الاعضاء عملياً أبوابها لجميع المطامع .

وعندئذ ظهرت جماعة تركستان . فسنجر الابن الثالث لملك شاه ، وهو بطل ومثقف ، دافع ضدهم عن بلاد فارس الشرقية . وهذه الحدود دافع عنها الساسانيون والسامانيون من قبل ، ولكن كايرانيين ضد الطورانيين . اما في الوقت الحاضر فان تركيـاً يدافع عنها ضد اعداء هم اخوة له في الجنس : جماعة قره قيطاي وأصلهم من الصين الشمالية وينزلون في تركستان الشرقية ؛ والغز من بادية القرغيز ؛ وامراء خوارزم من كيفا ؛ وهؤلاء الاخيرون يتحدرون من مملوك للسلطان ملك شـاه اصبح حاكماً على بلاد كيفا . وسنجر ، وهو الاخير من السلاجقة العظام، قاتلهم بيأس

طوال ثلاثين سنة حتى موته عـــام ١١٥٧ ، ولم يستطع ان يمنع القره قيطاي والخوارزميين من اقتسام ترانسوكسيان .

وفي نهـــاية القرن الثاني عشر استخلص الخوارزميون من السلاجقة بلاد فارس التي مزقتها الثورات. وبعد خمس عشرة سنة استولوا على اوترار عاصمة القره قيطاي وقضوا على قوتهم ؛ ثم جاء دور غزنة عاصمة السلالة الغورية التي حلت محل الغزنويين في افغانستان وهندستـــان . وهكذا فان الامبراطورية الجديـــدة ، امبراطورية شاهات خوارزم،ركزت جزئياً الوحدة السياسيةلآسيا الغربية المجزأة من ناحية اخرى بين عدد من الاتابكة ، ولكن ليس وحدتها الدينية : فقد ابدلوا سنيّـــة السلاجقة المنزهة عن الخطأ بالمذهب الشيعي عام ١٢١٨ ، وفكروا ايضاً بهدم الخلافة العباسية ولكن الغزوة المغولية لم تفسح لهم مجالاً .

وبالاجمال ، فاذا كان المذهب الشيعي قد استعاد بذلك تفوقه في آسيا آنياً فانه اضاع هذا التفوق في مصر منذ بضع سنوات : ففي عام ١١٧١ ، اغتنم صلاح الدين ــ وهو كردي وابن لاحد ضباط الاتابكة ــ فرصة انحطاط الخليفة الفاطمي المستقيل بسبب خلاف وزرائه وبسبب مجاورته للصليبيين ، فخلعه واقر المذهب السني في مصر . وفضلاً عن ذلك فان هذه الدولة السنية الكبيرة وسعت حدودها حتى الفرات حيث قضت على عدة سلالات حاكمة من الاتابكة. وهكذا انتزع الايوبيون من السلاجقة الضعفاء دورهم كابطال للاسلام السني،واصبحت سوريا مركز الثقل في نضال الاسلام ضد المسيحية. والضربات التي انزلها صلاح الدين بمسيحي

سوريا كانت مميتة لولا المنافسات التي اثقلت بين اعقابه. فخلاف الامراء الايوبيين كان، كخلاف السلاجقة، ميداناً لعمل خصومهم. وتحول ايوبيو القاهرة الى التحالف مع الخوارزميين ضد الصليبيين، كما استغاث مسلمو اسبانية بالمرابطين لطرد المسيحيين. وعدا ذلك، فكما ان الاتابكة استفادوا من ضعف سادتهم فان المماليك، عبيد الايوبيين القدماء، انتهوا بان حلوا محلهم في منتصف القرن الثالث عشر. وقد رأينا ان جميع هـــذه السلالات المالكة ماتت بنفس المرض الواحدة بعـــد الاخرى: مرض جنود الحرس. ولكن مماليك مصر هؤلاء، وقد اصبحوا سلاطين، سينقذون الاسلام واوروبا من الغزوة المغولية.

المغول. ــ ان اولئك الاتراك الذين اجتاحوا العالم الاسلامي لا يزالون حتى الان يعتنقون الاسلام وهم سنيون غيورون. ولم يأتوا إلا من آسيـــا الصغرى. اما المغول اخوانهم في الجنس، والاكثر بعداً منهم، فهم يجهلون الاسلام تقريباً.

« ان مغول منتصف القرن الثالث عشر ليس لهم دين وطني سوى دين متأخر خال من التعصب هو عبادة الطبيعة والارواح التي تحكمها Chamanisme. والخان الكبير جويوك لم يكن هو نفسه معادياً للمسيحيين؛ فقد وُجد منهم بين افراد عائلته، وام خلفيه الاولين مسيحية. واثنـــان من وزرائه الرئيسين كانا نصارى نساطرة. » (بليو).

ويحمل المغول في التاريخ ايضاً اسم « التتار »: ويبـــدو ان هذا هو اسمهم البدائي وقد استعيض عنه باسم المغول (والارجح

انه اسم امارة صغيرة في القرن الثاني عشر) في منغوليا وآسيا الوسطى منذ عصر جنكيزخان. وقد استمر اسم «تتار» في الاجزاء الغربية من الامبراطورية المغولية، كما في مملكة الهورد دور[1] مثلاً.

واطلق الاوربيون فيما بعد اسم التتار الجنسي على جميع الشعوب التتارية باستثناء العثمانلي . ولكن التتار ، كاسم شعب خاص هم اليوم اتراك اراضي الفولغا، وشبه جزيرة القرم، وقسم من سيبريا.

وجنكيز خان مؤسس الامبراطورية المغولية ولد من عائلة شريفة في منتصف القرن الثاني عشر وفي المنطقة التي تسمى اليوم ترانسبايكالي. وقد دعاه والده باسم تيموتشين ؛ وتيموتشين هذا الذي اصبح يتيماً في سن مبكرة وجد نفسه قيد الاهمال والاملاق. ويمكن القول انه خلق اعماله من لا شيء : وقد ظل حتى سن الخمسين دون ان يخرج من مسقط رأسه منغوليا حيث بدأ بقيادة عصابة من المغامرين ويعيش على الصيد والغزوات . وسنحت له الفرصة آنذاك ليعضد سلالة « كن Kin » الصينية المالكة ضد الامراء البدو الذين كبر شأنهم بسبب عدم حيطة هذه السلالة. وقد جعله هذا التدخل معروفاً . وكانت منغوليا فريسة للاشتباكات الداخلية ، وقد عرف تيموتشين ان يستفيد من ذلك ؛ وبعد بضع سنوات من التجارب وتقلب الاحوال فرض سلطته على قبائل النصف الشرقي من تلك البلاد (١٢٠٧) . وهو عمل هام . وكان بين رفاقه منذ الساعة الاولى مسلمون هم على الارجح

١ـ مملكة اسمها المغول في القرون الوسطى . وقد ضمت سيبريا الجنوبية وجنوبي روسيا وانتهت في القرن الخامس عشر . المترجم

تجار اختلطوا يديرون العلاقات التجارية بين الصين ومنغوليا منذ ذلك الوقت. ومنذ بضع سنوات اضطر هؤلاء المسلمون ان يكونوا وسطاء بين المغول وخوارزم . وليس من المستحيل الآن ان يكونوا قد جسموا لتيموتشين فكرة ملكه الرئيسية: تأمين السلامة على الطريق التجارية الكبرى ـ طريق الحرير ـ بين الصين والغرب.

وفي مدة ثلاث سنوات اعترفت منغوليا كلها بتيموتشين الذي اتخذ في ذلك العصر على الارجح اسم جنكيز خان ، وهو اسم رمزي فسره الصينيون بمعنى « ابن السماء » ولكنه ربما كان يتعلق بالكلمة المنغولية « تشنك » اي « قوي » . وهناك تجمع اقر دساتير الامبراطورية ، ومن بينها دستور حفظ ذلك الجهاز الذي بدا كثير الاهمية : انه نظام « اليسق » الحديدي الذي اثقل على الجيوش المنغولية وكان السبب الرئيسي لانتصاراتها . وبالحقيقة ، فان « اليسق » جعل من القبائل المتفرقة امة .

ووجهت الغزوات الخارجية الاولى نحو الصين . وفي عام ١٢٠٩ التفت جنكيز خان نحو الشرق واغتنم فرصة الحروب المشتعلة بين القره قيطاي وشاهات خوارزم ، واجبر امراء الاويغور والكرلوك في آسيا الوسطى على الاعتراف بسيادته . ولكن العداوة اشتعلت في هذه الجهة ابتداءً من عام ١٢١٦ على الخصوص فلحق المغول بالقبائل المعادية واجتاحوا سهوب القرغيز واصطدموا فيها بجيوش ملك خوارزم وانسحبوا على اثر معركة غير حاسمة . ولكن حادثاً ذا صبغة اقتصادية وقع عام ١٢١٨ فاشعل النار في البارود ، وذلك على اثر رسالة من

شاه خوارزم اجاب الخــان المغولي عليها بارسال قافلة عظيمة (اعادة العلاقات التجارية) ؛ وهــذه القافلة المؤلفة من تجار مسلمين قتلهــا الخوارزميون ورفض ملكهم اية تسوية . وعندئذ اجتاح جنكيز خان الاراضي الاسلامية على رأس جيش مؤلف من مائتي الف رجــل ، وهو اقل عدداً من جيش الخوارزميين ولكنه احسن تنظيماً . وعند ذلك استقبل القادمون كمحررين ، كــما كان الامر في الفتح العربي : فسلمو تركستان المضطهدون من امير تركي، انتقل من النسطورية الى البوذية، القوا انفسهم في احضان المنغوليين الذين كان تساهلهم الديني يبعث على الاطمئنان . وكانت الامبراطورية الخوارزمية قــد اخضعت من ترانسوكسيان المنتزعــة من القره قيطاي ومن افغانستان المأخوذة من الغوريين ، وسيطرت على الامارات التي تقاسمت بلاد فارس مستهينة في جوارها بذلك الملك الصغير الذي بقي لخليفة بغداد . ومع ذلك فقد انهارت في بضعة اشهر ومــات ملك خوارزم من الانهاك بعد ان طرده الفرسان المغول . واستمر القائدان اللــذان لاحقاه في جولاتهما فاخضعا شمالي بلاد فارس، وسحقا الجيورجيين في القوقاز وضما القبائل التركية المستقرة في اوروبا بوجه خاص . وافتتح جنكيز خان بكتريان وافغانستان ناشراً الارهاب بمذابحه المرعبة، ودمر احد اولاده خراسان، وكان كل شيء ينحني امامهما: فتمت وحدة آسيا من منغوليا الى بلاد الفرس ولكن قسماً منها اصبح خراباً. انه اسكندر جديد اجتاز آسيا ولكنه نصف متوحش. وقبل موته (١٢٢٧) انجهز السلاطين الصينيين الذين كانوا يرتقون

القوافل (فكرة الملك الكبرى دائماً) . وبينما كان العرب والفرس والاتراك الداخلون في الاسلام يحاربون في سبيل مثل اعلى ديني فان مؤسس الامبراطورية المغولية ، وربما كانت اوسع الامبراطوريات التي وجدت ، بدا انه مهتم بتحقيق المطامع الارضية فقط ، إذ ضحى بملايين من الناس في سبيل بلوغ هدفه (توحيد آسيا وسلامتها، والقضاء على الحروب الدينية) ؛ ويجب الاعتراف بان صلابته التي لا تتأثر في احرج الظروف اكسبت وجهه البربري عظمة شبه اسطورية .

وفي حياته عيّن ولده الثالث اوغوتاي خلفاً له . ولم يقسم امبراطوريته بين اولاده الاربعة وفقاً لمبدأ الممالك البدوية التي تقسم القبائل والانصبة بين اعضاء العائلة المالكة . ووفقاً للعادة القديمة فان الاصغر يأخذ التركة الموروثة (منغوليا الشرقية) ، بينما الابن البكر يجب ان يتولى حكم الجزء الاكثر بعداً ، ذلك الجزء الذي اصبح مملكة الهورد دور ، وهي مملكة كانت تمتد من اوكرانيا الى بحر أرال ؛ وحكم الابن الثاني تركستان الشرقية والغربية (بلاد الاتراك القديمة) المتصلة بالاسلام منذ القرن الثامن .

وفي ايام اوغوتاي ــ وهو امبراطور عادي ــ الذي يملك نصف الصين ، واربعة اخماس روسيا ، وايران اصبح النفوذ الصيني قوياً جداً بفضل وزير كبير . ولكن العناصر الاخرى للامبراطورية ، من نساطرة ومسلمين، كانت تكافح هذا النفوذ : فالمسيحيون كانوا يحلمون بتحالف الامبراطور المغولي مع الصليبيين لسحق الاسلام (وهذا الحلم المخفق اتخذ شكلاً في ايام حروب

القديس لويس الصليبية في مصر) ؛ والمسلمون من ناحيتهم كانوا يريدون امبراطوراً مغولياً يحيي الوحــدة الاسلامية (ان تيمور والسلاطين العثمانيين فيما بعــد سيحققون احلامهم) ولكن بدون كثير من الانتظار؛ وحث بعضهم الخان الكبير على افتتاح الصين مستحسنين التوسع المغولي بشكل لا شعوري؛ بينما حصل الآخرون على غزوة وجهت نحو بلاد فارس حيث ايقظ هناك تركي مسلم، هو جلال الدين منكوبرتي ابن آخر ملك خوارزمي، القومية الفارسية: انها سياسة مفسدة ولكنها بطولية ومتحمسة . وقد اضطر جلال الدين الى الالتجاء الى الهند اولا بعد ان مني بالاندحار. وحين رأى ان المغوليين قد عادوا الى قتال الصين رجع الى المعركة ولكنه بدأ بمحاربة جميع جيرانه (الخليفة، والايوبيين، وسلاجقة الاناضول) مع انه وجد نفسه وحيداً امام المغول . وحين مات عــام ١٢٣١ انهار كل شيء : بلاد فارس ، وميزوبوتاميا العليا ، وجيورجيا ، والامبراطورية السلجوقية الاناضولية . واغتصبت ابواب اوروبا اذ غمر المغول روسيا وبولونيا وهنغاريا وظهروا امام فينا ، وقد ساعدهم تفرق اخصامهم . ولكن موت الامبراطور اوغوتاي انقذ المدنية الغربية التي اضطرت منذ ذلك الوقت ان تحسب حساباً للقوة المغولية : فالبابا اينوسانت الرابع اجاز لجامعــة باريس ان تنظم تعليم اللغتين العربية والتتــارية ؛ ومن ناحية اخرى ارسل سفراء الى بلاط قراقوروم حيث شاهــد الراهب الفرنسيسكاني بلان كاربان انتخاب الامبراطور جويوك .

وجويوك الذي كان يفضل الكنائس النسطورية والارمنية على

البوذية منعه الموت من تثبيت الوحدة النهائية للامبراطورية . وقد نجحت حينذاك اميرة مغولية مسيحية وابنة اخ آخر ملوك قره قيطاي (القس جان من كتّاب القرون الوسطى) في نقل السلطة الى سلالة اصغر ابناء جنكيزخان . وكان منغو اول امبراطور مغولي اعتنق المذهب العقلي (١٢٥١) ؛ فأقر الكثيرمن المفردات واستقبل في بلاطه مثقفين من الفرس ؛ وفضلاً عن ذلك قدم البرهان على تساهل ديني بتأثير من والدته ، واحاط نفسه بنساطرة وبوذيين وطاويين (دين الصين الشعبي) ومسلمين. وكان يقول للفرنسيسكاني روبركيس : « ان جميع هذه الاديان هي كاصابع اليد الواحدة » . ونعلم ان هذا الراهب حمل الى الامبراطور المغولي من القديس لويس ، الذي كان في الحروب الصليبية آنذاك ، عرض تحالف ضد الاسلام . وكانت بلاد الفرس في حالة فوضى ؛ والحشاشون الذين لم يستطع السلاجقة القضاء عليهم استمروا في غزواتهم الظلامية؛ ومماليك سوريا شلوا حركة التجارة . وهولاكو شقيق الامبراطور المغولي ، وهو بوذي ولكنه ابن مسيحية وزوج مسيحية ، اجتاح بلاد فارس على رأس جيش من اتراك آسيا الوسطى كان نسطورياً بأكثريته . وكان الحشاشون والخليفة لا يزالون يمنعون توحيد آسيا تحت السيطرة المغولية . فبدأ هولاكو بالحشاشين فهدم قلاعهم وقتل رؤساءهم (١٢٥٧) ، وفي السنة التالية استولى على بغداد ؛ وحين اصبحت حياة المسيحيين في مأمن قتل الخليفة وعائلته بشكل شائن. وعاش الاسلام التقليدي .

وقوبيلاي الشقيق الثاني لمنغو إنهى افتتاح الصين. وفي غضون ذلك مات الامبراطور فتقسمت هذه الامبراطورية الواسعة من تلقاء ذاتها الى اربع دول كبيرة : امبراطورية الصين المغولية ، وخانة كيبتشاك (روسيا المغولية) ، وخانة تركستان ، وخانة بلاد الفرس المغولية . وانتقل مركز الثقل في الامبراطورية الى الشرق الاقصى ولكن بلاد فارس ستفتن فاتحها مرة اخرى : فمغول بلاد فارس اصبحوا مسلمين ورجال ذوق . وفضلاً عن ذلك فان قوبيلاي الامبراطور الجديد الذي هو صيني بكليته تقريباً اتخذ عدداً من الايرانيين كموظفين . ومنذ ذلك العصر اختلطت اللغة الصينية التي يتكلمها مسلمو الصين باللغة الفارسية؛ وكانت اللغة الفارسية منذ زمن طويل هي لغة الاوساط الرسمية والانيقة في ايام السلالات التركية الحاكمة في الهند وآسيا الوسطى (وقد رأينا تأثيرها على السلجوقيين) ؛ وستحتفظ اللغة الفارسية بهذا التفوق بين الاتراك الى ان يستعيض عنها الاتراك العثمانيون بلغتهم الخاصة .

وكانت هنالك ايام جميلة في بلاد فارس وارمينية للمسيحيين الذين تستند اليهم السياسة المغولية ـ سياسة الاقليات التي قادت هولاكو الى محاربة آخر سلطة مسلمة في الشرق : مماليك سوريا ومصر . وفي عام ١٢٥٩ احتل دمشق وحلب جيش مغولي يقوده قائد مسيحي . ولم يكن على الصليبيين إلا ان ينضموا اليه ليقضوا على المسلمين ولكنهم ، وهم قلقون من القوة المغولية ، ترددوا وتركوا لسلطان مصر الوقت الكافي لينظم امره ؛ حيث انزل في السنة التالية بالمغول البعيدين جداً عن مركز عملياتهم هزيمة اعادتهم

الى ما وراء الفرات . انها هزيمه حاسمة كهزيمة العرب في بواتيه . وانتهى التوسع المغولي . وكانت النتيجة المباشرة لهـذا النجاح الاسلامي هي دخول خانات المغول في روسيا الجنوبية وتركستان في الاسلام .

وكانت الامبراطورية المغولية مستقرة حينذاك . وكان السياح من جميع الانواع ـ تجار ايطاليون وعرب ومبشرون مسيحيون (امثال ماركوبولو ومونت كورفان وبورردينيون)ـ يجولون فيها بسلام ؛ وضاعفت الاديان المتنوعة من مؤسساتها . انه سلام شبيه بالسلام الروماني كان يخيم آنذاك على آسيا .

مقاومة الاسلام

لقد كان هناك مراكز دائمة للمقاومة .

فمن ناحية ، لم يكتف بيبرس اعظم سلاطين المماليك في مصر بدحر المغول ؛ انه اضعف قوة ملوك ارمينيا والصليبيين والاسماعيليين في سوريا ؛ والتقط على الخصوص أحد اعضاء العائلة العباسية الذي افلت من المغول واعترف به خليفة بضرب من المهارة ، جاعلاً نفسه بذلك حامياً للخلافة ومثبتاً شرعية حكمه بنظر المسلمين السنيين .

ومن ناحية اخرى ، فان الامبراطورية السلجوقية الاناضولية ـ المعقل الآخر للاسلام السني ـ التي اخضعها المغول تقسمت الى عدة امارات . وكانت احدى هذه الامارات مهداً للامبراطورية

العثمانية، انها قبيلة تركية كانت قد هربت امام الغزوة المغولية . والعثمانيون هؤلاء ، وهم اعقاب حقيقيون للسلاجقة ، سيصبحون مثلهم ابطال الاسلام السني . وسيرفعون في القرن الثامن عشر لقب الخليفة . وفي مجرى القرن الرابع عشر رحـــلوا من مواطنهم في الهضبات الاناضولية واندفعوا نحو بحر مرمرة بقوة ، وبفضـــل نظام جنودهم الانكشارية الحازم كنظام المغول احتلوا السواحل من البحر الاسود حتى خليج ازمير واجتازوا المضايق ، وبدأت المغامرة المغولية في اوروبا من جديد .

واخيراً ربح الاسلام مغول بلاد فارس. وكان خليفةهولاكو بوذياً كوالده وصديقاً للمسيحيين؛ وتزوج ابنة الامبراطور ميشال باليولوج ودخل الحرب ضد ابن عمه خان تركستان : انها عودة الى نضال ايران ضد طوران ، وكذلك البوذية ضد الاسلام. وقد ثأر الاسلام لنفسه وعاد من جديد ديناً رسمياً لبلاد الفرس في ايام الامير الثالث من السلالة المالكة . ولكن خلفه عرض عدة مرات على ملوك اوروبا، ومنهم فيليب الجميل ، تحالفاً ضد مماليك مصر. اما فائدة ذلك فقد اقتنصها الاسلام في بلاد الفرس: فبعد سقوط خلافة بغداد باربعين سنة انتصر بشراسة ، وافلت منـــه امراء الصين المغول فقط . اما اهتداء مغول الفرس فقـــد قابله تفتت مملكتهم : اذ نشأت سلالات مالكة محلية ، مغولية او ايرانيـــة ، سنية او شيعية في مقاطعات مختلفة ونشأت معها الحروب الاهلية.

ان الوحدة السياسية لآسيا الغربية ، والتي حلم بهـــا المغول ، كانت قد ماتت في السنوات الاولى من القرن الرابـــع عشر .

وانتهت هذه الفوضى كالعادة بضربة قوية : ففي عام ١٣٦٥ ، بدأ تيمورلنك ، وهو تركي سني منحدر من سلالة شريفة في ترانسوكسيان ، بدأ باقرار النظام في تلك البلاد حيث العنصر المغولي والعنصر التركي كانا يتحاربان. واتخذ سمرقند مركزاً لعملياته وصمم على اعادة وحدة آسيا بواسطة الفتح في سبيل اعظم مجد للاسلام السني . وبالرغم من ميله الى الفرس فان الحملات الثلاث التي قادها ضد الامارات الفارسية وخوارزم وافغانستان سارت بضراوة جديرة بالمغول . ثم توجه تيمور نحو روسيا حيث كانت خانة كيبتشاك غارقة في الحروب الاهلية . وبعد ذلك جاء دور الهند الباقية على هامش الفتح المغولي ، فسحق الهنود والافغان في احدى المعارك . وعاد تيمور الى سمرقند مثقلاً بالغنائم كما عاد في السابق محمود الغزنوي. واخيراً اضطر تيمور ان يحمل على العثمانيين: فالسلطان بايزيد الاول كان يتقدم في آسيا الصغرى وقد ضم بلغاريا وسحق في نيقوبوليس جيشاً صليبياً (الجيش الاخير) كانت قد قذفته اوروبا ضده ؛ وعند ذاك امسك مصائرها بيديه (١٣٩٣) . وبعد ست سنوات جرت بين تيمور وبايزيد معركة شهيرة بالقرب من انقرة غيرت مجرى التاريخ اذ اخرت استيلاء العثمانيين على القسطنطينية مقدار نصف قرن : واصبح عند ذاك سيد آسيا ؛ وارسل امراء الغرب سفراء الى ذلك الذي انقذهم دون ان يفكر بذلك . وكانت الصين وحدها ، حيث سلالة منغ الوطنية اطاحت بحكم المغول، هي التي لاتزال قائمة في وجه تيمور. وكان يستعد لافتتاحها حين مات في مطلع القرن الخامس عشر .

ومرة اخرى احبط مشروع توحيد آسيا . فالمماليك باقون في سوريا (وفي مصر) . وسلاطين دلهي في الهند (الذين كان اجدادهم في اول الامر في خدمة الغوريين واسسوا اول مملكة مستقلة في غزنة) لم يستطيعوا ان يمنعوا قيام سلسلة من الممالك المحلية . وفي بلاد فارس الشرقية وترانسوكسيان (في هرات وسمرقند) فان ابناً وحفيداً لتيمور كانا يحكمان كامراء كبار وينشران حمايتهما على المفكرين والفنانين ؛ ووفقاً للتقليد المغولي فقد وجهوا كل عنايتهم لنشر السلام وصيانة طرق تجارية جديدة ستزول بعد وقت قصير : ومن هنا جاء تقدم الملاحة البرتغالية . ولكن بلاد فارس الغربية وميزوبوتاميا المتفلتة من التيموريين اصبحت مسرحاً لحروب اهلية طوال النصف الثاني من القرن الخامس عشر . وهذه المنافسات بين قبائل التركمان (الخروف الاسود والخروف الابيض) تجعلنا نفكر بمنافسات الغلف وجيبلن Guelfes et Gibelins (الابيض والاسود) في ايطاليا؛ وكما ان روما طلبت في السابق معونة المغول ضد الاسلام فان البندقية تبحث الآن عن معونة هؤلاء التركمانيين ضد اتراك الاناضول .

العصور الحديثة

تشكيل الدول الاسيوية الكبرى الثلاث

لقد تسلم العثمانيون الحكم مرة ثانية بعد موت تيمور . واستيلاء محمد الثاني (١٤٥٣) على القسطنطينية هدم الامبراطورية البيزنطية

وجعل مقاومة هونياد البلغاري واسكندر بك الالبـ اني على غير طائل . وسقوط هذه العاصمة الداوي كسقوط بغداد اتاح للاتراك التقدم في البلقان وضم جزر بحر ايجـــه ووضع اقدامهم في ايطاليا ايضاً (اوترانت) . ويضاف الى هذه الفتوحات (شبـــه جزيرة البلقان ونصف آسيا الصغرى) فتح شبه جزيرة القرم : واصبح بحر ايجـــه والبحر الاسود عثمانيين .

وفي بدء القرن السادس عشر بلغت هذه الامبراطورية اوجها. وقد اضطر سليم الاول ان يتحوّل عن الغرب الى الشرق . ففي بلاد الفرس أعادت سلالةالصفويين تنظيم البلاد واصبحت مصدر قلق على سلطته النامية . والصفويون هؤلاء يتحدرون من رجل زاهد تشتم منه رائحة القداسة في منطقة بحر قزوين . وكان هذا الزاهد يربط نسبه بالامام العلوي السابع ، فهو اذن ذو اصـــل عربي ؛ وقد اعتنق حفيـــده المذهب الشيعي . ويذكرنا صعود الصفويين بصعود العباسيين او الفاطميين : ففي بدء القرن الخامس عشر اسس نظاماً دينياً نشر دعاوته ليس في بلاد فارس فحسب بل في آسيا الصغرى ايضاً . انهم اولئك الصوفيون الذين سيظلون بنظر الاوروبيين « متصوفة الفرس الكبـــار » رغم صيرورتهم ملوكاً . وفي عام ١٤٩٠ فان اسماعيل ، الذي فتح بلاد فارس ، رأى اباه واخاه يسقطان قتيلين في معارك اشعلت ضد التركمان . ومع انه كان صغيراً فان التجارب انضجته ، وقد جمع اتباعـــه واستغـــل فوضى الامراء الاثني عشر الذين تقاسموا بلاد فارس فهاجمهم بالتتابع . وفي عـــام ١٥٠١ اعلن نفسه شاهاً على بلاد

الفرس وفرض المذهب الشيعي ديناً للدولة . وهكذا ولدت مع القرن امبراطورية منافسة للامبراطورية التركية .

وانتشر المذهب الشيعي شيئاً فشيئاً في آسيا الصغرى ، وتلا ذلك مذابح كثيرة . واصبحت الحرب لا مفر منها بين العثماني السني والصفوي الشيعي . وتقرر المصير في ذلك اليوم الدامي ، يوم معركة تشالدريان (١٥١٤) : فالمدفعية التركية قصفت الخيالة الفرس ولكن سليماً لم يستفد من هذا التفوق الذي كان يمكن ان يكون حاسماً، فقد رأى ان الفرس قد ضعفوا بشكل كاف ولذلك سار لافتتاح مصر، ونال قبل موته بقليل ارث (الروحي الصرف) آخر الخلفاء العباسيين الذين نصبهم المماليك . وبالفعل يبدو ان سليماً اتخذ لقب خليفة قبل افتتاح مصر وان اعتراف العباسي به اسطورة صيغت مسبقاً ، وكان لها نتائج عظيمة .

ولكن بلاد الفرس تغلبت على هزيمتها كما نهض الاتراك بعد كارثة انقرة . ودام حكم الصفوي الثاني اكثر من نصف قرن على مملكة تحققت وحدتها السياسية والدينية . وهو اطول ملك في الاسلام بعد ملك المستنصر الفاطمي ، كما قال احد المعلقين . وتتابع الصراع الديني والسياسي بحظوظ مختلفة ضد الاتراك الذين كانوا آنذاك في اوج قوتهم « ان بلاد الفرس وحدها تفصلنا عن الخراب ، فحروبها مع الاتراك تمنحنا الراحة » . هكذا كتب بوسبك سفير النمسا في ايام سليمان حليف ملك فرنسا واعظم السلاطين العثمانيين ، وكان قد حاصر فيينا .

وامتدت الامبراطورية العثمانية حينذاك من الدانوب الى

شلالات النيـــل ، «من الفرات الى جبل طارق . وفي افريقيا الشالية اوقف القراصنة الاتراك تقـــدم المسيحيين (الاسبان) باحتلالهم المدن الرئيسية . وقد حفظت مراكش وحدها استقلالها بفضل حركة الاشراف الدينية والوطنية الـتي تذكرنا بحركة المرابطين والموحدين ؛ وهي حركة نتجت عن ضعف المرينيـــين وعن الغزوات المسيحية : فقد كانت الاخويات الدينية تحث على الجهاد ضد هؤلاء حيث خرج الاشراف السعديون من جبـــال الاطلس وارتبطوا بالأئمة العلويين (كالصفويين الفرس) وتسلموا القيادة .

« ان اسباب الانتصار النهائي للاسلام عنـــد الريفيين بربر مراكش ابتداءً من القرن السادس عشر تبدو في هـــذه الامور الثلاثة : انه اتجه نحو التصوف وانتهى الى طقوس آلية بحتة ؛ وان الطرق الدينية انشأت مهام دائمة لرسل هذا التصوف ؛ وان عبادة الاولياء أتمت عنـــد البربر ديناً يتناول ادراكهم واذواقهم بحيث لم يكن الاسلام سوى رداء خفيف » (بل Bel) .

ويبدو انه لا جدوى من الســـير قدماً في تاريخ تركيا لانه لا يمثل ســـوى فائدة ثانوية بالنسبة للتطور الديني الاسلامي . ومن المعلوم ان تركيا بعد سليمان (١٥٦٦) فقدت قوتها الهجومية دون ان تشعر ؛ فعدم القدرة على تمثـــل البلاد المفتتحة ، والرشوة في الادارة ، ونزوات الوزراء ، ودسائس الحريم، وتمرد الانكشارية (الذي يذكرنا بتمرد الجنود المرتزقة في الخلافة العربية) يبـــدو

انها الاسباب الرئيسية لهـــذا الضعف الذي عرف الصفويون ان يستفيدوا منه .

فالشاه عباس اثناء حكمه الطويل ، وهو احد كبـــار ملوك الفرس ، اعاد تنظيم الجيش بفضل مساعدة مدربين اوروبيين ، وحارب دفعة واحدة كلاً من الاوزبك، والعثمانيين، والبرتغاليين؛ واعاد فتح المناطق الغربية من مملكته وكذلك مدن الشيعة المقدسة (النجف وكربلاء) ؛ وقدم الملجأ للارمن الذين طردوا من تركيا واستفاد منهم في تقدم التجارة الرائع . وفي ايامــه دخلت بلاد فارس نهائياً في علاقات اقتصادية وسياسيـــة مع اوروبا ؛ وفي السنوات الاولى من القرن السابع عشر بلغت تلك البلاد الذروة بدورها . وفي القرن التالي هوجمت دفعـــة واحدة من قبل السنيين الاتراك والسنيين الافغان ، فانقذها مغامر عبقري ، هو نادر شاه، الذي عزم اولاً على اضافـــة المذهب الشيعي الى مذاهب السنة الاربعة ثم فرض احياء المذهب السني في بلاد فارس، وفكر ايضاً (بشكل عرضي) في اقرار دين جديد . وسنرى بعـــد ذلك في بلاد الفرس ، وفي مجرى القرن التاسع عشر ، مذهباً دينياً مشتقاً من الاسلام : هو البابية .

واخيراً ولدت امبراطورية ثالثة في آسيا الغربية . فبينما كـــان اسماعيل يثبت قواعد السلطة الصفوية في بلاد فارس بدأ امير آخر بتوحيد الهند السياسي والديني ، وهو بابر المتحدر من تيمورلنك من جهة ابيه ومن جنكيز خان من جهة امه . وكان بابر قد ورث عن ابيه امارة فرغانة ولكنه لم يستطع الصمود في آسيا الوسطى

فاجتاز جبال الهندوكوش واستولى على كابول وشرع منذ ذلك الوقت في افتتاح الهند: لقد اعاد تاريخ الغزنويين والغوريين الذين هبطوا هم ايضاً من افغانستان نحو الهنـــد . وقد قص بابر في مذكراته البديعة (التي يمكن مقارنتها « بتعليقات » قيصر) قصة حياته في صراعها البطولي . ولم يكن هـــذا الرجل الكبير قد بلغ الخمسين من عمره حين مات (١٥٣٠) . وقد تألفت امبراطورية المغول الكبـــار التي اسسها ببريق لا مثيل له طوال قرن ، ولكن الانحطاط بدأ منذ نهاية القرن السابع عشر . وفي القرن التالي فان منافسة الافغـــان والمهرات ، والفرنسيين والانكليز لم تترك للامبراطورية سوى وجود اسمي تحت وصاية انكلترة . وفي عام ١٨٥٧ ـ اي بعد ستة قرون الا سنة واحدة بعد سقوط الخلافة العباسيةـ فان آخر امير من السلالة المغولية سينهي ايامه في المنفى.

ونرى الآن اي مكان متفوق احتله في تاريخ آسيـــا المغول (طورانيو الشرق) والاتراك (طورانيو الغرب) . وقـــد سعى المغول طوال الدور الاول لاقرار الوحدةالسياسية والاقتصادية في آسيا تحت شكل حكومة علمانيـــة تلغي الدولة الخلافية منطقياً ؛ وفي مجرى الدور الثاني تحولت القوة المغولية نحو الشرق الاقصى وحل الاتراك محلها في الشرق واصبحوا حماة الاسلام السني. وبين هذين الدورين كانت بلاد الفرس ، رغم مرور الشعوب وامتزاج الاعراق ، شاهداً على استمرار العبقرية الهندية ـ الاوروبية .

اذن فالاسلام استوطن نهائيـــاً في آسيا بفضل هـــذه الدول الكبرى الثلاث. ولكن يجب الا نهمل التقدم الذي حققه في مختلف

البلدان بشكل سلمي يكثر او يقل . وقد رأينا كيف تم قدمه في مدغسكر وأنسولند والصين ، بواسطة السياح والتجار . ووصل الاسلام الى جاوة بعد سومطرة والمولوك ابتداءمن القرن السادس عشر، ثم الى بورنيو. وفي القرن التالي وصل الى سيليب Célèbes. اما في الصين فان المسلمين رغم عددهم الضئيل (ستة ملايين تقريباً) كان لهم نفوذ متزايد لانهم كانوا محتشدين في مراكز هامـــة ، وخصوصاً تركستان التي لعبت دورها دائماً في مصائر الصين كما نعلم . ودخل الاسلام الى الهنـــد الصينية في القرن الحادي عشر بواسطة الملاحين العرب، ثم انتشر في بلاد التشام (القرنان الرابع عشر والخامس عشر) وفي كمبودج (القرن السادس عشر) .

اما في افريقيا فان اعتناق الاسلام توالى ببطء. ففي الحبشة بدأ في القرن الثاني عشر دون ان ينقطع . وفي السودان رأينا ان البربر فرضوا الاسلام في قسمه الغربي : ومن هنا جاء تأسيس عـــدة ممالك على انقاض امبراطورية غانا ــ ويجب الانتظار حتى القرن الرابع عشر لتفرض امبراطورية جديدة ، امبراطورية مندنغ ، سيطرتها ــ ؛ وفي القرن السادس عشر ، وعلى اثر افتتـــاح البول Peuls الوثنيين لتكرور ، فان الاسلام توقف ولم يعاود سيره الا في القرن الثامن عشر . وقـــد تغلغل في السودان الشرقي ، وكان النوبيون هم وحدهم الذين قبلوا به حتى القرن السادس عشر ، العصر الذي انتشر فيه بشكل حقيقي . وسنلاحظ اخيراً ان بعض القبائل في بلاد العرب نفسها (اهل المرّة مثلاً) لم يعتنقوا الاسلام الا حديثاً .

اكبر . ـ الممثل الثالث للسلالة المالكة الـتي اسسها بابر في الهند ـ فقد كان الامبراطور اكبر (النصف الثـاني من القرن السادس عشر) حكيماً على العرش كمارك أوريل. والخط المسيطر في ميزته هو التساهل الاكثر تنوراً . فقد نشأ على المذهب السني ولم يلبث ان فضل عليه المذهب الشيعي الاكثر ملاءمـة للتدفق الديني ، الامر الذي قاده الى احلال اللغة العربية محل الفارسية في دولته ، ثم انتقل من المذهب الشيعي الى التصوف الاكثر تقدماً واصبح صوفياً كاملاً ؛ وبتأثير هذه الصوفية المتحمسة توصل الى السماح بتعاطي الخمر واكل لحم الخنزير وانكار خـلود الجحيم معتقداً ان المحكوم عليهم بالعـذاب يفدون انفسهم بسلسلة من التجسدات استعارها من البرهمية (وفي الوقت نفسـه فان طائفة السيخ الهندية التي عقد اكبر معها علاقات صداقة اعتنقت فكرة التقمص ـ راجع الموسوعة الاسلامية مادة : السيخ) . وفي عام ١٥٩٣ فان الهندوسيين الذين اعتنقوا الاسـلام بالقوة سمح لهم بالعودة الى دينهم الاول . وسواء كان ذلك بعامل سياسي او عن اقتناع شخصي فان اكبر لم يكن يرى في جميع الاديان سـوى الشعور بالاله ويرى في اختلاف التعاليم والطقوس امراً ثانوياً جداً. وقد امتـد عطفه الى البرهمية والبوذية والمسيحية حيث كان يحث القسس على القاء محاضرات متناقضة . وبالاجمال ، فقد كان يحلم بملهب توحيد الآراء الديني ، وانتهى الى نوع من الاعتقـاد

بوجود الاله مع انكار الوحي وبدون كهنوت ، واتخذ الشمس في السماء والنـــار على الارض كرمز ظاهر (رمز دين بلاد فارس القديم الذي كشفه له المزدكيون) . ومن ناحية عملية فان عقيـــدة اكبر هذه ليس لها سوى عدد قليل من الاتبـــاع ، وهو لم يوجه ضربة حساسة الى المذهب السني في الاسلام الهندي . وقد اسرع ابن اكبر ووريثه على العرش بالعودة الى المذهب السني ؛ ولكن رد الفعل السني الذي كان له نتائج سياسية سيئة قد حدث حقيقةً بعد مضي قرن في ايام اورانغزيب (حيث اخـــذ اخوه البكر داراشيكوه عن اكبر ميوله الى التصوف والى المصالحة الدينية) . ومذهب توحيد الآراء الذي كان يدين به اكبر كان من اشـــد الانشقاقات في التقليد الاسلامي .

وبالاجمال ، فان مذهب توحيد الآراء وجد ارضاً خصبة في الهند . « ان الهند ، مع المجموعة المبرقشة من الظاهرات الدينيـــة التي تنتشر فيها تظهر للباحث كمدرسة لعلم الاديان المقارنة ، وهذا ما كانته في الواقع » (غولدزيهر) . وهذا المزيج من الاعتقادات المتناقضة يبدو في مذهب ظهر منذ وقت قليـــل في البنجاب ، هو مذهب الاحمدية الذي قام بدعاوة فعليـــة باللغة الانكليزية على الخصوص ، وفي اوروبا كما في آسيا . وغلام احمد (المتوفي عام ١٩٠٨) رئيس هذه الطائفة عرض مبادئها في كتاب يعود تاريخه الى عام ١٨٨٠ . ان قضية موت المسيح ظلت غير محتومـــة في القرآن؛ واذا كان هذا المقطع ينكر الصلب (٤،١٥٦ : « ... وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ... » فان هناك مقطعاً آخر يبدو

انه يؤكد موته (٣،٤٨ ـ والصحيح الآيــة ٥٥ : اذ قال الله ياعيسى اني متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا.. ». وقد استغل غلام احمد هذا الابهام وصرح بان موت المسيح هو في الظاهر فقط ، وانه خرج من قبره ليذهب ويبشر بالانجيل في الهند ويموت فيها . وسيكون قبره النهائي في سريناجار. وكان من الطبيعي ان تصدر فتوى سنية بتكفير هذه البدعة . ومن ناحيــة اخرى فان الميل الى مذهب توحيد الآراء ظهر في مفهوم المهدية الخاص بالاحمدية . فبينما الاسلام الحقيقي يعتبر ان المسيح والمهدي شخصان متميزان فان غلام احمد جمعهما في شخص واحد وكان هو نفسه تجسيداً لهما : ان رسالة المهدي هي رسالة سلام كامل ، والجهاد يجب ان يفهم على انه ليس حربــاً بل دعاوة فكريــة بحتة . لقد كان يرمي الى جمع المسلمين والهندوس والمسيحيين في ايمان واحد .

المذهب الوهابي . ـ انه طموح يناقض على خط مستقيم طموح الامبراطور اكبر هو الذي سبب ولادة الحركة الوهابية ـ العودة الى الاسلام الاول ـ في القرن الثامن عشر في البلاد العربية. وقد لاحظنا قبلاً ان الوهابيين زادوا على توحيد الموحدين . ولما كان هذا المذهب قد اسس فعلاً على النص القرآني والسنة دون تأويل او شرح فان الوهابيين وجدوا شركاً بالله في عدة اعمــال رضي بها الاسلام السني منذ زمن طويل : عبادة الانبياء والاولياء والقبور . فهم يرون ان الانبياء والاولياء لا يملكون معرفة الغيب الا إذا منحهم الله ذلك ؛ واعتبارهم كشفعاء يعني اعطاءهم قوة

فوق قوة الله (في يوم الدينونـــة فقط سيحصل محمد من الله على استطاعة الشفاعة) . والوهابيون لا يسمحون بتكريم شيء مخلوق كالسجود مثلاً امام قبر (ولو كان قبر النبي) او ان يطاف حوله بداعي التقوى ، او تقبيل حجر يعتبر مقدساً ؛ وهم يستنكرون الخرافات (الاعتقاد بالايام الحسنة والسيئـــة ، وبالعلامات الدالة على أمر آت ، وبالعرافين) ؛ ويحرمون القسم بالنبي واعضاء عائلته . وفي الناحية العملية يمنعون المشروبات الروحية ، والتبغ ، والموسيقى ، والرقص ، واللعب ـ كالخوارج الاباضيين تماماً .

والمذهب الوهابي ، من اسم مؤسسه ابن عبد الوهاب (المتوفي عام ١٧٨٧) لم ينشأ عن مذهب الخوارج (كما يتبادر الى الذهن) ولكنه نشأ عن المذهب الحنبلي من الوجهة النظريـــة على الاقل ، ذلك المذهب الذي اراد اقرار السنّة البدائية على غير طائل. ومن الناحية العملية فان المذهب الحنبلي احياه في بدء القرن الرابع عشر لاهوتي شهير هو ابن تيمية الذي نوقش بخشونة ومات في السجن. وفي القرن الثامن عشر كان ابن عبد الوهاب متشبعاً بتعاليمه فاستخرج منها المذهب الوهابي الذي يتألف اساسياً من رد فعل عنيف ضد عبادة الاولياء المسيطرة آنذاك. ونحو عام ١٧٤٠ تحالف ابن عبدالوهاب وابن سعود لنشر التعاليم فيقوم الال بالسلطة الروحيـــة والآخر بالسلطة الزمنية ، واسسا في نجد دولة اقلق تقدمها الباب العالي . وفي عـــام ١٨٠٢ نهب الوهابيون المزارات الشيعية ؛ وفي عام ١٨٠٦ جددوا اعمال القرامطة فاحتلوا مكة وهدموا المساجـــد والمنابر ولم يوفروا سوى الكعبة ؛ واستولوا على المدينة وانتهكوا

حرمة قبر النبي ، ثم امتـدت غزواتهم الى سوريا وبلاد ما بين النهرين بعد ان اوقفوا الحج . وعند ذلك (١٨١١) تلقى محمـد علي الذي قضى على مماليك مصر (خصوم بونابرت) امراً من الباب العالي بالقضاء على الوهابيين : ولم يتوصل الى ذلك إلا عام ١٨١٨ وبخسارة بحتة لان الدولة الوهابية تأسست من جديد بعد ذلك بقليل . وفي العصر نفسه قام هندي يدعى احمد من (باريللي) بنشر تعاليم مماثلة في بلاده حيث تسيطر البقايا الوثنية وعبـادة الاولياء منذ زمن طويل على نفوذ الشرك البرهمي . وقـد ربح المذهب الوهابي اليوم القسم الاكبر من البـلاد العربية دينياً وسياسياً ، وفاض ايضاً على البلدان المتاخمـة ـ ما بين النهرين والصومال ـ وخصوصاً عندما أطاح السلطان ابن سعود بالسلالة الشريفية السريعة الزوال في الحجاز (١٩٢٤) .

البابية والبهائية . ـ بينما كان المذهب الوهابي ، وهو عربي صرف ، يسعى لاعادة الاسلام الى منبعـه فان البابية والبهائية المشتقة منها ، وهما فارسيتان ، أرادتا توسيع الاسلام . وقـد انفرد المذهب الوهابي بالبلاد العربية بينما البهائية انتشرت بسرعة مدهشة من آسيا الى اميركا .

والامر هنا لا يتعلق بانشقاق ديني بل بدين جديد منبثق عن الاسلام. وقد فهمت الحكومة الفارسية مرمى البابية منذ ظهورها وسعت للقضاء عليها بجميع الوسائل. والبابية في بدءامرها لم تكن دون شبه بالحركة اللوثرية : تمرد بوريتاني ضد شيم الاكليروس الرسمي. وكذلك فان اعضاء الاكليروس الفارسي، الملاّ ، انبروا

للدفاع عن انفسهم متهمين البابيين بالفوضوية .

ومن المعلوم ان الحركة المهدية (عودة الامـــام المختبىء) لها مكان عظيم في المذهب الشيعي . ومن هذه الفكرة انطلق مؤسس البابية . ان ميرزا علي محمد ولد في شيراز عـــام ١٨١٩ واغتنم فرصة الحج الى كربلاء ، المزار الشيعي ، فتحالف مع عضو من طائفة الشيخية الشيعية ؛ وهي طائفة تقوم بعبـــادة خاصة للامام المختبىء وتعارض طائفة الاخباريين (انصار التقليد) . وبعودته الى شيراز بدأ يبشر ويهاجم الاكليروس الرسمي بتأثير من طائفة الشيخية ؛ وهذه التعاليم نفسها قادته على اثر انجذاب روحي ليلي عـــام ١٨٤٤ (عام ١٢٦٠ للهجرة ، بعد الف سنة تمامـــاً من الاختفاء الغامض للامام الثاني عشر) الى ان يعلن انه « الباب » (الباب الذي يفتح معرفة الحقائق الالهيـــة من جديد) . ولقب الباب هذا لم يكن جديداً : فالاسماعيليون والدروز والنصيريون كانوا قد اطلقوه على بعض اصحاب المقامات عندهم . واضاف الباب الى مواعظه كتـــابات هي على الخصوص شروح رمزية للقرآن (الامر الذي يذكرنا بالمذهب الاسماعيلي). وقد جمع بسرعة كل اولئك المنهوكين من التشدد السني والحالمين بالحرية والمساواة وينتظرون رجعة المهدي . واصبحت الحركة شهيرة بحيث قادت الباب الى السجن : وكان قبلاً قد ادخل في مذهبه احد رؤساء الاكليروس في طهران ، وقد اتـــى هذا الى شيراز ليدعوه الى الارتداد عن تعاليمه. ودعاوة انصاره الفعلية ــ ومن بينهم امرأة اسمها زرين تاج (« كرزو ستيفان ») ودعيت « قرة العين »

وهي ذكية بقدر ما هي جميلة ، ومبشرة بالحركة النسائية في بلاد فارس ـ جعلت الحكومة تصمم على انزال العقاب . واصبح للبابية شهداؤها آنذاك. ويجب ان نقرأ في مؤلفات (غوبينو) قصة مقاومة حصونهم البطولية في مازندران . وفعالية البابية الدينية اصبحت سياسية . ولايقاف الحركة التي يزداد انتشارهـا يجب ضرب الرأس : فحكم على الباب بالاعدام رميـاً بالرصاص ؛ ولكن الطلقات الاولى لم تفعل شيئاً سوى انها قطعت الحبال التي كان معلقاً بها (وكان الجنود من المسيحيين) ؛ ولو كان حاضر الذهن والتجأ الى جمهور المتفرجين لماعرفنا ما الذي كان سيحدث، ولكنه كان منهوكاً طائر اللب فركض نحو الجنود وقتل بالسيف (١٨٥٠) .

ولم يضعف موته شجاعة البابيين بل على العكس ؛ ففي عام ١٨٥٢ اندفع ثلاثة منهم نحو الشاه وجرحوه فقط ، وكان العقاب رهيباً . ونجد تفاصيل ذلك فيمؤلفات غوبينو ونيقولا . اما « قرة العين » البائسة فقد خنقت مع غيرها واحرقت على المحرقة .

فأية بدع خطرة جاء بها البـاب اذن ؟.. ان تعاليمه تحمل بالحقيقة ثورة دينية واجتماعية . فقد استبدل قرآن محمد بقرآن من تأليفه قال انه موحى به اليه . وبينما القرآن التقليدي يعلق اهميـة كبيرة على الطهارة الشرعية ، فان الباب اعتبر كل شيء طاهراً في الخليقة . والطهارة مرتكزة بشكل اساسي على القنـاعة . امـا اصلاحات البـاب الاجتماعية فان اهمها الالغاء التقريبي للطلاق ، وزيادة اهليـة وحرية المرأة (وهي حرية اصبحت

حقيقية في الشرق) . علينا ان نعيش ليس وفقاً للحرف بل وفقاً لروح القانون الديني ؛ وهو موقف يذكرنا بموقف المسيحية حيال اليهودية . ولكن الباب مزج في هذه الافكار المعقولة جداً تراكيب حسابية مماثلة لتراكيب الاسماعيلية والحروفية: ان الله خلق العالم بواسطة سبع صفات . والعدد ١٩ يجب ان يعتبر مقدساً لانه موجود في القيمة العددية لحروف كلمة « وحيد » (« الله الوحيد ») .

وبعد موت الباب قام احد تلامذته ، ميرزا يحي المدعو «صبح الأزل» وتولى قيادة الطائفة ، والتجأ مع اتباعه الى بغداد، ولكن الحكومة التركية عينت له محل اقامة في القسطنطينية اولاً ثم في أدرنة . وحينذاك حصل انشقاق عام ١٨٦٣ : فميرزا حسين المدعو « بهاء الله » وهو شقيق صبح الازل لابيه اعلن نفسه ، بتطور شبيه بتطور الاسماعيلية ، انه الشخص الذي بشّر به الباب ـ نوع من البارقليط .

واتباع صبح الازل (المتوفي عام ١٩١٢) ـ الأزليون ـ ظلوا مخلصين لتعاليم البابية وقد اختفوا بالتدريج . اما حزب بهاء الله ـ البهائيون ـ فقد استمروا في دعاوتهم الفعلية في بلاد الفرس كما في الخارج . فأي فروق اذن تفصل بين الطائفتين ؟..

ان البابية بالنسبة للمذهب الشيعي تمثل تقدماً نحو التحررية الدينية . ولكنها ظلت اسلامية بحتة وايرانية بشكل خاص . اما بهاء الله فقد مال الى تأسيس دين عالمي يضم جميع البشر – ومن هنا جاءت رغبته في ايجاد لغة عالمية ؛ وقد سعى لا للقضاء على

الاديان السابقة بل ليجمعها في مثل اعلى واحد . ان جميع الاديان صالحة في الاساس ؛ ويكفي ان تتخلى عن معتقداتهـــا وطقوسها الزائدة عن الحاجة لتتصالح . والانبياء لا ينسخون بعضهم بعضاً (كما في الاسلام) لأن الجميـــع يبشرون بنفس المبادىء وهم ، بشكل ما ، عنصر موصل بين البشر والروح الاعلى الذي لا يعرف إلا بصفاته . والشيء الجوهري هو محبة الله لان المحبة هي شرط التقدم وهي قانون الكون .

أما فيما يتعلق بالشيء العملي في البابية فليس هنـــاك طقوس خاصـــة لان الدين يجب ان يظهر ليس بالاحتفالات بل بجميع اعمال الوجود ؛ إذن ليس هنـــاك نظام مراتب كهنوتية . ومن الناحية الاجتماعية فان جميع البشر - رجالاً ونساء - لهم نفس الحقوق ؛ فالحرب اذن يجب ان تزول ، وكل خـــلاف يجب ان يسوّى عن طريق التحكيم .

وبالاجمال فهو اخلاق اكثر منه دين ، ولكنـــه اخلاق ذات ميول صوفية. أما عباس افندي ابن بهاءالله وخليفته فقد إستوحى ايضاً افكاراً غربية وعقلية في قيادة طائفته .

المذهب العصري . - تعرّض الاسلام لتأثير هذه الافكار منـــذ الثورة الفرنسية ، وبواسطة فرنسا بشكل خاص .

وليس لدينا المجال هنا للالحاح على الناحية السياسية لهذه الميول العصرية . انها حظيت بتطور الصحافة العظيم فاتخـــذت على الخصوص شكل القومية - قومية ذات قاعدة تاريخية ، متحركة منذ الغاء الخلافة العثمانية بواسطة جمعية انقرة ومنذ سقوط شريف

مكة الكبير الذي اعلن نفسه خليفة بدوره (١٩٢٤) ؛ ويمكن القبول اليوم بأن قضية الخلافة لا تمثل ابداً اكثر من فائدة تاريخية .

فن الوجهة الدينية يحاول العصريون اقرار الاجتهاد (الحق بالبحث الحر والمناقشة الحرة) . وفي الهند فان احمد خان بهادور (المتوفي عام ١٨٩٨) ومؤسس جامعة عليكرة ألف حول القرآن شرحاً معتزلياً جديداً ، أي انه عقلاني صريح؛ وقد اعتبر تلامذته ان الدين الاسلامي يجب ان يتلاءم بجرأة مع تطلبات العالم العصري .

وفي مصر اتحد محمد عبده (المتوفي عام ١٩٠٥) مع الثوري جمال الدين الافغاني المتوفي عام ١٨٩٧) ليؤسسا حزب السلفية (المسلمون التقدميون) . وقد حارب تأثير اوروبا (حيث مكث فيها عدة سنوات) : ومع انه جعل القرآن والسنة اساساً له فقد طرح التقليد ونادى باتحاد المذاهب الاربعة والفرق الدينية . وعدا ذلك فقد شرح الكتاب المقدس بطريقة فيها ملاءمة للعلم العصري : فالجن مثلاً ، الذين اشار اليهم القرآن هم المكروبات ، وهكذا. وقد استخرج من هذه التأويلات العقلية البرهان على القوة الالهية في الاسلام والتي تجعله اسمى من الاديان الاخرى . وعزم محمد عبده على تحقيق التوافق بين الاسلام والعلم ؛ وهو توافق يذكرنا باعمال الاشعري ــ السنّة والمعتزلة ــ والغزالي ــ السنّة والتصوف .

وبالفعل فان الاسلام لم يتردد في الاستفادة من التطبيقات

العملية للعلم : ففي عام ١٩٣٥ ، وللمرة الاولى ، القيت خطبة في في القاهرة بواسطة الراديو وكذلك النصوص القرآنية ؛ وبعد مضي سنتين ، وفي مصر ايضاً ، كان مكبر الصوت ينقل بعض الآيات القرآنيـة كل صباح الى المدارس . وفي الفترة نفسها فان مشروع ترجمة النص المقدس الى لغات اوروبية مختلفة ، هذا النص الذي كان الاسلام يصرح بعدم امكان لمسه ، تبنته تلك البلاد رسمياً . وحقيقة القول (دون ان نتكلم عن الترجمات التي قام بها المستشرقون الاوروبيون) فان المسلمين كانوا قد وضعوا فيها اشياء اخرى باللغات الفارسية والاوردية والمالزية والتركيـة (في استانبول منذ كانون الثاني ١٩٣٢ ، وكانت الترجمة التركية ترتل في المسجد) .

ومن المعلوم ان النظام الكمالي ترك الالفباء العربية ـ التركية واستعاض عنها بحروف لاتينية وابدل القانون الاسلامي التقليدي بالقانون المدني السويسري . وفضلاً عن ذلك فان التأثير الغربي تأكد في تحرير المرأة ونتائجه (رفع الحجاب ، والدراسة ، والرياضة ، واصلاح قانون الزواج) ليس في تركيا فحسب بل في ايران وبعض البلدان العربية حيث قرىء المفكرون الاوروبيون ونوقشوا وفرضوا تأثيراً راهناً .

وتركيا الكمالية، بالغائها الطرق الدينية واعلانها الحرية الفردية في العبادة، حققت انفصال الروحي عن الزمني . وما من شك في ان ريح المذهب العقلي هبت من كل ناحية بين المفكرين على الاقل، ولكن يجب ألا نستنتج ان الاسلام اقلع عن متابعة توسعه .

فجامعة الازهر (في القاهرة) مثلاً ارسلت بعثـات عديدة الى مختلف البلدان . وفي الهند ، بالرغم من ردود الفعل الهندوسية ، فان المدارس للغلمان والفتيـات تضاعفت وقامت الجمعيات (وخصوصاً الجمعية الاحمدية التي هدت عدة طوائف الى الاسلام) بدعاوة فعلية ؛ ومن ناحيـة اخرى فان التبشير بالدين ازداد في بعض اجزاء اتحاد جنوبي افريقية . ولذلك يكون من عدم الفطنة اذن التأكيد بان النداء الصوفي لن يدوي بعد في اعماق الاسلام الغامضة ، بسبب مفعول القانون الازلي لردود الفعل .

وبالاجمال ، ففي نصف الطريق من القرن العشرين ، يمكننا اذا أمعنا النظر في مجموعة البلدان ذات التقليـد الاسلامي ان نرى فيها عدة ميول :

ففي تركيا تسيطر علمانية تكشف اصولها جزئياً عن مؤثرات اوروبية ، ولكن اعراضاً ظهرت منذ زمن قصير تبدو انها تعلن العودة الى الحماسة الدينية في بعض الاوساط الاجتماعية .

وهناك بلدان اخرى اثبتت انها محافظة مع انها جددت قليلاً من مذهبها التقليدي ؛ وقد ظلت اليمن هي الاكـثر اخلاصاً للماضي ؛ وفي العربية السعودية وافغانستان ظل الاسلام شديد الارتباط بمصاكره ، ولكنه يقبل ويستقبل التطور الذي يأتي بـه التقدم العلمي والمادي .

ويمكن الاعتبار ان مصر وسوريا والعراق تحتل وضعية الوسيط بين الاثنتين السابقتين . فالاسلام فيهـا هو دين الدولة (خط جوهري : ان قانون الاحوال الشخصية مصان بها دائماً رغم الضغط

الذي يقوم به بعض العصريين) ؛ ولكنه يقبل ببعض العناصر من الانظمة السياسية والاجتماعية الغربية .

واخيراً ايران ذات الاسلام الشيعي ، انها قبلت في بدء هذا القرن عدة تجديدات غربية. ففي أيام رضا شاه خسر الاكليروس العظيم النفوذ منذ القرن السادس عشر الكثير من تأثيره لمصلحة دفعة من الشعور الوطني المنزه عن المطالب الاقليميـــة والمؤسس على الشعور بامجاد الماضي . ومنذ موت رضا شاه استعاد الاكليروس تأثيره الديني والسياسي على عدة فئات مـــن السكان (العودة الى الاحتفال العام بالحداد العلوي ، وظهور الحجاب النسائي بشكل متزايد) .

ومن ذا الذي يستطيع معرفة ما يتبع هذا التطور الديني الذي تتدخل فيه العوامل السياسية اكثر فا كثر ؟.. من الممكن التخمين انه سيتحقق على ايقاع ان لم يكن سريعــاً فهو متسارع دون ان يفسد في جوهره المبادىء التي تؤلف قوة الاسلام ورأسماله .

IBN KHALDOUN(l'admirable introd. à son *Histoire universelle*, trad. par De Slane, sous le titre *Prolégomènes*).

Histoires générales des pays musulmans: GAUDEFROY - DEMOMBYNES, *Le monde musulman jusqu'aux Croisades;* GEORGES MARÇAIS (Histoire générale dirigée par Glotz: Moyen âge.tome III, chap. IV,VIII,XII); LE MÊME, *L'art de l'Islam* .



من مصادر الكتاب ...

BIBLIOGRAPHIE SOMMAIRE

MEYERHOF, *Le monde islamique* (bon recueil de documents photographiques).

BOUSQUET, *L'Islam maghrébin* .

Calendrier musulman et grandes dates de l'Islam: L. MASSIGNON,

Annuaire du monde musulman(2e éd.1925,SectionA).

Concordance des dates de l'Hégire et du calendrier européen :

tableaux synchroniques de WUSTENFELD etMAHLER (Vergleichungs-Tabellen, Leipzig, 1887 et 1903).

Islam moderne : L. MASSIGNON, Annuaire (indispensable; 4e éd. 1954); Revue du Monde Musulman (1906-1926) ; Revue des études islamiques (depuis 1926); Cahiers de L'Institut d'études de L'Orient contemporain (depuis 1944).

Histoires générales de L'Islam rédigées en arabe classique: IBN AT-TIQTAQA, *Al-Fakhri* (trad. Amar) ; TABARI, *Chronique* (version persane, trad. Zotenberg) MAÇOUDI, *Livre de l'avertissement* (trad. Carra de Vaux) ; LE MÊME, *Prairies d'or* (trad. Barbier de Meynard et Pavet de Courteille);

فهرست

صفحة



١٩٦٠/١١/٢٩

زدني علماً

١ - حوار الحضارات.
٢ - الميتولوجيا اليونانية.
٣ - مبادىء في العلاقات العامة.
٤ - الخلدونية.
٥ - سوسيولوجيا الأدب
٦ - الأسواق الزراعية.
٧ - الجمالية الفوضوية
٨ - تاريخ الفنون العسكرية
٩ - الفكر الفرنسي المعاصر
١٠ - الأدب المقارن
١١ - الإسلام
١٢ - برغسون
١٣ - سيكولوجيا الفن
١٤ - تأملات ميتافيزيقية
١٥ - في الدكتاتورية
١٦ - العقد النفسية.
١٧ - دستويفسكي.
١٨ - نظرية العفو.
١٩ - الإنسان ذلك المعلوم.
٢٠ - سوسيولوجيا الفن.
٢١ - السيمياء.
٢٢ - التخلف المدرسي.
٢٣ - علم الأديان الفكر الإسلامي.
٢٤ - مدخل إلى علم السياسة.
٢٥ - نقد المجتمع المعاصر.
٢٦ - روسو.
٢٧ - الأدب الرمزي.
٢٨ - طريقة الروائز في التربية.
٢٩ - مصير لبنان في مشاريع.
٣٠ - من ديكارت إلى سارتر.
٣١ - الإنطباعية.
٣٢ - تاريخ قرطاج.
٣٣ - باسكال.

٣٤ ـ المؤسسات العامة.
٣٥ ـ المسألة الفلسفية.
٣٦ ـ تاريخ السوسيولوجيا.
٣٧ ـ الفدرالية.
٣٨ ـ أمراض الذاكرة.
٣٩ ـ المذاهب الأخلاقية الكبرى
٤٠ ـ نقد الأيديولوجيات الكبرى
٤١ ـ الفلسفات الكبرى.
٤٢ ـ العواطف والحياة الأخلاقية.
٤٣ ـ المكتبات العامة.
٤٤ ـ منظمة الأمم المتحدة.
٤٥ ـ الدستور واليمين الدستورية.
٤٦ ـ هذه هي الحرب.
٤٧ ـ الممارسة الأيديولوجية.
٤٨ ـ المواطن والدولة.
٤٩ ـ فلسفة العمل.
٥٠ ـ مونتاني.
٥١ ـ علم الجمال.
٥٢ ـ تدريب الموظف.
٥٣ ـ فلسفة التربية.
٥٤ ـ السوق النقدية.
٥٥ ـ الإنسان المتمرد.
٥٦ ـ تيار دو شاردان.
٥٧ ـ التربية الحديثة.
٥٨ ـ كيركيغارد.
٥٩ ـ تقنية المسرح.
٦٠ ـ المذاهب الأدبية الكبرى.
٦١ ـ النقد الجمالي.
٦٢ ـ الحضارات الإفريقية.
٦٣ ـ ديكارت والعقلانية.
٦٤ ـ العلاقات الثقافية الدولية.
٦٥ ـ الببليوغرافيا.
٦٦ ـ علم السياسة.
٦٧ ـ الاعلامياء.
٦٨ ـ سوسيولوجيا السياسة.
٦٩ ـ الأدب الطبيعي.
٧٠ ـ الجمالية عبر العصور.
٧١ ـ فن تخطيط المدن.
٧٢ ـ علم النفس التجريبي.

٧٣ ـ أصول التوثيق.
٧٤ ـ دينامية الجماعات.
٧٥ ـ تاريخ العرقية.
٧٦ ـ قيمة التاريخ.
٧٧ ـ سوسيولوجيا الصناعة.
٧٨ ـ الماركسية بعد ماركس.
٧٩ ـ معرفة الذات.
٨٠ ـ تاريخ الطيران.
٨١ ـ التعليم المبرمج.
٨٢ ـ السلطة السياسية.
٨٣ ـ سوسيولوجيا الحقوق.
٨٤ ـ الخطوط ... لفلسفة ملموسة.
٨٥ ـ مدخل إلى التربية.
٨٦ ـ معرفة الغير.
٨٧ ـ القيمة.
٨٨ ـ عظمة الفلسفة.
٨٩ ـ الإنسان الأول.
٩٠ ـ اللحظة العدمية المتعالية
٩١ ـ الجمالية الماركسية.
٩٢ ـ تاريخ بابل.
٩٣ ـ الفلسفة والتقنيات.
٩٤ ـ جغرافية العالم الصناعية.
٩٥ ـ فلاسفة إنسانيون.
٩٦ ـ الحرب الأهلية.
٩٧ ـ أصل الموحدين الدروز.
٩٨ ـ من الرأي إلى الإيمان.
٩٩ ـ التسويق.
١٠٠ ـ دفاعاً عن الأدب.
١٠١ ـ الذين يحضرون غيابهم.
١٠٢ ـ الجماعات الضاغطة.
١٠٣ ـ الأسطورة.
١٠٤ ـ القوى العاملة في الامارات
١٠٥ ـ الإحصاء.
١٠٦ ـ الوظيفة العامة.
١٠٧ ـ جديد في مقدمة ابن خلدون.
١٠٨ ـ النظام السياسي والإداري في بريطانيا.
١٠٩ ـ الثقافة الفردية وثقافة الجمهور.
١١٠ ـ توظيف الأموال.

١١١ - الأدب الألماني.
١١٢ - المحاسبة التحليلية.
١١٣ - النظام السياسي والإداري في فرنسا.
١١٤ - الأمومة والبيولوجيا.
١١٥ - الحريات العامة.
١١٦ - قانون الفضاء.
١١٧ - تلوث المياه.
١١٨ - النقد الأدبي.
١١٩ - النظام السياسي... في الاتحاد السوفياتي.
١٢٠ - التلوث الجوي.
١٢١ - النسبية.
١٢٢ - السوريالية.
١٢٣ - حلول فلسفية.
١٢٤ - التلفزيون الملون.
١٢٥ - مدخل إلى الاقتصاد.
١٢٦ - الأخلاق والحياة الاقتصادية.
١٢٧ - مناهج علم الاجتماع.
١٢٨ - استطلاع الرأي العام.
١٢٩ - وحدة الوجود العقلية.
١٣٠ - الأدب الإيطالي.
١٣١ - المذاهب الاقتصادية.
١٣٢ - الفن التكعيبي.
١٣٣ - التربية الجنسية عند الولد.
١٣٤ - فلسفة القانون.
١٣٥ - الطفولة الجانحة.
١٣٦ - الرواية البوليسية.
١٣٧ - التحليل البنيوي للحكاية.
١٣٨ - تاريخ الجزائر المعاصر.
١٣٩ - الكوميديا.
١٤٠ - تاريخ علم الآثار.
١٤١ - السيكولوجيا الصناعية.
١٤٢ - الدولة.
١٤٣ - البحث العلمي.
١٤٤ - المجتمع الصناعي.
١٤٥ - التوجيه التربوي.

L'ISLAM

Par

H. MASSE

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris

زدني علماً

- الاسلام / هنري ماسيه (١١) . . . .
- أصل الموحدين الدروز / أمين طليع (٩٧) . . . .
- الانسان ذلك المعلوم / الدكتور عادل العوا (١٩) . . . .
- التقمص / أمين طليع (١٦٨) . . . .
- علم الأديان وبنية الفكر الاسلامي / د. عادل العوا (٢٣)
- الفكر العربي / محمد أركون (١٧٧) . . . .
- من الكندي إلى ابن رشد / الدكتور موسى الموسوي (١٨٩) . . . .

- تاريخ الفلسفة الاسلامية / هنري كوربان
- الفيلسوف الشيرازي / الدكتور جعفر آل ياسين . . . . .
- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية / د. محمد عبد الرحمن مرحبا (جلد) . . . .
- الوصية الواجبة في الاسلام / هشام قبلان . . . .

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth – Paris